جامعة الجزائر
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفلسفة

معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

إعداد الطالب:
محمد لعاطف

إشراف الدكتور:
طالب مناد

السنة الجامعية: 2007 / 2008

جامعة الجزائر
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفــلسفـــة

معوقات النهضة وطرق علاجها في فكـــر مالك بن نبي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

قائمة أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور حمودة سعيدي..............................رئيسا
الدكتور طالب مناد.................................مقررا
الدكتور الأخضر شريط.............................عضوا
الدكتور يوسف زرافة...............................عضوا

إعداد الطالـــب: محمد لـــعاطف

السنة الجامعية:2008/2007

الإهــداء

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى:

والديَّ........... والدتي التي انتقلت إلى رحمة بارئها يوم 15ماي 2005, فللهم اغفر لها وتغمدها برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين..... والدي الذي كان رمزا لتحدي الصعاب والصبر على المكاره والوفاء للأهل.

كل أفراد عائلتي ...... الذين ما توانوا عن مشاركتي مشوار كتابة البحث ، وما ملّوا من دعمي أثناء فترات دراستي, ولصبرهم على إهمالي وتقصيري وانفعالاتي الناتجة عن ضغوط البحث في ظل الأوضاع الصعبة

شكــــر وتقديــر:

الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض بما يسر لي من إتمام هذا البحث.

وبعد......

أتوجه بفيض من الشكر والعرفان المقرون بعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور طالب مناد لقبوله الإشراف على هذه المذكرة، ولسعة صدره وصبره رغم انشغاله الشديد، وعلى ما أولاني من عناية ودعم في سبيل إتمام هذا البحث، وعلى قراءته الدقيقة له حرفا بحرف، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأعظم له الأجر والثواب.

كما أخص بالشكر أيضاً إلى الناصح والموجه الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد مغازي الذي لم يبخل علي بنصائحه القديرة وتوجيهاته القيمة التي فتحت أمام عيني قراءات المستقبل ، وحثه لي بمواصلة الدراسة، والذي يمثل بالنسبة لي همزة وصل مع مالك بن نبي باعتباره من تلامذته الذين عايشوه من خلال محاضراته وحلقاته الفكرية .

والشكر والتقدير والعرفان موصول إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة، الذين تفضلوا بالموافقة على تقييم هذه الرسالة ، وإبداء ملاحظاتهم القيمة عليها مما زاد في قيمتها وحقق الهدف منها.

والشكر الجزيل إلى كل من أسدى إليَّ كلمة نصح وإرشاد.

مقدمة:

إن القيام بأي نشاط إنساني لابد له من خلفيات ودوافع تحركه لتحقيق غاياته, وبحثنا هذا لايشذ عن هذه القاعدة, حيث أن الدافع الأساسي لاختيارنا لموضوع البحث في إشكالية النهضة إنّما يعود إلى فهمنا لمعنى الفلسفة على أنها تلك الدراسة التي تنطلق من مشكلات الواقع لتحولها إلى تساؤلات, ومن ثمة البحث عن حلول لها, وإجابات قائمة على حجج وبراهين. وإذا كان التخلف والانحطاط هو أعظم تحد تواجهه أمتنا, فلماذا الانشغال بالترف الفكري الذي يخوض في مسائل لا تقدم شيئا لواقعنا المتخلف فالشعور بهمِّ المسؤولية لأجل المساهمة في تقديم خدمة ملموسة للمجتمع هو المحفز الذي دفعنا لدخول غمار البحث في هذه الإشكالية. أمّا القول أنها إشكالية استهلكت بالبحث, فنجيب عنه بأن استمرارية تخلفنا تستدعي مواصلة البحث إلى أن نتجاوز هذا الوضع, كما أن لكل باحث وجهة نظره الخاصة التي تجعله يعالج الموضوع بشكل مختلف عن غيره من الباحثين.

ولكن لماذا بن نبي دون غيره؟ لأنه بالرغم مما قدمه للأمة من أفكار قد تُشكل مشروعا نهضويا متكاملا إلاّ أن جيلنا مازال يجهل هذا المشروع ويجهل المكانة الحقيقية لصاحبه في أوساط النخب العلمية ومراكز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, بدليل أننا لم نسمع حتى باسمه في وحدة الفكر العربي المعاصر في السنة الرابعة تدرج رغم تناولنا لباحثين نقول اليوم أنهم أقل منه شأنا. ولعل سبب هذا التهميش والتجاهل هو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من أراد أن يكون متحررا من العصبيات الحزبية والإيديولوجية لصالح الموضوعية والفكر الحر. كما أنه ضحية أفكار مسبقة عند فريقي الأمة, فالسلفيون ينظرون إليه بأنه تغريبي ولا يمتلك تحصيلا شرعيا ومرجعهم في ذلك اختلافه مع سيد قطب حول مفهوم الحضارة, وكذا إشادته بإنجازات الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يحارب الإخوان في مصر... إلخ من المبررات الخالية من الموضوعية, أمّا العلمانيون فيعتبرونه شيخا في ثوب عصري خصوصا وأنه جعل من الفكرة الدينية عنصرا مُركِّبا للحضارة, ومقوما أساسيا من مقومات النهوض, وكذا رفضه لاستيراد النماذج الحضارية الجاهزة. كل هذا كان دافعا ليكون هذا البحث محاولة لإعادة لفت الانتباه

لمفكر من بني جلدتنا أثبت وجوده في عالم الفكر والفلسفة ولكننا تجاهلناه إلى حد كبير لأن مقياس أحكامنا خاضع للأفكار المسبقة وبعيد عن الموضوعية.

أما القول أن هناك دراسات كثيرة أجريت حول فكر بن نبي, فنجيب عنه بأننا نطمح لتقديم إضافة نوعية لقراءة فكره بمنظار جديد ومختلف, لأن أغلب البحوث والدراسات التي أجريت في الجزائر تراوحت فترة إنجازها بين النصف الثاني من ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن الماضي, الأمر الذي أدى إلى انعكاس خصوصيات هذه المرحلة سلبا على نتائج تلك الدراسات والتي كانت في أغلبها تبريرية لواقع معين, ودليل ذلك أنها لم تفرض نفسها على القارئ والباحث عكس دراسات أخرى تمت خارج الجزائر.

يضاف إلى هذا دافعين آخرين فرضا نفسهما أثناء مسيرة البحث فأمّا الأول فتلك الخاصية المتمثلة في أنك كلما أعدت قراءة كتاب من مؤلفاته إلاّ واتضحت لك أفكار جديدة وكأنك تطلع عليه لأول مرة, فقد دفعني ذلك إلى الإصرار على التكرار الكثير لإعادة القراءة ومازلت أشعر بأنني بحاجة إلى قراءات أخرى, وأمَّا الثاني فتلك القدرة الذاتية لأفكار بن نبي على النفاذ إلى أعماق ذات القارئ وانعكاس ذلك على تغيير ملامح شخصيته خصوصا من خلال تزويده بآليات جديدة لفهم الأحداث وتفسيرها بطريقة مختلفة عما هو سائد في المجتمع. وقد كان لهذين الدافعين الأثر البالغ في مواصلة هذا البحث الذي تم تحت تأثيرات سلبية كثيرة أبرزها تلك الصدمة القوية والعنيفة والمفاجئة الناتجة عن فقدان الوالدة ـــ رحمها الله ـــ وما نتج عن ذلك من تأثيرات معقدة كانت تدفع تارة إلى اليأس وتارة إلى التشاؤم وأخرى إلى الإحباط.

أمَّا إشكالية البحث فهي كالأتي:

ماهي أسباب الكبوة الحضارية التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية بالرغم من أن بداية محاولات النهوض قد تجاوزت قرنا من الزمن؟ أو بعبارة أوضح ما هي المعوقات التي ظلت تقف حاجزا أمام مختلف المحاولات النهضوية التي قام بها الرواد الأوائل سواء من دعاة حركة الإصلاح الديني أم من تيار التحديث العلماني؟

وهل هذه المعوقات نابعة من مكونات البنية الثقافية للفرد العربي والمسلم أم أنها مفروضة عليه من الخارج, خصوصا إذا علمنا أنه ظل يعاني لفترات طويلة من الاستعمار؟

وما هي سبل تجاوز هذه المعوقات في نظر مالك بن نبي؟ وهل هذا البديل الذي طرحه مالك بن نبي كفيل بأن يحدث نهضة عربية إسلامية شاملة تعيش عصرها من غير أن تنقطع عن مرجعيتها الذاتية والتاريخية؟

وللإجابة عن إشكالية البحث اعتمدنا المنهج التحليلي الاستنتاجي, وذلك بتحليل أهم أفكار مالك بن نبي المتعلقة بموضوع البحث, وحاولنا قدر الإمكان استخلاص النتائج المترتبة عن هذا التحليل. فقمنا بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول مترابطة ومتكاملة يعالج كل منها جانبا هاما من جوانب النهضة, إذ تناولنا في الفصل الأول بحث المعوقات الذاتية المتمثلة في الأمراض الداخلية التي يعاني منها إنسان مابعد الموحدين, وقمنا بتصنيفها إلى ثلاثة أقسام كل قسم يمثل جانبا من جوانب شخصية الأمة, أما الجانب الاجتماعي فشخّصنا من خلاله أهم الأمراض الاجتماعية التي ظلت تكبل حركة النهوض وتشمل المظهرية في الثقافة, وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية وعدم توازن العوالم الثلاثة (الأفكار والأشياء والأشخاص) بالإضافة إلى انحراف الممارسة السياسية عن أهدافها وغاياتها المثلى. أما الجانب النفسي فحاولنا من خلاله بيان العقد النفسية التي أدت إلى غياب الفعالية من جهة والميل إلى التكديس من جهة ثانية, وكذا التعامل السلبي مع المشكلات ممثلا في "القابلية للاستعمار". لننتقل إلى الجانب الفكري والذي حاولنا من خلاله كشف الغطاء عن أمراضنا الفكرية المتعددة والمعقدة في آن واحد ممثلة في النزعة التجزئية والسطحية التي تتناول المشكلات مجزأة بعيدا عن إطارها الكلي المترابط والمتكامل, بالإضافة إلى غياب أهم آلية من آليات التطور المعرفي والمتمثلة في النقد الذاتي البناء الذي يصحح الأخطاء من أجل الدفع بحركة النهوض لتجاوز معوقاتها واختصار مسافة سيرها, وكذا الابتعاد الكلي عن العمل المنهجي العلمي المنظم الذي يعتمد على مبدأ السنن والقوانين الكونية والنفسية, بالإضافة إلى ظاهرة

الاغتراب بنوعيه الزماني والمكاني: الأول يبحث عن حلول مشكلاته في الماضي والثاني يبحث عن حلول مشكلاته عند الآخر الغربي.

أما الفصل الثاني والذي يعتبر مكملا للأول من خلال معالجته للجانب الخارجي من أزمتنا الحضارية والمتمثل في دور الاستعمار في إعاقة حركة النهوض الحضاري للأمة فهو الآخر تم تقسيمه إلى ثلاثة أقسام. بحثنا في بدايته دور الاستعمار في تلغيم الثورات أثناء مرحلة انطلاقها ومصادرة ثمراتها في مرحلة مابعد الاستقلال وبينا من خلاله مختلف الصيغ والآليات التي يستخدمها لتحقيق أهدافه, ثم بعدها بينا دوره في اختراق الممارسة السياسية واحتوائها لغرض توجيهها وفق مصالحه التوسعية التي تقوم على إلغاء الآخر, لننتقل بعدها من الممارسات الاستعمارية التي تقوم على أساس القوة إلى الممارسات التي تقوم على أساس الصراع الفكري وبينا من خلالها أهم الخطط العلمية التي يعتمدها الاستعمار لتحطيم الأفكار والمشاريع النهضوية الجادة والفعالة.

وأما الفصل الثالث الذي يعتبر نتيجة حتمية للفصلين السابقين فقد حاولنا من خلاله بيان البديل الذي يطرحه بن نبي لتجاوز المعوقات الذاتية والموضوعية التي تقف حاجزا أمام المحاولات النهضوية الجادة, وبيّنا من خلاله أهم الأسس والمقومات التي يقوم عليها هذا المشروع البديل ممثلة في: بناء شبكة العلاقات الاجتماعية وتوجيه الممارسة السياسية وأخلقتها, وبناء الإنسان الرسالي الجديد, والتأسيس للعمل المنهجي, والانطلاق من الواقع والإبداع لتجاوز التقليد, وربط الفكر بالعمل لتحقيق الفعالية.

وحاولنا في الخاتمة استخلاص أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث, مع العلم المسبق أن عملنا هذا هو محاولة متواضعة تحتاج إلى التقويم والنقد من أهل السبق والاختصاص في ميدان البحث العلمي.

الـــفـــصــــــل الأول:

الـــمـــعــوقـــات الـــذاتـــيـــة :

أ ــ المـــعـــوقـــات الاجتـــماعيـــة

ب ــ المـــعـــوقـــات النـــفســـيـــة

ج ــ المـــعـــوقـــات الفـــكـــريـــة

الحديث عن أي مشروعٍ نهضويٍّ يقود الأمة نحو التحضّر والتخلّص من مرض التخلّف يجب أن ينطلق من تصورين أو من:" ناحيتين: تلك التي تتصل بالماضي أي بخلاصة التدهور وتشعبها في الأنفس والأشياء. وتلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل"[1], وعليه فإن معالجة مشكلات الحاضر لاتتم إلاّ من خلال النظر إلى أن التخلف هو نتيجة لأسباب بعيدة, يجب البحث عنها ومعرفتها, حتى نستطيع تقديم الدواء المناسب لعلاج داء التخلف الذي يعاني منه مجتمعنا, ومن جهة أخرى يجب أن نضع في الحسبان تلك الإفرازات السلبية المستقبلية التي ستنتج عن كيفية تعاملنا مع مشكلاتنا الحضارية, أي ينبغي أن لانكتفي بالمهدئات الظرفية التي تقضي على الألم للحظات معدودات, وأيضا يجب أن لانقدم حلولا غير مناسبة تساهم في تعقيد المشكلة بدلا من أن تحلها, وعليه فإن الأمر يتطلب التعامل مع أبعاد الزمان الثلاث الماضي والحاضر والمستقبل على أساس وحدة تكاملية دون إهمال أو تجاهل لأي منها.

ورغم أن عهد يقظة المجتمع العربي قد تجاوز قرنا من الزمن إلاّ أن مختلف المحاولات ظلت تراوح مكانها, ولم تحقق أهدافها الكبرى المعلنة, ولعل ذلك يعود إلى الفصل بين ظاهرتي الحضارة والانحطاط المترابطتين بحيث:"أن معرفتنا بالأسباب البعيدة هو المعيار الأساس لمن يريد تعديل مساره ويسعى نحو غايات التحضر والخروج من ربقة الانحطاط"[2], وهذا هو الأمر الذي دفع بن نبي إلى التركيز في دراساته وأبحاثه المختلفة على الكشف عن أسباب الانحطاط من جهة, وعن موانع النهوض من جهة أخرى, لأجل الاستفادة من نتائج هذه الأبحاث و توظيفها لصياغة مشروع نهضوي أصيل ومتكامل وقابل للتجسيد على أرض الواقع.

ويمكننا تصنيف المعوقات الذاتية للنهضة إلى ثلاث جوانب تتعلق مباشرة بذات المجتمع العربي الإسلامي, وتتمثل في العديد من الظواهر الاجتماعية التي تعيق مسيرة النهضة, وكذا بعض السمات والخصائص النفسية التي أصبحت

---

1 مالك بن نبي : "شروط الهضة" ، ترجمة : عمر كامل مسقاوي ، عبد الصبور شاهين ، بإشراف ندوة مالك بن نبي ، ط4 ، دار الفكر، دمشق ، 1987، ص86

2 نورة خالد السعد: "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , دراسة في بناء النظرية الاجتماعية" ط1,الدار السعودية, الرياض, 1997,ص126

تتوارثها الأجيال عن طريق التنشئة الاجتماعية, بالإضافة إلى بعض جوانب الأزمة الفكرية التي منعت المجتمع من السير في الاتجاه الصحيح نحو الحضارة, وهذا ما سنحاول دراسته في هذا الفصل.

أ-الــمــعوقــات الاجتمــاعية:

أ1-الحَرفيَّة في الثقافة:

يـــرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي الذي ظل يعاني لفترة طويلة من مرض الجهل والأمية على أوسع نطـــاق بين عامة المسلمين, قد ازداد حاله تأزما بظهور جهل من نوع آخر إنه :"الجهل الذي يُلبسه أصحابه ثوب العلم, فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام لأن جهل العــوام بيِّن ظاهر يسهل علاجه, أمّا الأول فمتخف في غرور المتعلمين"[1].

ومن بين الأسباب التي أدت إلى بروز هذه الظاهرة المرضية ذلك المجهود الإصلاحي الكبير الذي يعود له الفضل في مواجهة خطر الأمية في مجتمع مابعد الموحدين, غير أنه:" لما لم يكن هذا الإصلاح قائما على نظرية في الثقافة, فقد أشاع حَرفية مهذبة يخيل إليه معها أنه قادر على تغيير أوضاع الحياة بتعليم الناس تذوق أشياء الحضارة الإسلامية, وبلاغة الأدب العربي"[2]. ويعود أيضا إلى تلك النظرة التجزئية التي يتصف بها رجل القلة الذي:" لم ير في الثقافة إلاّ المظهر التافه, فهي عنده طريقة ليصبح شخصية بارزة, وإن زاد فعلم يجلب رزقا"[3].

و إن كان من السهل على الأمة أن تعالج مرض الجهل والأمية من خلال بذل الجهود المكثفة وتوفير الإمكانيات المطلوبة, فإنه من الصعب جدا معالجة مرض الحرفية في الثقافة:" لأن عقل هذا المريض لم يقتــن العلم ليصيــره ضميرا فعالا, بل ليجعله آلة للعيش وسُلَّما يصعد به إلى منصة البرلــمان, وهكذا يصبح العلم

---

1 - مالك بن نبي: شروط النهضة ، ص39

2 - مالك بن نبي : " وجهة العالم الإسلامي", ط1، دار الفكر، دمشق، 1986, ص61

3 - مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص90

مسخة وعُملة زائفة غير قابلة للصرف, وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق, لأنه جهل حجرته الحــروف الأبجدية، وجاهل هذا النوع لايُقوّم الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميها, وإنما بحسب حروفها, فهي تتساوي عنده إذا ما تساوت حروفها, وكلمة (لا) تساوي عنده (نعم) لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية"[1].

من خلال هذا النص يبيِّن بن نبي أنه قد تــم تحريف معنى الثقافة, ففي الوقت الذي كان ينبغي أن تكون الثقافة وسيلة لتوجيه السلوك الجماعي من أجل الإنجاز الحضاري نجدها تتحول عند مجتمع مابعد الموحدين إلى مظهر من مظاهر الزينة والترف أحيانا, وإلى وسيلة للكسب والحصول على المنصب بعيدا عن أي تصور يجعل من العلم آلة لتحقيق نهضة المجتمع الإسلامي و:"غلبت الحرفية على ثقافتنا, فظهر الحشو ولم تستطع البرامج بما يشوبها من عوامل انحطاط, إنتاج غير حرفيين منبثين في صفوف شعب أمي, ففشت ظاهرة التعالم والتعاقل, وغاب المثقف, وغلب المديح على حساب العرض الموضوعي لمشاكلنا"[2].

وبذلك يكون المثقف العربي هو أول المتخاذلين في طريق النهضة حينما يلجأ إلى المديح والهيام بالكلمات ذات الصبغة الجمالية والوقع الموسيقي:"وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضيع النقص والاختلال, فتجمل الأخطاء وتستر العجز بستار من البلاغة المزعومة"[3], ولا يكتفي المتعالم بإخفــاء جوانب عجزه المعرفي بل يغرق في استبعاد الألفاظ لأن:" الغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر, فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح"[4].

---

1 - المصدر نفسه ، ص91

2 عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى, مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي , العدد 20, سنة2003, ص73

3 ـ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص60

4 ـ المصدر نفسه , ص58

وبذلك يصبح كل نشاط يقوم به المتعالم لايعبر إطلاقا عن اهتمام علمي يسعى من خلاله إلى التغيير الفعلي لأوضاع مجتمعه المتخلفة وإضافة لبنة في صرح البناء الحضاري, بل ماهو إلاّ مجرد شهوة للكلام واستعراض لقدرات حفظ النصوص التراثية دون فهمها, وعرضها بدون مناسبة, أو عرض أسماء المفكرين والأدباء الغربيين محاولة للتدليل منه على سعة الإطلاع, ف:"ولع المسلمين بالتشدق اللغوي أفرغ الكلمات من مضامينها بحيث لاتتبئ عن عمل ونشاط وتصير مجرد ألفاظ مرصوفة, فيفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل"[1].

وهكذا يصبح مرض التعالم متفشيا في أوساط جميع التيارات الفكرية العربية سواء السلفية منها أم العلمانية, و:"شيوع مثل هذه الأساليب في أوساط النخبة المثقفة قد حال دون تحقيق لمشروع نهضوي فعلي على الرغم من الجهود المبذولة في هذا السبيل"[2], لتضاف بذلك إلى هموم الأمة ومشكلاتها التي تقف عائقا في وجه محاولاتها النهضوية مشكلة التعالم التي يصعب علاجها لأن كلام المتعالم كما يقول بن نبي:"ليس كتهتهة الصبي فيها صبيانية وبراءة, فهو ليس متدرجا في التعلم كالصبي, وإنما تهتهة يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال فهو الصبي المزمن"[3], فتصبح هذه الصبيانية المزمنة حجر عثرة في وجه الجهود النهضوية خصوصا حينما يستغلها أساتذة الصراع الفكري لتحطيم الأفكار الجادة والفعالة وشل قدرات الأمة. بل الأخطر من ذلك:"تكريس الأخطاء والرداءة الفكرية, وتوريثها للأجيال بصورة جعلتها جزءا من السيكولوجية الشعبية العامة التي "تشترط أو ترهن" حياة الأفراد والجماعات, وتتحكم في مواقفهم وتوجه سلوكاتهم إلى درجة الاستلاب أو الإمعية البليدة لكل ماهو تاريخي أو مستجلب على حدٍ سواء"[4].

---

[1] عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى,مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي , العدد 20, سنة2003, ص71

[2] محمد بغداد باي: "التربية والحضارة, بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي", بدون طبعة, عالم الأفكار, الجزائر, 2006, ص119

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص91

[4] الطيب برغوث:"محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي", ط2, دار قرطبة, الجزائر, 2004, ص11

وحينما ينتشر في المجتمع مرض التعالم فإنه يفرز ذلك النزوع والميل إلى الجدل والتبرير[1]:"ويقصد بالجدل الكلام الكثير السفسطائي الذي لايقود لشيء ذي قيمة يحتاج إليه هذا المجتمع لكي ينهض. ويقصد بالتبرير محاولة البحث المضني عن الحجج والبراهين لغرض إفحام الغير واثبات حقائق إسلامية لاحاجة بها غالبا, والتي لاتفيد في تغيير الواقع المتردي في شيء"[2].

فبدلاً من أن تتحد الجهود وتتكامل للبحث عن الحقيقة في مختلف المجالات (الطبيعية, الاجتماعية, النفسية), يحاول كل طرف أن ينتصر لموقفه بالبحث عن المزيد من الحجج دون أن يستمع لمحدثه, وكثيرا ماتحول هذا الجدل الذي لايستمع أطرافه لبعضهم البعض إلى مواجهات دامية غير متوقعة نظرا لسوء التقدير الناجم عن ظاهرة التعالم, مما أدى إلى تبديد وإهدار كثير من الطاقات والوقت في كثير من البلدان العربية.

أ2_ تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية:

يرى بن نبي أن المجتمع الذي يسعى لتجاوز مرحلة الانحطاط وتحقيق نهضة حضارية شاملة يجب عليه أن يوجه جميع طاقاته نحو البناء الحضاري في إطار جهد تكاملي, غير أن تحقق ذلك مرتبط بتماسك شبكة العلاقات داخل المجتمع, لكن حينما:"يرتخي التوتر داخل خيوط الشبكة فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة فذلك أمارة على أن المجتمع مريض وأنه ماض إلى نهايته أمّا إذا تفككت الشبكة نهائيا فذلك إيذان بهلاك المجتمع, وحينئذ لايبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ"[3]. ومع يقظة المجتمع الإسلامي وبروز تيارات ومدارس فكرية مختلفة ومتعارضة أحيانا لم تعد شبكة علاقاته الاجتماعية تحافظ على ذلك التماسك والترابط الذي يؤدي إلى البناء, بل تعرضت للتمزق والتفكك الذي يؤدي

---

1 عبد اللطيف عبادة : "صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي", ط2, عالم الأفكار, الجزائر, بدون تاريخ, ص67

2 محمد بغداد باي: التربية والحضارة, ص118

3 مالك بن نبي: " ميلاد مجتمع " , ط3 , دار الفكر , دمشق , 1986 , ص42

إلى الهدم, فيظهر تبعا لذلك:"نوعين من خيانة المجتمع: نوع يهدم روحه, وآخر يهدم وسائله.

الخيانة الأولى تخلق الفراغ الاجتماعي حين تهدم المبادئ والأخلاق والروح, وهي الأمور التي تبقي للمجتمع التوتر الضروري, كيما يواصل نشاطه المشترك في التاريخ.

والخيانة الثانية تخلق الفراغ حين تواجه جميعا الملكات المبدعة وجميع الفضائل الأخلاقية في المجتمع خارج عامل الوقائع والظواهر"[1], وهكذا, وفي كلتا الحالتين فالنتيجة التي يُتوصل إليها واحدة وهي إهدار المزيد من الطاقات الجادة بسبب تعارض الجهود واصطدامها وهذه العلاقة الفاسدة بين أفراد المجتمع تتجلى انعكاساتها السلبية على مختلف جوانب الحياة في المجتمع, وهذا مايؤكده بن نبي بقوله:" فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء, والسقوط الاجتماعي الذي يصيب عالم الأشخاص يمتد لامحالة إلى الأفكار وإلى الأشياء في صورة افتقار وفاقة"[2], ولعلّ فساد هذه العلاقة الاجتماعية يعود إلى ذلك التضخم الذي يصيب ذات الفرد, فيصبح الجسد الاجتماعي خاضعا لسيطرة النزعة الفردية التي تجعل العمل الجماعي المتكامل ضربا من المستحيل, فينحرف نشاط المجتمع عن سبيله الصحيح ويتحول إلى تعصب أعمى ينتصر من خلاله الفرد لذاته أو جماعته أو حزبه, ويسود النزوع إلى الجدل من جهة, والنزوع إلى التبرير من جهة أخرى, كمحاولة للانتقام للذات على حساب مستقبل الأمة: "ولهذا فإن المظهر الأول من مظاهر انحطاط هذا المجتمع هو تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية التي يظهر أثرها في عالم ثقافة ذلك المجتمع, فتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية هو في حقيقته تمزق لعالم الثقافة باعتبارها المحيط الذي يصوغ كيان الفرد, فأيّ خلل فيها يعود بالإخفاق على الجهود الجماعية والفردية"[3]

---

[1] المصدر نفسه , ص97

[2] المصدر نفسه , ص45

[3] نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي, ص186 و187

وكذلك ينتج عن تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية غياب التواصل بين طبقات المجتمع, أوبعبارة أدق, بين النخبة السياسية والعلمية من جهة, وباقي أفراد الشعب, فتنعزل النخبة السياسية داخل محميات محروسة, لايسمح لعامة الناس بدخولها, كما تُخصص لنفسها أسواقا خاصة, ولا تنزل إلى الأسواق العامة أو الشوارع الرئيسية إلاّ في صورة مصطنعة ومزيفة توحي بلاشك أن السلطة السياسية تخشى ممن تمثلهم, إمّا لأنها تدرك بأنها ليست الممثل الشرعي, وإمّا أن دوار القمة أصابها فأصبحت تخاف من عدوى التخلف الذي يعانيه المجتمع, فتبني بينها وبينه جدارا وهميا عازلاً لتكامل الجهود ومانعا للتواصل بين القمة والقاعدة وهو ماينعكس سلبا على المبادرات التي تقوم بها السلطة فيكون مصيرها الفشل بسبب غياب التواصل بين الطرفين:"وهكذا فعندما تتلاشى العلاقة بين أفراد المجتمع والمؤسسات التي تسهر على رعاية أمن الدولة تذوب كل أنواع الثقة وتظهر في المجتمع أعراض الفساد"[1].

ولا تختلف علاقة المثقف بعامة أفراد المجتمع عن الرجل السياسي, فإذا كان الثاني منعزلا داخل المحميات ومحاطا بالحراسة المشددة, فإن الأول يبني لنفسه برجا وهميا من الأفكار المثالية المنعزلة عن واقع المجتمع, والتي استدعاها من التاريخ أو استعارها من الفكر الغربي, فتأثيره لايتجاوز الصالونات والملتقيات والمؤتمرات, وبسبب هذا الانفصال عن هموم المجتمع ومشكلاته اليومية لاتستطيع أفكار هؤلاء المثقفين أن تغادر الأوراق التي كتبت عليها, هذا إن وجد من يقرأها.

ويعبر بن نبي عن هذا الخلل بقوله:"والواقع أننا نلاحظ في هذه البلاد جميعا نوعا موحدا من النقص:"ألا وهو نقص التنوع, فهناك الباشا والسوقي, والمثقف والأمي, دون أن يكون بين الطرفين اتصال يرسم صورة مستمرة للكيان الاجتماعي"[2].

ويقول أيضا:" وخذ مثالا الوضع في الجزائر فهناك يجلس الطبيب على القمة, دون أن يكون بينه وبين السائل المتكفف أي رباط انتقالي"[1].

---

[1] قادة بحيري: "محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي", بدون طبعة, دار الغرب, الجزائر, 2005, ص143

[2] ـ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص152

كما ينعكس تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية سلبا على عالم الأفكار في المجتمع ويستشهد بن نبي على ذلك ب:"تراث ابن خلدون الذي ظل حروفا ميتة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع عشر"[2], بل هذا المصير نفسه الذي يلقاه تراث بن نبي لأنه أُهمل وغُيِّب حتى عن البرامج الدراسية, فضلا عن تجاهل القيمة الفكرية لمضمون هذا التراث, إذ يؤكد أحد الباحثين هذا الرأي من خلال قوله أن:"الإقصائية السياسية أو العلمانية...في التعامل مع الوحي والواقع والتراث والمستقبل...همشت هذه الأفكار "الجنينية" الهامة, وحرمتها من النمو واستكمال نضجها وإفادة الأمة بها, في وقت هي أشد ماتكون احتياجا إليها. وبهذا وقع له مثل ماوقع لابن خلدون قبله عندما لفه ليل "التخلف الحضاري" ولم تمكن ظروف الأمة أفكاره الجديدة من النمو والتبلور والنضج والتمثل في واقع الأمة"[3], ومرد ذلك إنما يعود إلى تلك "التنافرية المهلكة" التي ظهرت في المجتمع الإسلامي فطغت فيه النزعة الفردية وحل التعصب والانتقام محل الموضوعية والحوار الداخلي بين الأفراد والجماعات .

وماهذا التفكك إلاّ امتداد لصفة من صفات المرحلة الثالثة من مراحل الدورة الحضارية, وهي مرحلة الغريزة التي يقول عنها بن نبي:"وفي هذه المرحلة, تتفكك الغرائز فلاتعود تعمل بشكل منسجم متوافق, ولكن بصورة فردية, كل منها يعمل لحسابه الخاص, هنا يختل نظام الطاقة الحيوية ويفقد قيمته الاجتماعية حين يهرب من مراقبة نظام الأفعال المنعكسة الناشئ عن عملية التكييف. وفي هذه المرحلة تسود الفردية تبعا لتحرر الغرائز, وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا"[4], إذ تنحصر هموم أفراد المجتمع في تحقيق الرغبات والميول الذاتية والمصالح الشخصية حتى وإن تعارضت مع المصلحة العامة[5]؛ بل إن المصلحة العامة تُغيب تماما من سلم القيم الذي يعتمد عليه الفرد في اتخاذ قراراته الخاصة.

---

[1] ـ المصدر نفسه , ص 153

[2] ـ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع , ص47

[3] الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي, ص13

[4] ـ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع , ص67 و 68

[5] محمد بغداد باي: التربية والحضارة, ص99

أ3 _ عدم تماسك عالم الأفكـــار:

يرى مالك بن نبي أن:"أهمية الأفكار في حياة مجتمع تتجلى في صورتين فهي إمّا أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية, وإمّا أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة, تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا "[1], وذلك لأنّ أي نشاط يقوم به الفرد, هو ترجمة لمجموعة من الأفكار والتصورات التي تسبق الفعل فإذا كانت الأفكار التي يحملها المجتمع أصيلة وفعالة فإنها تدفع بحركيته التاريخية نحو التطور أمّا إذا كانت أفكارا من النوع "الميت" أو" المميت " فإنها تعيق نمو المجتمع وتجعله صعبا إن لم نقل مستحيلا:"وكم عاشت الأمة الإسلامية خلال عدة قرون مضت تحت سلطة الفكر اللامسؤول, الذي خدّر الأمة وعطّل طاقاتها , وجمّد إبداعاتها, وكبّل انطلاقتها حتى وصلت إلى المستوى الذي نعاصر متاعبه الصعبة وأزماته الخطيرة ومشاكله الشاملة"[2].

وإذا كانت نهضة المجتمع الإسلامي متوقفة على طبيعة الأفكار التي يحملها أفراده, فإن بن نبي يرى أن كل مايسود المجتمع الإسلامي:"من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أوفي ميادين السياسة, إنّما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة, تلك البقايا غير المصفاة, ومن الأفكار المستعارة التي يتعاظم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا"[3].

والفرق بين النوعين هو أن الفكرة الميتة هي:"الفكرة التي بها خُذلت الأصول, فكرة انحرفت عن مثلها الأعلى, ولذا ليس لها جذور في العصارة الثقافية الأصيلة"[4].

أمّا الفكرة المميتة فهي:"الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي"[5].

---

1 مالك بن نبي:"مشكلة الثقافة ", ترجمة:عبد الصابور شاهين, بإشراف: ندوة مالك بن نبي, ط4, دار الفكر, دمشق, 1984,ص14

2 زكي أحمد: "مالك بن نبي ومشكلات الحضارة, دراسة تحليلية نقدية", ط1, دار الصفوة بيروت, 1992, ص125

3 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص81

4 مالك بن نبي: " مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " ، ترجمة:بسام بركة و أحمد شعبو , إشراف و تقديم :عمر مسقاوي, ط 1, دار الفكر, دمشق , 1988, ص153

5 الصدر نفسه , ص153

ففي كليهما إذًا انحراف عن النماذج الأصلية وخيانة لها, فتصبح بعد ذلك بمثابة الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية عبر الأجيال المتلاحقة وهو ماحدث فعلا للمجتمع الإسلامي الذي أصبح:"يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية, ومن ناحية أخرى لانتقام رهيب تصبه الأفكار التي استعارها من أوربة, دون أن يراعي الشروط التي تحفظ قيمتها الاجتماعية, وقد أورث ذلك تدهورا في قيمة الأفكار الموروثة وتدهورا في قيمة الأفكار المكتسبة, وقد حملا أفدح الضرر في نمو العالم الإسلامي أخلاقيا وماديا"[1].

وكمثال للأفكار الميتة يعطي بن نبي مثالا يقول فيه:" فالحاج الذي ينزل ميناء جدة يُسرُّ حينما يُفاجأ بقراءة إعلان معلق على أحد الأبواب مكتوب عليه: هيئة الأمر بالمعروف, ثم عندما يتقدم خطوة في البلد يبدأ في اكتشاف حقيقة يبدو إزاءها الإعلان مجرد سخرية: إنّه فكرة ميتة"[2].

هكذا يُبيّن لنا بن نبي أنّ المجتمع الإسلامي بدلا من أن يعالج مشكلاته الحيوية بالعودة إلى نقد الذات وتفحص مواطن الخلل, لجأ إلى إخفاء عيوبه ونقائصه بذلك التصنع البلاغي وتلك الألفاظ التفخيمية ويجهل أو يتجاهل أن الحضارة الإسلامية قامت أساسا على فكرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهي التي تحرك نشاط المسلم وتدفعه في اتجاهين متكاملين, اتجاه العمل والبناء من جهة, واتجاه توفير الحماية للمجهودات المبذولة ووقايتها من الأخطار الداخلية والخارجية من جهة ثانية. إنّ هذه الفكرة الفعالة تتحول إلى فكرة ميتة بعد انحرافها عن أنموذجها الأصلي, وإلى مجرد شعار تختفي وراءه كل أنواع الخيانات, إن لم نقل العمالات, خاصة إذا علمنا أنّ الهيئة المذكورة أعلاه تساهم بشكل أو بآخر في فتح أبواب المنطقة العربية أمام جيوش الغزو الأمريكي, وقد كان بن نبي محقّا حينما وصف الإعلان بأنّه مجرد سخرية.

---

[1] المصدر نفسه ، ص159

[2] المصدر نفسه , ص75.

وكلما تأملنا الألفاظ التفخيمية في صحافة العالم الإسلامي إلاّ وأدركنا أنّها مجرد أفكار ميتة, توظف التصنع البلاغي لإخفاء العجز, فنجد أنّ كبير المفاوضين هو من يتنازل عن شرف الأمة!, وخادم الحرمين هو من يستقدم جيوش المارينز لحماية المنطقة!, وعمالقة الفن هم من كان الفن منهم براء!.

ويرى بن نبي أنّ هذه الأفكار الميتة التي تعتبر أشد فتكا بالمجتمع ماهي إلاّ إرث خلفه لنا مجتمع مابعد الموحدين:"ومن أجل أن نقتنع بهذه الحقيقة ينبغي أن نلقي بنظرة على الميزانية التاريخية للأفكار التي قتلت مجتمع مابعد الموحدين, والتي تشكل أيضا الديون التي تخلفت عن عصر نهضة المجتمع الإسلامي, وهو مالم يتخلص منها بعد على ما يبدو"[1], فمصدرها إذن ليس هو الحضارة الغربية وإنما عصر انحطاط المجتمع الإسلامي:"لقد ولدت في ظل مآذن القيروان والزيتونة والأزهر خلال قرون مابعد الموحدين, وإن هي لم يقض عليها بجهد منظم فإن جرثومتها الوراثية تلغم البنية الإسلامية من الداخل وتخدع حوافزها الدفاعية"[2].

أما النوع الثاني من الأفكار التي تهدم كيان المجتمع وتعيق نموه فهي تلك الأفكار المستعارة من الحضارة الغربية والتي يسميها بن نبي بالأفكار "المميتة " أو "القاتلة", لكن هذا لايعني أن كل الأفكار الغربية هي من هذا النوع, وإنما يمكن لفكرة أن تكون فعالة في محيطها الغربي باعتباره المحيط الثقافي الذي نشأت فيه , والذي يتضمن مصلا واقيا من إفرازاتها وأثارها السلبية, غير أنها حينما تُفصل عن جذورها الثقافية وتنقل إلى مجتمع آخر, فإن هذه الإفرازات الجانبية تؤدي مفعولها السلبي.

كما أن للحضارة الغربية ــ من جهة أخرى ــ نفاياتها التي يفرزها التطور السريع الذي تشهده هذه الحضارة, والنخب العربية هي التي تلتقط هذه النفايات وذلك لأن: "الأفكار الميتة, وعصر مابعد الموحدين قد وضعا لأعيننا مايُوضع للفرس من

---

1 المصدر نفسه , ص148

2المصدر نفسه , ص148

كمامات تمنع من إحالة الرؤية, فلم يستبن لنا شيء آخر, غير التافه المجرد , وحتى المميت "[1].

فالخلل لايكمن في طبيعة أفكار الحضارة الغربية في حد ذاتها, وإنما في طبيعة علاقتنا بها:"وهذه الصلة لاتحددها غير وراثتنا الاجتماعية التي لم تتخلص بعد من تأثيرها بل إنها على وجه الخصوص هي التي تملي اختيار "السائح المهتم" في المزبلة واختيار"الطالب المجتهد" في المقبرة فكلاهما بمقتضى وراثته الاجتماعية لايذهب إلى المهد الذي تولد فيه الحضارة, وإلى المصنع الذي تصنع فيه... ولكنهما يذهبان: أحدهما إلى الأماكن التي تتعفن فيها... والآخر إلى الأماكن التي تتقطر فيها... أي كلاهما يذهب حيث تكون الحضارة فاقدة الحياة ... لا تعطيها "[2].

فتخلف المجتمع الإسلامي وعجزه عن استعادة مجده الحضاري يرجع إذن إلى ذلك التنكر المزدوج لقيمنا الثقافية الأصيلة من جهة, وللقيم الإنسانية المعاصرة من جهة ثانية ومن ثمة " فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقام رهيب, وإن انتقامها المحتوم هو مانعانيه اليوم"[3].

أ4ـــ طغيان عالم الأشياء:

يرى بن نبي أنه حينما يسود الجهل بسنن التغيير الاجتماعي وتغيب الفكرة لصالح عالم الأشخاص فإن هذا الأخير يقع في أسر عالم الأشياء فيتحول سلوك الفرد وتفكيره إلى النزعة الشيئية فللشّيء:"حضور قوى وسحر في الذات, لتعلقه باللذات والشهوات وسد الحاجات الملحة, كما يعد عند الشعوب ذات البعد الواحد معيار القوة والحضارة, والسلوك الاجتماعي عندما يطغى عليه الشيء ترى جميع الممارسات تحاول أن ترتكز عليه كمطلب وقاعدة وغاية, والشيء بكل مايحمله من أبعاد يعود سلبا أحيانا على الإنسان وخاصة إذا أصبح محور تفاعلات الذات"[4].

---

1 المصدر نفسه , ص152

2 مالك بن نبي: " في مهب المعركة " , ط3, دار الفكر , ط3 ، دمشق , 1981 , ص135

3 مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص160

4 عبد القادر بوعرفة: نظرية التصابي عند بن نبي وأفق النقد الحضاري, "ثقافتنا للدراسات و البحوث " , مجلة علمية متخصصة في العودة الحضارية الإسلامية , المجلد1 , العددالثاني , شتاء1425 ,2004 , ص215

والمجتمع الإسلامي الذي كان يجب عليه في مرحلته الراهنة الاتجاه نحو عالم الأفكار وجد نفسه أسيراً لعالم الأشياء وخصوصا منتجات الحضارة الغربية التي منحته هيكلها ولم تمنحه الروح التي كانت دافعاً لبنائها[1].

و يُشبِّه بن نبي النزوع إلى الشيئية بمرحلة الطفولة عند الفرد:" فالطفل لايرى في العالم أفكارا, ولكنه يرى أشياء فكومة من قطع الحلوى, أثمن لديه بكثير من الجواهر, وكل المجتمعات البشرية تمر بهذه المرحلة من الصبيانية "[2]. ولكن طفولة العالم الإسلامي من النوع المزمن, فرغم أنه دخل إلى جانب الطفل الياباني إلى المدرسة الغربية, غير أن هذا الأخير لما وجه سلوكه وفقا لعالم أفكاره تجاوز طفولته بسرعة واتخذ لنفسه مجلسا بين الكبار, بل أثبت بأنه قادر على تكلم لغة الكبار حينما يجدّ الجِد سواء في المجال العسكري أم الاقتصادي, أما العالم الإسلامي الذي فُصلت فيه الفكرة عن النشاط, فقد أصبح يواجه طغيان الأشياء على مختلف الأصعدة:"فعوض أن يكون الشيء وسيلة في خدمة الإنسان وتحت تصرّفه يوجهه حسب الأهداف التي يطمح إلى تحقيقها, انعكست الآية عند مسلم اليوم, وأصبح الشيء غاية تطلب لذاتها, ونتيجة ذلك كله، هي أن الشيء قد طغى على عقلية إنسان مابعد الموحدين وصار هو الذي يتحكم في إرادته ويوجه سلوكاته"[3], وأصبحت الكمية والشيء هما المعيار الأساس الذي تصدر وفقه الأحكام, فالمكانة الاجتماعية للفرد يستمدها من كمية الأشياء والوسائل الموضوعة تحت تصرفه, فالقصر, والسيارة الفاخرة, أو البدلة الأنيقة وغيرها من الأشياء, هي التي تضفي على الفرد قيمته و:"الموظف يعتمد في تحديد رتبته في الترتيب الإداري بعدد الأجهزة التي يستعملها, أو لايستعملها, ففي مكتب واحد لموظف كبير أحصيت أربعة تلفونات أمامه, وخمسة أجهزة تكييف من حوله, وفي العاصمة العربية نفسها كان يسلم عليَّ

---

[1] قادة بحيري: محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي, ص140
- نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي, ص117
[2] مالك بن نبي:"فكرة كمنويلث إسلامي"، ترجمة: الطيب الشريف، بإشراف ندوة مالك بن نبي, ط2 , دار الفكر, دمشق , 1990, ص19
[3] محمد بغداد باي : التربية والحضارة , ص104

شاب مثقف وكان ابن شخصية ذات مقام معنوي رفيع, لكنه توقف عن تحيتي منذ اليوم الذي رآني فيه على رصيف محطة نازلا من عربة الدرجة الثالثة"[1].

وإن كان هذا قد حدث قبل مايزيد عن ثلث قرن, فداء الشيئية قد استفحل اليوم أكثر مما كان عليه, وامتد طغيان الشيء إلى الصعيد الفكري, إذ أصبح المثقف لايُقيِّمُ العمل الفكري من خلال مضمونه بل من خلال عدد صفحاته, إذ كان العمل مُتضمَنا في كتاب[2]. وكذلك الشأن بالنسبة للميدان الاجتماعي والسياسي, إذ يشهد المجتمع حركية غير عادية اتجاه أشياء الحضارة الغربية, من دون أن يُشبع حاجاته ولا أن يتقدم خطوة لتكسير قيود تخلفه, بل استعبدته الأشياء ببريقها الخادع, ف:"المتتبع لهذا الأمر يلاحظ كيف يكثر الكلام حول هذه الأشياء ويتم الترويج لها, وكيف يتعلق بها الإنسان فيصبح همه الأكبر هو البحث عن كيفية اقتنائها, ولا يختلف المعوز في ذلك عن المُوسِر الذي يرى ـــ وترى معه العامة ـــ أن في جمع وتكديس منتجات حضارة الغير المتطور دليلا على مواكبته للعصر, ومؤشرا على ارتقائه في السلم الاجتماعي[3].

وحينما يخضع المجتمع لطغيان الأشياء فإن جميع الحلول والمخططات التي تعدها الهيئات السياسية تنزع جميعها إلى الكمية مثل الزيادة في الضريبة التي تؤدي مفعولا عكسيا لِما كانت تهدف إليه المخططات, أومحاولة جلب رؤوس الأموال الأجنبية و:"هذه النتائج في المجتمع الإسلامي تأخذ أحيانا أشكالا تدعو للسخرية, حينما يحل الشيء محل الفكرة بطريقة ساذجة لينشئ حلولا مزيفة لمشكلات حيوية"[4].

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص79
[2] المصدر نفسه , ص81
[3] محمد بغداد باي: التربية والحضارة ,ص104
[4] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص87

أ5ــ طغيان عالم الأشخاص:

لم تتوقف معاناة العالم الإسلامي عند ذلك الخلل الذي أصاب شبكة علاقاته الاجتماعية وعالم أفكاره وعالم أشيائه, بل تجاوزها إلى عالم الأشخاص إذ لم يعد: "عالم أشخاصه على هيئة النموذج الأصلي الأول بل يصبح عالم المتصوفين ثم عالم المخادعين والدجالين ولاسيما من نوع الزعيم"[1].

يرى بن نبي أن الانحراف عن الطريق الصحيح للنهضة, إنما تم حينما غُيبت الفكرة ليحل محلها الشخص, إمّا في هيئة متصوف يوزع البركات على مريديه, إذ لامبادرة ولا رأي للمريد إلا مايرى الشيخ, فهو الوحيد القادر على توجيه الحياة العامة, ولايُحتمل على الإطلاق أن يصدر الخطأ عن الشيخ لصفائه الروحي, وتقواه, كما يعتقد المريدون.

وإما في هيئة مخادع ودجال يرتدي أحيانا قناع الزعيم السياسي المُطلع على خبايا الأمور السياسية, والمالك الوحيد لحلول جميع المشاكل التي تعاني منها الأمة, وتُبرر أخطاءه بدعوى امتلاكه لمعطيات غائبة عن أذهان أتباعه, سواء من الغوغاء الواهمين, أوالمثقفين الطامعين فيما تدره بركات الولاء للزعيم من مناصب ومغانم كمقابل لسكوتهم عن أخطائه, والاجتهاد في تبريرها على أنها عين الصواب لأن نظر الزعيم ثاقب, ولا يمكن للعامة أن تفهم مقصوده إلاّ بعد حين, لذا ماعليهم إلاّ الانصياع والإتباع بلا تساؤل عن الوجهة التي يناقدون نحوها وهكذا:"يترتب على طغيان الأشخاص نتائج ضارة على الصعيدين الأخلاقي والسياسي"[2].

أما على الصعيد الأخلاقي فإن الفكرة حينما تتجسد في شخص ما فإن جميع انحرافاته وسلبياته تنعكس على المجتمع إمّا من خلال رفض شريحة واسعة من الأفراد للفكرة بسبب ماألصق بها من أخطاء شخص الزعيم وانحرافاته, وإمّا بالرِّدة واعتناق أفكار أخرى بسبب خيبة الأمل في الشخص الذي عجز عن تحمل

---

[1] المصدر نفسه , ص40

[2] المصدر نفسه , ص81

مسؤولياته كاملة اتجاه الأفكار التي تجسدت في ذاته. و:"خطر التجسيد قد وضعه القرآن صراحة في الوعي الإسلامي بقوله: { وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم }[1] هذا التحذير ليس موجها هنا لتفادي خطأ أو انحراف مستحيل من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه من أجل الإشارة إلى خطر تجسيد الأفكار بحد ذاته "[2].

أما على الصعيد السياسي فإن تغييب الفكرة واستبدالها بوثن في شكل زعيم سياسي يُعبد من دون الله إمّا خوفا من بطشه وإمّا طمعا في سخائه وعطاياه, كانت سببا رئيسا في ذلك الإفلاس السياسي الذي يشهده العام العربي والإسلامي, وعن هذا يقول بن نبي:"إن عبادة الرجل السماوي كعبادة الشيء الوحيد منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر, وتكون أحيانا سبب مانشهده من حالات إفلاس سياسي مذهلة"[3].

وكذلك يمنعنا هذا التجسيد من معرفة الأسباب الحقيقية لفشل المشاريع السياسية لربط الفشل بذات شخص الذي نطلق عليه اسم الرجل النحس:"فالرجل السماوي أو الرجل النحس, هما اللذان يُستغلان بصفة دائمة, أو يُزجان حتى دون علمهما من أجل إجهاض بعض الأفكار. إن تناقض الفكرة والوثن قد ضمن بصفة عامة للاستعمار نجاحه الباهر في الإجهاض السياسي في بلادنا, مستخدما غالبا مثقفينا أنفسهم"[4].

وحينما يختل توازن العلاقة بين الفكرة والشخص لصالح الشخص الذي استحوذ:"على سائر الروابط القدسية في عالم الثقافة "[5] , فإن هذه العلاقة قد :" تنقلب عند التطرف إلى علاقة فكرة ـ وثن , وبفضل تلك العلاقات المنحرفة نحو التطرف فإن الشعب الجزائري أقام قبب مرابطيه وأوليائه, وحافظ على عكوفه عليهم عبر

[1] القرآن الكريم:سورة آل عمران, الآية 144
[2] مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص 82
[3] المصدر نفسه ، ص 82
[4] المصدر نفسه ، ص83
[5] المصدر نفسه , ص26

قرون مابعد الموحدين"[1], وربما سيواصل عكوفه لكن هذه المرة أمام تلك المجسمات المُنَصبة في الساحات العامة لزعماء وأبطال ضحوا بأنفسهم من أجل المبادئ والأفكار, لكن الأجيال تستأنس بتماثيلهم حينما يخيب أملها في النخب التي أخذت على عاتقها تسيير شؤونهم .

أ6 ــ سيادة النزعة السياسوية (البوليتيك) :

يفرق بن نبي بين السيــاسة والبوليتيك, باعتبــار:"الأولى محاولـــة تأمل في الصورة المثلى لخدمة الشعب والثانية مجرد صرخـــات وحركـــات لمغالطة الشعب واستخدامه"[2]. وهكذا يتحسس بن نبي نقطة أخرى من نقاط الضعف التي ساهمت في إعاقة النهضة العربية, وتكمن خطورتها في كونها تشويه لمقاصد السياسة كنشاط يساهم في تطور المجتمع وازدهاره وتنظيم العلاقة المثلى بين الفرد والمجتمع, فيقدم بذلك المجتمع الضمانات الكافية لتطوير قدرات الفرد, ويقدم هذا الأخير للمجتمع خدماته على شكل واجبات .

في حين أن البوليتيك هي تلك الجرائم التي يرتكبها بعض المخادعين والدجالين من أجل مكاسب شخصية على حساب مستقبل حضارة أمة بكاملها, لهذا يقول بن نبي:"فالبوليتيك ليست مفهوما محددا ولو لم يضع الشعب الجزائري هذه الكلمة, ماوجدنا كلمة لتعبر عنها, ودراسة ملفها ليست من اختصاص العلم, بل من اختصاص القضاء بوصفها جريمة اختلاس"[3]، إذ لايمكننا أن نقول عمن يقوم بهذه الممارسة:" بأنه يقوم بأداء عمل سياسي لأنه بعيد كل البعد عن السياسة الحق, وإنما هو مقاول ماهر في الدجل السياسي والدولة أو الحكومة التي يرأسها لايمكنها أن تدوم طويلا, لأن عمله هذا لايؤدي إلى تقدم أو تطور في البلاد فهو يعتمد على الخداع وعلى تعاريف مضللة للسياسة"[4].

---

[1] المصدر نفسه , ص96

[2] مالك بن نبي: " بين الرشاد والتيه " , ط1 , دار الفكر , دمشق ,1978 ,ص98

[3] المصدر نفسه , ص98و99

[4] يوسف حسين: "نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث", ط1, دار التنوير, الجزائر, 2004, ص135

وهذا المكروب الذي أصاب الظاهرة السياسية العربية يقوم على أسس مناقضة تماما للفعل السياسي الحقيقي إذ:" يقوم بفصل الفكرة عن النشاط بطريقة تظل بها الأولى عاجزة ويظل الثاني أعمى فاقدا للبصيرة و البصر"[1] .

فكل نشاط يقوم به هؤلاء السياسيون المزيفون ماهو إلاّ نوع من العبث ف: "هذه السياسة الخرقاء, مازالت تُخفي العناصر الحقيقية للمشكل عن ضمير المسلم, فهو يتكلم حيث يلزمه أن يعمل, وهو يلعن الاستعمار حيث يجب عليه أن يلعن القابلية للاستعمار, وهو مع هذا لايبذل أقل الجهد في سبيل تغيير وضعه تغييرا عمليا"[2].

ومن خلال هذا القول يتبيّن أن البوليتيك تتحالف مع الاستعمار من أجل إبعاد الشعب عن مشكلاته الجوهرية وإغراقه في مشكلات هامشية تبعده كل البعد عن التفكير بطريقة صحيحة, وما غياب تأثير الشارع العربي عن صنع القرارات وتوجيه الرأي العام فيما يتعلق بالكثير من القضايا الهامة التي تخص كيانه وهويته إلاّ نتيجة حتمية لجرائم البولتيك التي أدخلت الشعوب العربية في متاهات مظلمة ومغلقة, فلم يعد الاهتمام السائد يتجاوز حدود السكن والغذاء والجنس, وفي أحسن الحالات الدخول في جدال عقيم حول مسائل تراثية كان قد فصل فيها القدماء منذ زمن بعيد ولم تعد جزءا من تحديات واقعنا المعاصر[3].

و لما كان هم الزعماء المتخاذلين هو الحصول أو الحفاظ على امتيازات المنصب وما يُدره من رغد للعيش, فإنهم لجأوا إلى الضرب على الوتر الحساس الذي يجعل أفراد الشعب يسيرون خلفهم لعلهم يحصلون على السراب, هذا الوتر الحساس الذي يحرك الجميع, هو وتر الحقوق المهضومة التي هضمها الاستعمار, ثم ورثها عملاؤه الذين نصبهم قبل رحيل جيوشه. وفي هذا يقول بن نبي:"عندما يرتفع الصخب في السوق, وتكثر حركات اليد واللسان, وعندما لايسمع الشعب غير

---

1 مالك بن نبي: " القضايا الكبرى ", ترجمة: الطب الشريف , بسام بركة , ط,1, دار الفكر , دمشق ، 191 , ص96
2 مالك ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص101
3 وصفي عاشور أبو زيد:فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي," مجلة رؤى", فصلية, العدد20, 2003, ص14

الحديث عن الحقوق, دون أن يُذكر بواجباته وعندما يُشرع بالطرق السهلة الناعمة, فتلك هي البوليتيك"[1]. فهو يُبيِّن لنا هنا أن لغة الحقوق المهضومة هي التي تثير الضجيج والحماسة العاطفية, فتحشد عددا كبيرا من الجماهير ليتحول ذلك الفرد من إنسان كان هو الغاية التي تهدف إليها السياسة, والوسيلة التي تحقق هذه الغاية في الوقت نفسه, إلى مجرد رقم في صندوق الانتخابات في نظر زعماء الدجل السياسي, ولهذا فإن:"كل سياسة تقوم على طلب الحقوق, ليست إلاّ ضربا من الهرج والفوضى"[2]، و:"السياسة التي لاتحدث الشعب عن واجباته وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه, ليست سياسة, وإنما هي خرافة, أو تلصص في الظلام, ليس من مهمتنا أن نُعلم الشعب كلمات وأشعار, بل نعلمه مناهجا وفنونا "[3].

وينبه بن نبي أن مشروع النهضة العربية قد انحرف عن مساره الصحيح بعد أن كان معتمدا على تذكير الأمة بواجباتها اليومية, لأن البناء الحضاري لأي أمة إنما يتحقق من خلال قيام كل فرد بواجباته اتجاه المجتمع, وهكذا يحصل كل فرد على حقوقه دون أن يطالب بها مادامت حقوقه واجبات غيره وحقوق غيره من واجباته, فالعلاقة الصحيحة:" بين الحق والواجب هي التي ترسي القواعد الأساسية لجميع ميادين التطور في المجتمع"[4].

وطريق الواجبات هذا الذي سلكه رجال الإصلاح في الجزائر على سبيل المثال في القضاء على أوثان المرابطين والدراويش الذين كانوا يوزعون البركات من أجل الرزق والنجاح والإنجاب, وغيرها من الخرافات التي تحجر عقل الإنسان وتقيده بظلام الجهل, غير أنها ما لبثت أن عادت هذه الوثنية في صورتها الجديدة عبر صناديق الانتخاب:"فأصبحنا لانتكلم إلاّعن حقوقنا المهضومة, ونسينا الواجبات, ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب, بل فيما تسودنا من عادات, وما

---

1 مالك ابن نبي : بين الرشاد والتيه , ص 98.
2 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص143
3المصدر نفسه , ص143
4 قادة بحيري: محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي, ص116

يراودنا من أفكار, وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق وما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم"[1].

وظل الشعب أسيرا في أحضان الوثنية التي تتغير في شكلها من جيل إلى آخر:"فتوارَت الفكرة عن العقول وحلت محلها الوثنية التي تتكلم اليوم وحدها, إذ نُصب لها في كل سوق منبر كي يستمع الناس إليها تسلية لهم وإغفالا لواجباتهم, وإبعادا لهم عن طريق التاريخ "[2].

وهكذا أصبح هواة الدجل السياسي يمارسون حماقاتهم وشذوذهم دون حياء, وفي وضح النهار, واستُبدِلت الولائم التي كانت تُقام تبركا بالأضرحة والزوايا بولائم المواعيد الانتخابية التي لايجني منها الشعب سوى الوهم والسراب , وإذا كان الوثن مجمدا في شكل ضريح أو زاوية في عهد الدروشة والمرابطية فإنه أصبح اليوم في شكل أحزاب سياسية لاتمتلك سيادة قراراتها, وجمعيات ومنظمات تُسمي نفسها جماهيرية, وتستغل الظروف المأساوية التي تعيشها الشعوب العربية لكي تزايد بها على الأنظمة علّها تحصل على بعض الفتات, لتتحول بذلك الممارسة السياسية من نشاط:"مبدع ومطور ومرقي للقدرات الذاتية للمجتمع ومشبع لحاجاته المعرفية والروحية والاجتماعية ومؤهل له للحضور والمنافسة علي الساحة الدولية دفاعا عن مصالحه الحضارية, ومساهمة في إقرار العدالة والسلام في الأرض, إلى بولتيك شرس يفترس بشراسة ووحشية الدعوة والدولة والمجتمع معا"[3].

كما يسجَل أيضا ذلك التعصب الحزبي، الذي كان له الأثر في تفكيك الروابط الاجتماعية في مختلف مؤسسات الأمة والدولة والمجتمع, فكلٌ يسعى لخدمة عصابته من خلال موقعه, ولو تطلب الأمر تكسير مختلف المشاريع الجادة التي تخدم الصالح العام للمجتمع وتعطيلها, ولما كان المجتمع منقسما إلى عصابات ولوبيات لكلٍ منها

1مالك بن نبي: شروط النهضة, ص37

2 المصدر نفسه , ص38

3 الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي , ص12

وثنه الخاص الذي يعبده, تعارضت مصالح الجماعات في تنافرية مهلكة أتت على مختلف المنجزات وحطمت مختلف المشاريع الجادة.

وإذا قمنا بتصنيف النخب السياسية الحاملة لداء البوليتيك لايمكنها أن تخرج عن صنفين, إما أنها داخل السلطة أو خارجها, ورغم هذا الاختلاف الظاهري إلاّ أنهما يتفقان على تفكيك قوة المجتمع وتخديره بالمشاكل الهامشية حتى يتحول إلى مجرد:"جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب, أو قطيع انتخابي يقاد إلى صناديق الاقتراع أو قافلة عمياء زاغت عن الطريق, فذهبت حيث قادتها الصدف في تيار المرشحين"[1].

ويستخدم الصنف الموجود خارج السلطة لغة الحقوق المهضومة ــ التي يساهم في هضم البعض منها تحت طاولة السلطة ــ, وخصوصا عند اقتراب المواعيد الانتخابية, إذ يُكثر هذا الصنف من العويل في وجه السلطة, ويعدد مساوئها وأخطاءها بطريقة دقيقة, تجعل الجماهير تنخدع لهذا الصراخ, و نظرا لما تعانيه من مآس ومشاكل مختلفة تنساق وراء هذا المرشح أو ذاك, وكأن هذا الانسياق يحدث نوعا من التهدئة.

وما يؤاخذ على هذا الصنف أن زعماءه يمثلون النخبة التي خرجت من أعماق الشعب الذي يعيش المعاناة, لكن التجارب المخبرية التي يقوم بها المتخصصون جعلتهم مجرد دمى متحركة على المسرح السياسي, منهم من يدرك دوره ويقوم به بإخلاص نظير عمولات متفق عليها مسبقا, والبعض الآخر يمتلك الإرادة الخيرة والنية الحسنة وطيبة الأخلاق, لكن غلبة العاطفة والحماسة على سلوكاته, تجعله يقوم بدوره على خشبة المسرح السياسي بإتقان دون إدراك منه, لأنه هو الآخر من ضحايا البوليتك, فهو لايختلف في حماسته عن القطيع الانتخابي الذي يسير خلفه.

---

[1]مالك بن نبي: شروط النهضة , ص 38 .

أما الصنف الثاني وهو الماسك بزمام أمور السلطة, والذي لم يكن وصوله إليها إلاّعن طريق تحالف جماعات المصالح الخاصة فيما بينهما لنهب ثروات الأمة, أو أن المستعمر هو الذي هيأ له ظروف الوصول إليها قبل أن يُرحل جيوشه, وما أكثر هذا الصنف الذي يخدم مصالح الدول الاستعمارية من داخل الحكومات العربية, وإذا كان من المفروض أن تكون هذه حالات استثنائية إلاّ أنها أصبحت هي القاعدة, وما الدليل على ذلك إلاّ ظهور معارضات هنا وهناك تستنجد بأعداء الأمة لأجل إسقاط الأنظمة الحالية وتنصيبها محلها, وكأن هذه المعارضة إنّما ظهرت بسبب سوء خدمات الأنظمة العربية للدول الاستعمارية الكبرى, فهي تدفعها بذلك للمزيد من التنازل عن مقومات الهوية التي لم يبق منها سوى الشعارات.

هذا عن كيفية الوصول للسلطة والولاء لأصحاب الفضل, أمّا عن تعاملهم مع الرعية فإن الحالة لاتكاد تختلف عنها أثناء الاستعمار العسكري المباشر, فالمناصب الإدارية لاتوزع على أساس الكفاءة والاستحقاق بل على أساس الولاء الحزبي أو الجهوي أو المصلحي, ولا وجود لحاجز في طريق نهضة الأمة أضخم من حاجز عدم توزيع المسؤوليات على أساس الاستحقاق والكفاءة لما يؤدي ذلك إلى التنافس والإبداع في مجالات تسيير مختلف قطاعات الإنتاج والخدمات, ولكن مختلف الكفاءات تهمش من طرف الأنظمة الحاكمة مالم تتصف بصفة الولاء الأعمى للأشخاص الموجودين في الحكم لا للمشروع الحضاري الذي تهدف إلى تحقيقه الأمة .

ومما تتميز به الأنظمة العربية أيضا, الوصاية على الشعوب وكأنها لم تبلغ سن الرشد بعد ومن ثم فلا يحق لها اتخاذ أي قرار لاتوافق عليه السلطة الحاكمة مسبقا, فتقيد بذلك الحريات وتكمم الأفواه, فينصرف الناس إلى الانطواء على أنفسهم خوفا من عواقب ما لا يرضي السلطة التي تحسن الحفاظ على بقائها من خلال إرهاب مواطنيها, فكل صوت مخالف لما تراه السلطة يقدم للرأي العام إمّا على أنه مخالف لروح الثورة وخائن لمبادئها, وإمّا بأنه متآمر مع قوى خارجية لضرب الاستقرار.

وهكذا يستطيع المستبد أن يطفئ أي شعاع من النور يظهر وسط الظلام الدامس الذي يفضله الحاكم العربي, وتتقاطع مصلحته فيه مع مصلحة الدول الاستعمارية الكبرى التي تعبر دائما عن قلقها, بأن أي حركة وسط الظلام تستطيع أن تتحول إلى قطب حضاري مواز لها ويجلب لها المتاعب كما تعتقد.

وإذا كان هذا واضحا اليوم في واقعنا, فإنه لم يكن بنفس درجة الوضوح قبل نصف قرن إلاّ أن بن نبي تنبه له منذ البداية وسلط الضوء على هذا المرض الذي أصاب الحياة السياسية في المجتمع العربي بعيدا عن المزايدة والمداهنة ولكن بطرح موضوعي يسمي من خلاله الأشياء بمسمياتها .

ب ــ المعوقات النفسية :

ب1 ــ غياب الفعالية :

لقد تضاعفت الأمراض التي ظلت تهدد كيان المجتمع الإسلامي في رحلة سيره البطيئة نحو الحضارة, إذ لم يقتصر الأمر على تلك الأمراض الموروثة عن عصر الانحطاط أو مايسمى بعصر مابعد الموحدين, بل أصيب بأمراض أخرى جراء الأخطار المشعة التي تعرض لها وهو يتجول في مقابر وقمامات الحضارة الغربية لجمع نفاياتها وتكديسها, فلما اشتد به المرض من كل جانب أصبح هذا المجتمع عاجزا عجزا شبه كلي, فقد أصابه الشلل الأخلاقي والاجتماعي والعقلي: "وأخطر هذه النواحي هو الشلل الأخلاقي, إذ هو يستلزم النوعين الآخرين, ومصدر هذا البلاء معروف, فمن المسلم به الذي لايتنازع فيه اثنان أن (الإسلام دين كامل), بيد أن هذه القضية قد أدت في ضمير مابعد الموحدين إلى قضية أخرى هي: (ونحن مسلمون): فنتج (إذن ونحن كاملون)"[1].

ولنعد إلى نموذج الحضارة الإسلامية في مرحلة ميلادها لا للبحث عن حلول لمشكلات واقعنا ولكن لرصد نقاط القوة التي أسهمت في إحداث نهضة حضارية في فترة وجيزة, سنجد كيف كان الكثير من الصحابة والخلفاء الراشدين, كل واحد منهم يحاسب نفسه ويعاتبها ويتألم كثيرا بسبب خطأ نراه اليوم بسيطا ونموذج ذلك عمر بن الخطاب الذي كان يُعلن أخطاءه أمام الناس ويصححها دون حرج , ولكن : "العالم الإسلامي قد فقد هذه الروح منذ زمن بعيد فلم يعد أحد يؤنب نفسه, أو يتأثر من خطيئته, أو يبكي على ذنبه, وهؤلاء هم القادة أو الموجهون وقد خيم عليهم شعور بالطمأنينة الأخلاقية, فلم نعد نرى زعيما يعترف على الملأ بأخطائه "[2].

---

[1]مالك ابن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص 85

[2]المصدر نفسه , ص85

ورغم مايعانيه المجتمع الإسلامي من تخلف إلاّ أن مسلم مابعد الموحدين غارق:" في فيضان من التعالي والغرور, حين يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال, دون أن يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه"[1], لأنه قام بربط غير منطقي:"بين كمال الشريعة وصحتها وصلاحية موقف المسلم وأدائه الاجتماعي والحضاري من جهة أخرى"[2].

وهذا الشعور بالطمأنينة يشل حركة التقدم ويسبب انحراف المجتمع عن الوجهة الصحيحة التي تدفعه إلى الحضارة, ف:"هذا الشلل الأخلاقي هو بلا مراء أخطر ماتخلف عن عصر مابعد الموحدين, يعجز المجتمع الإسلامي فيجعله غير قادر على زيادة جهده الضروري لنهوضه"[3], فينتج عن ذلك الاقتناع بالعدم, الذي يؤدي بدَوره إلى الشلل الفكري إذ:" يتجمد الفكر ويتحجر في عالم لم يعد يفكر في شيء, لأن تفكيره لم يعد يحتوي الهم الاجتماعي"[4], ويتبين من ذلك أن العقد النفسية التي يعيشها مسلم مابعد الموحدين:"تعد فعلا من المشكلات الكبرى المعيقة لفعالية أداء حركة النهوض الحضاري, لأنها لاتنمي دوافع المراجعة والنقد الذاتي والحرص على التجديد في نفس المسلم, وتغذي فيه روح الاكتفاء بل والغرور والتعالي, التي تحرمه من رشد الخبرة البشرية في تطوير ذاته وتحسين أدائه الاجتماعي والحضاري"[5].

وحينما يغيب الاجتهاد والإبداع ويتجمد الفكر, لايمكن للنشاط الاجتماعي أن يبتعد عن النقطة التي انطلق منها, ولا أن يخرج من دائرة الفوضى وعن ذلك يقول بن نبي:"وإذا ماظل هذا الفكر متبطلا, منعدم التأثير, بقي النشاط حركة فوضى وتزاحما يبعث على الضحك والرثاء, وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي"[6].

---

1 المصدر نفسه , ص85
2 الطيب برغوث : محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي , ص56
3 مالك ابن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص86
4 المصدر نفسه , ص86
5 الطيب برغوث : محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي , ص56
6 مالك ابن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص84

والمجتمع الذي يصل للإفلاس في مختلف مجالات الحياة الأخلاقية والاجتماعية والفكرية, هو مجتمع غير قادر على تجاوز مرحلته التاريخية وغير قادر على القيام بدوره الحضاري, فيُخفي عجزه بالتقليد, تارة للقدماء بدعوى المحافظة, وتارة أخرى للمحدثين بدعوى المعاصرة, ويتجلى ذلك في أن مؤسساتنا: "السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أصبحت تقف عند النظريات والأدبيات سواء كانت قديمة لاوجود لها على أرض الواقع مثل قضايا علم الكلام, أو معاصرة تتمثل في برامج وتنظيرات قامت عليها هذه المؤسسات ــ على الرغم من القصور الموجود في هذا التنظيرــ على حساب العمل والتطبيق والتفعيل"[1].

وبعد استقرائه للظواهر الاجتماعية في العالم الإسلامي, خلُص بن نبي إلى غياب الفاعلية في سلوكات أفراده باختلاف مستوياتهم التعليمية وتوجهاتهم الفكرية, وينطلق من تساؤل بسيط في ألفاظه, لكن معناه يكشف عن حقيقة مؤلمة ساهمت ولازالت في تعطيل المشاريع النهضوية العربية إذ يقول:" فالمسلم يتصرف مثلا في أربع وعشرين ساعة كل يوم, فكيف يتصرف فيها؟ وقد يكون له نصيب من العلم, أو حظ من المال, فكيف ينفق ماله ويستغل علمه؟. وإذا أراد أن يتعلم علما أو حرفة, فكيف يستخدم إمكانياته في سبيل الوصل إلى ذلك العلم أو تلك الحرفة"[2].

وإذا كان هذا السؤال قد طرح منذ أكثر من نصف قرن, فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الإجابة بما يخالف مضمون ذلك الجواب المستتر والمتضمن في السؤال نفسه. فالوقت عملة لاقيمة لها في المعاملات اليومية بين أفراد المجتمع الإسلامي, فالدقائق والساعات بل والسنوات تمر في صمت دون أن تثير أي انتباه, وقد أدرك بن نبي ذلك حينما قال:"من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطى الوقت الهارب"[3].

---

[1] وصفي عاشور أبو زيد: فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي, رؤى,مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي, العدد20, 2003, ص13

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص102

[3] المصدر نفسه , ص147

فقد ينقضي الثلثان من عمر الفرد دون أن يحقق لنفسه أو مجتمعه شيئا يذكر, ونجده مازال منشغلا بتوافه الأمور وإذا استفسرته يجبيك بأنه "يقتل الوقت !" دون أن يعلم أن ساعات الوقت الهاربة هي التي تقتل من لايحسن استغلالها, لأن أي ثانية تمر تصبح محاولات استرجاعها جزءا من المستحيل.

أما أغنياء المجتمع الإسلامي, فإن تصرفاتهم بعيدة كل البعد عن خدمة المجتمع والأمة بطريقة صحيحة, فمجالات الاستثمار لاتتعدى المجال الاستهلاكي وكل ماله علاقة بالبذخ والترف الزائد عن حده في مجتمع تحيط به الأزمات من كل جانب.

فأمّا عن علمائه ومثقفيه, فانقسموا على أنفسهم بين الهروب إلى الخارج والهروب إلى الداخل والعمالة, أمّا هذه الأخيرة فتعني وضع جميع الأفكار والمعارف التي يحملونها تحت تصرف من يمتلك سلطة القرار سواء كان استعمارا أو حاكما مستبدا لايهم. أمّا الهروب إلى الداخل فيعني الاستسلام والانطواء على الذات إمّا كتعبير عن العجز وإمّا خوفا من مواجهة تهديدات السلطة التي لاتسمح بالنشاط إلاّ لمن يبارك خطواتها التي غالبا ماتكون مشؤومة ومتعارضة مع طموحات الرعية .

وأمّا عن الجزء الأخير من السؤال المتعلق بكيفية ربط المسلم بين غاياته ووسائلها فإن المسلم الذي قيده الفكر الخرافي لعدة قرون مازالت العاطفة والحماسة هي سيدة الموقف في جميع نشاطاته كما أنه مازال بعيدا عن فهم سنن التاريخ والاجتماع.

والناتج من هذا أننا:" نرى جزءا كبيرا من اللافعالية في أعمالنا, إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات الهازلة"[1]. وتظهر اللافعالية في:" انعدام الرباط المنطقي الجدلي بين الفكر ونتيجته المادية, فالفكرة والعمل الذي تقتضيه لايتمثلان كلاً لايتجزأ, والواقع أننا عندما نحلل اطراد أي نشاط له علاقة ما بالحياة

[1] المصدر نفسه , 102

العامة للنهضة نجده مبتورا من جانب أو آخر, فإما فكرة لاتُحقق, وإمّا عامل لايتصل بجهد فكري"[1], وغياب هذا الرابط المنطقي بين الفكرة النظرية والنشاط العملي لايخص الفرد وحده بل يمتد إلى مستوى الجماعة أو المؤسسة التي تضع على عاتقها مسألة تغير الوضع الاجتماعي, فإذا تأملت المواثيق التي تستند إليها هذه المؤسسات والمرجعيات النظرية وجدتها على مستوى لابأس به من الإحاطة بالمشكلات, لكن ماإن تتم محاولات تنزيلها إلى الواقع حتى تتحول إلى نشاط منقطع الصلة تماما بالأفكار النظرية:"ومتى انعدمت هذه العلاقة عمى النشاط واضطرب, وأصبح جهدا بلا دافع, وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا مستحيلا, وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا, هو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها وغمط لأهميتها , سواء كان غلوا في تقويمها أم حطّاً من قيمتها"[2].

والحال على ماهي عليه يصبح كلام من يتصدرون الحياة العامة, مجرد استعراض لفصاحة اللسان وبيان القدرة على التلاعب بالألفاظ, لأنه خال من أي قوة دافعة للعمل أوقوة اجتماعية تعبر عن ذاتها:"فالكلام الذي انطلق خلال الحركة الإصلاحية,وخاصة منذ قضاء زعمائها الكبار لم يكن قائما على ضرورة اجتماعية, كما أن الكلام الذي أطلقته الحركة الحديثة لم يكن يهدف إلى إحداث أثر, بل لم يكن يستتبع دفع الكلمات دفعا إلى مجال العمل"[3].

ومنه فإن ماينقص المسلم مابعد الموحدين الذي حاول أن ينفض الغبار عن نفسه ويتخلص من قيود تخلفه:"ليس منطق الفكرة, ولكن منطق العمل والحركة, فهو لايفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا, بل أكثر من ذلك فهو أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا, ويقولون كلاما منطقيا, من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط"[4].

---

1 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص83
2 المصدر نفسه , ص88
3 المصدر نفسه , ص70
4 مالك بن نبي: شروط النهضة , ص103

ويظهر ذلك بوضوح في تعارض نشاطات المجتمع الإسلامي والمبادئ التي يدعو إليها القرآن الكريم, مما يدفع بن نبي إلى القول أنه لاحظ بأنه ليس من الصواب أن نقول عن المجتمع الإسلامي أنه يعيش طبقا لمبادئ القرآن بل من: "الصواب أن نقول: إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي"[1],وهوما يؤكد أن علاقة مسلم مابعد الموحدين بدينه:"علاقة سلبية انحرفت عن مسارها الطبيعي فشوهت صورة الدين وطبيعته، حيث أصبحت تغلب على حياة الناس القدرية وترقب المهدي المنتظر, والميل إلى التصوف من أجل الخلاص واللجوء إلى أضرحة الأولياء والصالحين للتوسل إليهم وطلب المعجزات والخوارق منهم, وقصد الشيوخ ورجال الدين لكتابة الحروز بغية تحقيق أغراض لم يجتهد أصحابها لتحقيقها غالبا وانتشار ظاهرة الزردة والدراويش وما إلى ذلك"[2] وحينما يفتقد:" الضابط الذي يربط بين العمل وهدفه بين سياسة ووسائلها, بين ثقافة ومثلها, بين فكرة وتحقيقها"[3] يصاب المجتمع بمرض نفسي يسميه بن نبي "بالذهان".

ويتخذ هذا الذهان شكلين متناقضين ظاهريا إلاّ أنهما يؤديان إلى شل النشاط الاجتماعي, ويتمثل الشكل الأول في النظر إلى الأشياء والمشكلات على أنّها سهلة ولا تحتاج إلى اهتمام كبير ويعطي بن نبي مثالا حيا عن حالة تجسد فيها هذا التساهل في التعامل مع مشكلات جدية وأخطار محدقة بالأمة وهو مثال القضية الفلسطينية وكيف أن:"قادة الجامعة العربية, آنذاك وقد استهواهم ذهان السهولة ركنوا إلى هيئة الأمم المتحدة, وأخذوا يحقرون من شأن الإسرائيليين, ويهونون من خطرهم وتفوقهم السيـــاسي والمالي والفني, بل العددي أيضا"[4].

والتعامل مع الأخطار والمشكلات بتساهل ولا مبالاة هو سمة أساسية يتميز بها الفرد العربي سواء كان من دعاة العلمانية والتحديث أم كان من دعاة الأصالة والإصلاح, كيف لا والأزمة التي مرت بها الجزائر مثلا, لم تكن إلا نتيجة لذهان

---

[1] المصدر نفسه , ص103
[2] محمد بغداد باي: التربية والحضارة ، ص99 و100
[3] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص103
[4] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص103

السهولة الذي سيطر على تصرفات النخبة من التيارين المتصارعين, إذ لم تكن نخبة الحركة الإسلامية ترى في خصومها إلاّ مجرد فئة قليلة منفصلة عن قيم الشعب, وأن استسلام السلطة أصبح قاب قوسين أو أدنى ولم تبق إلا عقبة وحيدة في الطريق, وهي تنحية "مسمار جحا". وفي المقابل لم تكن النخبة العلمانية ترى في خصومها إلا مجرد قطيع غوغائي يمكن التحكم فيه والسيطرة عليه في أقل من بضعة أشهر من خلال الترغيب من جهة والترهيب من جهة أخرى[1].

فالتعامل مع المشكلات بالتقليل من أهميتها كثيرا ما كان عامل هدم لثمرة جهود كبيرة استمرت لسنوات, وإذا كان ذهان السهولة يقود إلى تدمير قدرات الأمة, فالشكل الثاني يتمثل في تضخيم المشكلات أكثر مماهي عليه واعتبار حلها جزءا من المستحيل, ويسمه بن نبي ب"ذهان الاستحالة" ودوره يتمثل في شل حركة المجتمع ونشاطه كما بينا سابقا.

وفي المقابل يستنجد الفرد العربي بمشكلات جزئية يتخذ منها مشجبا يعلق عليه عجزه ف:"هذه الأدوار الغنائية الثلاثة, [الجهل والفقر والاستعمار] هي العملة الشائعة التي يفسر بها حسن النوايا عجزهم كما يستخدمها الدجالــون ليدافعوا عن مشروعـــاتهم المربحة, مشروعـــات الشعوذة والمخاتلة, والاستعمار باسم قرير العين"[2]. ولعل حالة الذهان هذه تعتبر:"السبب الأساسي الذي يعرقل جميع ضروب النشاط والذي يشد التطور إلى نسق متلكئ ويزرع القلق والعجز, ويؤدي إلى ظهور الشلل وسائر الأعراض المرضية الأخرى, وأخيرا الفوضى في الحياة وهذا في المستويين الاجتماعي والفردي على حد سواء"[3].

ولا يحتاج المتأمل لحال المجتمع الإسلامي إلى طول نظر لكي يكشف عن ذلك العجز الفكري الذي ينعكس على الجانب النفسي في حياة الفرد فينتج عن ذلك فصل بين النتائج والأسباب والوسائل الكفيلة بتحقيقها ويبيِّن بن نبي ذلك فيقول:

---

1 الطيب برغوث: "الفعالية الحضارية والثقافة السننية", ط1, دار قرطبة, الجزائر, 2004, ص87 و88

2 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص89

3 عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص35

"ففكرنا لايقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية, ونتائجها من ناحية أخرى, ومفهوم المحصول لاوجود له في تربيتنا الأولى, إذ لايُكوِّن جزءا من عالم أفكارنا"[1].

ولما كان المجتمع هو الجهاز الذي يحوّل الطاقات الاجتماعية إلى نتائج مختلفة فإن بن نبي يطبق عليه قانون الديناميكا الحرارية, الذي يعبر عن العلاقة بين الطاقة المستهلكة التي يرمز إليها "م" والعمل الحاصل الذي يرمز إليه ب "ر" حسب النسبة الكلاسيكية. المحصول = [2]. و" الميكانيكيون يعلمون أن هذا الجهاز يكون أقرب إلى الكمال عندما تكون قيمة أقرب إلى الواحد, مع العلم بأنها تظل دائما دون الواحد بحكم طبائع الأشياء والفرق الموجود بين الواحد وخارج القسمة يسمى التبديد, فالمحصول والتبديد قيمتان متعاكستان, أعني إذا زاد أحدهما نقص الآخر بالضرورة, فإذا كان الجهاز مطلق الجودة, فإن محصوله يكون مساويا للواحد, وفي هذه الحالة نحصل على مايسمى بالحركة الدائمة, وهو أمر مستحيل التحقق حسب قوانين الميكانيكا, وإذن فهناك فجوة بين القيمة الحقيقية للمحصول والواحد, وبهذه الفجوة يمكن أن يقاس مقدار العجز الميكانيكي أو مايدعى بتبديد الجهاز"[3].

ولقد طبق بن نبي هذه المفاهيم على المجتمع البشري باعتباره جهازا لتحويل الطاقات الاجتماعية, غير أنه نبهنا إلى أن القوانين التي تخضع لها عملية تحويل الطاقات الاجتماعية تختلف عن القوانين الميكانيكية باعتبارها:"ترضخ بالحصول لنسق النظام الاقتصادي الذي يحتم أن يكون الإنتاج متفوقا على الاستهلاك دائما, وإلاّ انحدر المجتمع إلى درك الإفلاس"[4].

---

1 مالك بن نبي: فكرة كومنويلث إسلامي , ص59
2 أنظر المصدر نفسه , ص59
3 المصدر نفسه , ص60
4المصدر نفسه , ص60

وقام بن نبي بإجراء دراسة لميزانية منظمة طلابية فتبين له أن "المحصول" أسوأ من محصول محرك رديء, واستخلص من خـــلال دراسات مماثلة:"أن التبديد هو الغالب بكثير في معظم الأحيان على المحصول...وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تُعزَى إلى العجز في أفكارنا"[1], والعجز في الأفكار هو الآخر يقود إلى تبديد في الوسائل وفي النهاية لايفسر ضعف المحصول بسببه الحقيقي وإنما بسبب ثانوي كالفقر مثلا أو الجهل, ولم يتوقف الحد عند لافعاليتنا بل تجاوزه إلى محاولات تبريرها و:"نحن عندما نتفحص عن كثب حياتنا الاجتماعية, نجد فيها ما لا يستهان به من ترهات من هذا القبيل, بغية تبرير لافعاليتنا"[2].

والمتتبع لشأن العالم الإسلامي لايمكنه أن يتوقف عند نشاط معين دون أن تتراءى له اللافعالية في شكل أوفي آخر, فحتى عن الوعاظ في المساجد أومن يقومون بدور التربية والإصلاح في المجتمع نجد أن حياتهم الخاصة مطابقة تماما للنموذج الذي يخصصون دروسهم ومواعظهم لنقده وبيان زيفه, فوعظهم:"ليس عملا اجتماعيا, ولكنه مجرد واقعة لفظية, أوهو في أحسن الأحوال مجرد أخلاقية ملتفتة إلى الماضي أكثر من اتجاهها صوب المستقبل, فهو يفتقد القوة التي تَسِمُ الأعمال الكبيرة, والتي تصدر عن الروح في لحظات توترها الخلّاق, وهو مايمكن تفسيره بانعدام النزعة الغيبية الحقيقية, فنحن لانجد في ذلك الوعظ الاهتمام بالفعالية, ولا الفعالية ذاتها التي تكون معيارا صالحا في كل زمان"[3].

وإذا كان الكثير من الأمراض البيولوجية ينتقل عن طريق الوراثة فإن مرض اللافعالية الذي أصيب به المجتمع العربي هو الآخر ينتقل من جيل إلى جيل عبر ثقافة المجتمع المتمثلة في أسلوب الحياة وطريقة التعامل مع المشكلات المختلفة التي تواجه الفرد والمجتمع على حدٍ سواء, ولتأكيد ذلك يضرب بن نبي مثلا من الواقع يتمثل في المقارنة بين طالب مسلم وطالب أوروبي يدرسان في نفس الكلية بإحدى العواصم الأوروبية, فرغم أننا نجد الطالب المسلم متفوقا في دراسته:"إذا ماكان أكثر

[1] المصدر نفسه , ص61
[2] المصدر نفسه , ص62
[3] المصدر نفسه , ص64

استعداد وذكاء, لكنه لايحصل غالبا على فعاليته, أعني طريقة سلوكه وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية وليس لدينا سوى وجه واحد لتفسير هذا الاختلال, وهو أن الفاعلية الاجتماعية لاعلاقة لها بمنهج الكلية, وإنما تعتمد بصفة عامة على أسلوب الحياة في مجتمع معين"[1].

هذا من حيث علاقة الفاعلية بالثقافة, أمّا من الناحية العلاقة الجدلية بين الفكر والنشاط فأي خلل يصيبها سيقود حتما إلى غياب الفاعلية و:"طبيعي أن يفقد النشاط فاعليته, إذا مأدار ظهره عمدا للمقاييس والقواعد, و في كلمة واحدة, إذا مأدار ظهره للأفكار, فإذا به يظل في متاهة من الإبهام والغموض والشك دون أن يدرك أنه قد زاغ عن سواء السبيل"[2].

ويظهر الخلل في العلاقة بين الفكرة والنشاط, أيضا في ذلك الترف الفكري الذي يتعالى عن مشكلات الواقع، إمّا هروبا من عجز المواجهة, وإمّا نتيجة حمى الغرام بالأفكار, ويُعلق بن نبي على هذا بقوله:"فلو أنني وصفت هذه الفكرة بصورة أستعيرها قلت, إنه ليس مصنعا تتحول فيه الأفكار إلى أشياء, بل هو مخزن تتكدس فيه الأفكار بعضها فوق بعض"[3], وكان انتقاد بن نبي للنخبة المثقفة منطلقا من هذا الأساس إذ:"رغم شيوع مطلب النهضة وانتشاره، إلاّ أنه كان دون توجيه منهجي, فكان العلم زينة وأسلوبا وترفا ولم يكن حركة وعملا إيجابيا"[4].

وهكذا فإن أيّ خلل في طبيعة العلاقة الجدلية التكاملية بين النشاط والفكرة يؤدي إلى غياب الفاعلية إذ:"يصاب النشاط بالشلل عندما يدير ظهره للفكرة, كما تصاب الفكرة بالشلل إذا ما انحرفت عن النشاط, لكي تمضي في طريق اللهو والعبث"[5].

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة , ص42

[2] المصدر نفسه , ص68

[3] المصدر نفسه , ص68

[4] عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى, مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل , العدد 20, سنة2003, ص73

[5] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة , ص69

وإذا كانت هذه هي انعكاسات داء اللافعالية على حياة مجتمع يريد النهوض فإنها تعيقه حتما عن تحقيق أهدافه الحضارية الكبرى, ولكنها لاتعدو أن تكون حالة مرضية تصيب أي مجتمع في مرحلة مابعد التحضر أو الانحطاط, لذا فمعالجتها ممكنة بل أكيدة:" إذا ما استعاد العالم الإسلامي تشكيل أساسه المفاهيمي بتركيب الإنسان والتراب والوقت"[1].

ب2 ــ الميل إلى التكديس:

لا يمكن بأي حال من الأحوال لركام من المتناقضات التي جُمعت بشكل فوضوي رغم تنافرها أن تسهم في بناء حضارة أو بالأحرى السير قدما بمجتمع استيقظ من نومه ــ الذي دام عدة قرون ــ نحو دروب التحضر, لأن أي حضارة في حد ذاتها ماهي إلاّ ذلك البناء المتكامل المتجانس الناتج عن جهود الأفراد والجماعات في إطار علاقة جدلية تكاملية, إذ توفر الجماعة للفرد جميع الضمانات التي يحتاج إليها في حين يبذل الفرد أقصى مايملك من الجهد من أجل الجماعة التي يعيش ضمنها, أمّا التكديس فهو غير ذلك تماما إذ أنه لايؤدي إلى النتائج المرجوة منه, وإن حدث ذلك فما هو إلاّ احتمال ضئيل مرتبط بالمصادفة لابسنن التاريخ ولا الاجتماع .

ويرى بن نبي أن التكديس ظاهرة غريبة عن حياة المجتمعات, لكنها تظهر في مراحل الانحطاط, وليس أثناء محاولات اليقظة والسير في طريق النهضة مثلما هو حال مجتمعنا الإسلامي[2].

ولم يرتبط التكديس بالأشياء فقط بل تجاوز ذلك إلى الأفكار والأشخاص معا إذ يقول بن نبي:"وهذا التكديس للأشياء يزدوج على العموم مع تكديس للأشخاص, فالمكان الذي يجب أن يشغله خمسة موظفين أو مستخدمين, يوضع فيه أحيانا خمسة عشر أو عشرون بطريقة تزدوج بها مشكلة البطالة العادية مع بطالة ناشئة عن

---

[1] قادة بحيري: محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي , ص141

[2] مالك بن نبي: " تأملات " , إشراف : ندوة مالك بن نبي , ط5 , دار الفكر , دمشق , 1991 , ص166

الواقع في استحداثنا لموظفين دون أن نستحدث وظائفهم"[1]. هذا النص يبين كيف أن النخب التي تُسير مصالح المجتمع الإسلامي تسعى للتخلص من تخلفها بطرق غير سليمة تماما وتساهم في تعقيد المشاكل بدل أن تحلها بالطريق الصحيح الذي يعتمد على التوجيه والتخطيط المنهجي المتكامل لا التجزيئي.

كما أن:"التكديس في المجتمع ظاهرة مضرة, وهي تظهر حتى في الأفكار فقبل خمسين سنة نتكاتب ونتراسل في رسائلنا الأدبية والودية, فنبتدئ بعد الحمد لله بعشرة أسطر من الديباجات التقليدية, والألقاب وثم نقول والحمد لله أنا بخير وأرجو أن تكونوا بخير والسلام عليكم"[2].

وقد استمرت ظاهرة التكديس في مجال الأفكار إلى يومنا هذا, فأغلب الكتب المعروضة في المكتبات العربية, تتضمن تكديسا لنصوص من إبداع الغير سواء القدماء من المسلمين, أوالمحدثين من الغربيين, وأن مضمونها ماهو إلاّ جمع للألفاظ المتقاربة المعنى والدلالة, فإذا فتحنا كتابا وتأملنا فصلا يتحدث عن مشكلة الفقر مثلا:"نرى كل مايتعلق بالحياة الاقتصادية من الحديث عن المصارف والبضاعة والأسواق, أي بكل مايتصل بكلمة فقر وما يقابلها من غنى وثروة, ذلك لأن كلمة الفقر توحي بهذه المعاني جميعا فهذا ضرب من تداعي المعاني والأفكار, إذ أضع كلمة وآتي بكل الأفكار التي تدخل تحتها ومن الطبيعي أن هذا ليس ببناء, ولكن تكديس وجمع للمفردات لايؤدي إلى حل المشكلات ولا يأتي بنتيجة, إذ القارئ لايشعر بأنها قدمت له حقيقة"[3].

وأول ماتوجه إليه المجتمع الإسلامي الذي انخرط في تيار التكديس هو منتجات الحضارة الغربية من تلفاز وسيارة وهاتف وحاسوب, معتقدا بأن ذلك هو السبيل الذي تتحقق من خلاله النهضة المنشودة, وراح يتهافت على تكديس منتجات الحضارة الغربية بطريقة غير معقولة, في حين أن هذا التكديس يؤدي :"إلى التمدن

[1] مالك بن نبي : القضايا الكبرى , ص51
[2] مالك بن نبي: تأملات , ص167
[3] المصدر نفسه , ص167

لا إلى الحضارة, فالتمدن يمكن صناعته في لحظة معينة من الزمن يكفي أن نرتدي ملابس غربية ونظارات غالية وهاتف نقال من نوع رفيع واقتناء سيارة فخمة ونتحدث بلغة غيرنا فنحطم الرقم القياسي في التمدن لكن رغم كل هذا فسنظل نحمل في ذواتنا أفكارا لاتحرك المجتمع وعقلا ضيقا لايتعدى الأفق"[1].

ويستقي بن نبي من ملاحظاته الدقيقة للواقع بعض الأمثلة التي تعبر بوضوح عن ذلك الاعتقاد بأن عجزنا يكمن في الأشياء, لذا ينبغي أن نضاعف تكديسها لعلنا نخفي نقائصنا إذ يقول:"ولكن روح التكديس والشيئية التي يجب التخلص منها, مانفكت مستمرة البقاء, وهي قد تتبدى أحيانا تحت مظهر مشتط في الهزل, وذلك عندما نلاحظ ـ إذ نعبر العالم الإسلامي ـ أربعة أجهزة للتكييف الهوائي في مقصورة أحد رؤساء المصالح, أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه"[2].

ويحاول بن نبي دائما تحليل النتائج, التي تؤدي إليها تلك الانحرافــات الفكرية والمنهجية التي تُخل بالسير الصحيح لنهضة العالم الإسلامي وذلك لأن: "الحضارة حينما تكون في حالة شتيتة أو تَمثُل على صورة سائبة لاتمثل حضارة, ولكن ركاما مكدسا من الأشياء المشتتة, الفاقدة للتآلف في قليل أو كثير, حتى ليمكن أن نتمثلها في صورة متحف من الطُّرف المستغربة والمثيرة للاستطلاع, أو سوق للسلع الزهيدة القيمة والبضائع الكاسدة والبائرة"[3].

فنتائج التكديس لايمكنها أن تخرج عن الإطار السابق الذكر, الذي حدده بن نبي في النص المذكور أعلاه, لأن:"المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف والسخرية أن تنعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"[4]. ذلك لأنه:"من البديهي أن

---

[1] قادة بحيري: محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي , ص111
[2] مالك بن نبي: القضايا الكبرى , ص50 و51
[3] المصدر نفسه , ص57
[4] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص46

الأسباب هي التي تُكوِّن النتائج وليس العكس فالغلط منطقي ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة, فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ولا نخرج بشيء"[1].

أي أن النزوع إلى التكديس عامل إعاقة للنهضة لتعارضه مع مبدأ السببية من جهة, ومن جهة ثانية لكونه مجرد تعويض عن الشعور والعجز أمام أشياء الحضارة, والنزوع إليه لم يكن نتيجة للدراسة المنهجية لمشكلات الحضارة.

ب3ــ القابلية للاستعمار:

يرى بن نبي أن المجتمع الإسلامي عاجز عن تحقيق نهضته مدام أفراده يتصفون بنوع من السلبية واللامبالاة اتجاه مشكلات الواقع الذي خطط له الاستعمار وفرضه عليهم, وحالة الرضا بالواقع المتدهور والأليم دون بذل الجهد لتغيره هو مايسميه بن نبي"القابلية للاستعمار", والتي تستمد معناها:"من المناخ الثقافي والاجتماعي في مجتمع الانحطاط أو مابعد التحضر كما يجليه واقع المجتمعات المستعمرة, وكما يظهره واقع الفرد في نفسيته أو سلوكه المتصف بالسلبية والاستسلام"[2], إذ أن الهزيمة النفسية التي تعانيها طائفة من أفراد المجتمع الإسلامي دفعت بهم إلى السير في عكس الاتجاه الصحيح للتقدم, وذلك من خلال الاستسلام والدفاع عن المشاريع الاستعمارية وتأييدها, وإصدار الأحكام وفقا لمقاييس الاستعمار.

ومن هنا مثلا نجد من المسلمين من يرفض مشروع أسلمة المعرفة الاجتماعية والإنسانية ــ الذي يهدف إلى جعل العلم وسيلة لتحقيق النهضة الإسلامية ــ, وذلك بدعوى عالمية المعرفة[3] وأن هذا نوع من المزايدة والتعصب, لكنهم في مقابل ذلك يسعون جاهدين من أجل "أسلمة العنف والإرهاب" كظاهرة اجتماعية ناتجة عن الظلم والقهر الاجتماعي من جهة والجهل بسنن التغيير من جهة أخرى. فهذه الازدواجية

1 مالك بن نبي: تأملات , ص169

2 نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , ص115

3 طه جابر العلواني: "إصلاح الفكر الإسلامي , مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر" , بدون طبعة, المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن), عمان , سنة1995, ص74

في إصدار الأحكام حتى من طرف النخبة المثقفة إنّما ترجع إلى اعتماد المقاييس الاستعمارية, ومن هنا يتجلى لنا أنه:"إذا كانت المجتمعات العربية والإسلامية قد ألقت حقا بالكيان الاستعماري خارج أرضها, فإن روح الاستعمار لم تبرح عقول أفراده ولا نفسياتهم ولا ثقافتهم"[1].

كما أن القابلية للاستعمار تتجلى في ذلك الكسل العقلي والعملي الذي نواجه به مشكلات تتطلب الفعالية والهمة العالية والنشاط الدائم, فلا يمكن لمجتمع يريد النهوض من كبوته أن يُهمل دعم البحث العلمي ويُعطل طاقات بشرية هائلة, ويخدرها بمختلف أنواع التخدير, أويشغلها بمشكلات ثانوية عن مشكلاتها الجوهرية خوفا من ردود أفعالها غير المتوقعة.

ويُضاف إلى هذه الأوجه وجه آخر من أوجه القابلية للاستعمار وهو محاربة المجتمع لفضائل الأخلاق ونشر الرذيلة بين أفراده, وكم من رجل أعمال مسلم وظف أمواله لإنشاء قنوات فضائية لنشر الانحلال الخلقي في أوساط شباب يعاني من كل الأمراض الاجتماعية, وسيستغل الاستعمار هذا الوجود الجاهز أحسن استغلال لصالحه في معركة الصراع الفكري, ومن ثمة فالقضاء على مشكلاتنا أو إصلاح أحوالنا لايكون بإلقاء اللوم على الآخر وتجاهل المصدر الأساسي المتمثل في طبيعة التركيبة النفسية للأنا[2].

فالقابلية للاستعمارية هي:"جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية سلبية, تضع المجتمع في حالة من الضعف والقصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به, فيجد نفسه في حالة وهن حضاري يُفقده القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرها"[3], وهو مابينه مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة"[4] فنجد مثلا تلك الفتن والصراعات الداخلية الناتجة عن التعصب العرقي أحيانا, وعن

---

[1] محمد بغداد باي : التربية والحضارة , ص128

[2] زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص19

[3] طيب برغوث:" حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية " , ط1 ,دار قرطبة , الجزائر, 2004 , ص35

[4] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص156 ومابعدها

السياسات الانتخابية أحيانا أخرى, فتبدد الأموال والجهود من أجل هدم الإنجازات التي حققتها الأجيال السابقة.

وأما عن غياب الذوق الجمالي في المجتمع فالتصرفات اليومية لأفراده توحي بأنك أمام قطيع يلبي دعوة الغريزة دون تردد, فيصبح الصوت النشاز معيارا للنغم العذب, والكلمات البذيئة المثيرة للغرائز معيارا للكلمة الصادقة التي تعبر عن هموم المجتمع. وبغرض التوضيح يجدر بنا تأكيد ماذهب إليه عبد اللطيف عبادة وهو أن مفهوم القابلية للاستعمار:"مفهوم نفسي, وليس مفهوما عرقيا, أو جِبليًا كما فهمه بعض الناس"[1],وإذا كان غرض بن نبي من تركيزه على هذا الجانب النفسي عند مسلم مابعد الموحدين هو:" نقد المجتمع الإسلامي وتأنيبه وتبصيره بوضعه المزري لحثه على النهوض والتخلص من عيوبه فكان بهذا شفوقا رحيما بهذا المجتمع ينقده بدافع الغيرة عليه, فإن كثيرا ممن يستخدمونه[أي القابلية للاستعمار] الآن يريدون منه الدفاع عن الاستعمار بتركيز كل اللوم على مجتمعنا وحجب الأضواء عن القوة الخارجية الهائلة التي تضغط بل تضرب بقبضة حديدية كل حركة نهضوية عند المسلمين"[2].

ومن خلال ماسبق ذكره يتَبيَّن:"أن الاستعمار لايتصرف في طاقاتنا الاجتماعية إلاّ لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة, وأدرك منها مواطن الضعف, فسخرنا لما يريد كصواريخ موجهة, يصيب بها من يشاء, فنحن لانتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منّا أبواقا يتحدث فيها وأقلاما يكتب بها, إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه, يسخرنا بعلمه وجهلنا"[3].

---

[1] عبد الطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي, ص130

[2] وصفي عاشور أبو زيد: فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي, رؤى,مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي, العدد20, 2003, ص14

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص159

ج ــ الــمعــوقـــات الفــكـــريـــة:

ج1ــ النزعة الذرية:

يرى مالك بن نبي أن فشل مختلف الجهود المبذولة من أجل تحقيق نهضة عربية إسلامية, إنّما يرجع إلى غياب الرؤية المتكاملة, التي تدرس المشكلات باعتبارها مترابطة مع بعضها البعض ترابطا عضويا يجعل من كل مشكلة جزئية نتيجة لمجموعة من المشكلات السابقة لها وسببا جزئيا لما بعدها, وغياب هذه الرؤية التي تسمح بتحديد حلول موفقة لمختلف المشاكل التي تعاني منها الأمة, هو الذي أدى إلى سيادة النزعة الذرية أو التجزئية والتي تعني:"نزوع العقل إلى التجزئة والذرذرة الفكرية, فتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة, كل جزء قائم بذاته في تصورات العقل, وبالتالي تغدو مجرد أكوام, تفتقد صورة التكامل وتبتعد عن منهج التركيب المتآلف"[1].

ولم يهمل مالك بن نبي تفسير الفكر الإستشراقي لهذه الظاهرة المَرضية التي أصبحت ميزة رئيسية يتميز بها الفكر الإسلامي في مرحلة من مراحل دورته الحضارية, إذ نجد أن المستشرق الإنجليزي جيب (GIBB) اتهم الفكر الإسلامي في حد ذاته بالذرية من جهة, واعتبرها خاصية فطرية من جهة ثانية, لكن بن نبي أكد بأنه:"يجب أن نوجه هذه التهمة ليس ضد الفكر الإسلامي ذاته, ولكن ضد تفكير مسلم القرن العشرين"[2]. أمّا الإدعاء بكونها خاصية فطرية في العقل الإسلامي, فلا أحد يستطيع أن ينكر أن العقل الأوروبي شهد نفس الظاهرة في مرحلة القرون الوسطى, وعليه فهي ظاهرة عامة تصيب الفكر الإنساني في مرحلة من مراحله, إذ أن:"الفكر غالبا مايكون ذريا في خطواته الأولى, كما كانت الحال في أوروبا قبل

---

1 عبد القادر بوعرفة: نظرية التصابي عند بن نبي وأفق النقد الحضاري, "ثقافتنا للدراسات و البحوث ", مجلة علمية متخصصة في العودة الحضارية الإسلامية , المجلد1, العددالثاني, شتاء1425, 2004, ص207

2 مالك بن نبي: القضايا الكبرى , ص125

ديكارت, وكما صارت إليه الحال بعد عصر ابن خلدون في العالم الإسلامي عندما توقف كل جهد عقلي"[1].

ويرى بن نبي أنه بمجرد تصفحنا لمختلف الدراسات والمشاريع النهضوية: "نجد أن كل مصلح قد وصف الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه, أو مهمته, فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسة تحل بوسائل سياسية, بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لاتحل إلاّ بإصلاح العقيدة والوعظ"[2], أي أن جمال الدين الأفغاني:"قصر التغيير الكلي على بعض جزئياته فهيمنت النظرة الجزئية, وحصر الهم في التغيير السياسي, وقد صادف الجهد المبذول قصورا في تحويل تلك النظرة إلى قيم اجتماعية جديدة صالحة لقيادة الإنسان وتغييره, وخاصة تغيير إنسان مابعد الموحدين"[3], أمّا محمد عبده فتميز مشروعه ب:"غياب النظرة الشمولية لكيان عملية التغيير, فجزئت المشكلات إلى مكوناتها الجزئية فمرة التعليم ومرة مضامينه(علم الكلام) غير منتبهين إلى التحليل المنهجي للمشكلات, والكشف عن أسبابها الموضوعية"[4].

وهذا الطرح التجزئي لمشكلات النهضة يبتعد كليا عن حقيقة المرض الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي ويركز كل اهتماماته على أعراضه المتغيرة مبتعدا كل البعد عن جوهر المشكلة, وتناول المشكلة بهذه الكيفية لايتضمن:"دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي, دراسة لاتدع مجالا للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون"[5], :"فعوض معالجة وضعية تاريخية عامة تمت معالجة قضايا سياسية مختلفة"[6], ومنه فإن:"النزعة الذرية هي قفزة البرغوث من تفصيل إلى تفصيل"[7] لأن التحليل الجذري للمجهود النهضوي يجعلنا نجده:"متفكك الأجزاء كأنه مركب على

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص17 و18

[2] المصدر نفسه , ص45

[3] عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى, مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل, العدد 20, سنة2003, ص70

[4] المرجع نفسه , ص71

[5] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص45

[6] مالك بن نبي: القضايا الكبرى , ص49

[7] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص128

صورة الخط المنقط, الخط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئا, وإننا نجد هنا في صورته الاجتماعية المرض الذي سميناه "الذرية" في تفكيرنا"[1].

ج 2ـــ غياب النقد الذاتي:

إن مختلف المشاريع النهضوية العربية تعاني من غياب ورفض النقد الذاتي الذي يُمكن من معرفة مختلف الأخطاء والثغرات لأجل مراجعتها بين الحين والآخر, مما يساعد على مواصلة المسير في طريق النهضة وفق المسالك السليمة, ومن جهة ثانية على الاستفادة من نتائج هذه الدراسات النقدية وتوظيفها لاختزال مسافة السير أو بعبارة أخرى حتى لاتتكرر نفس الأخطاء, ويعود سبب ذلك الرفض إلى انتشار: "ثقافة التلقين والتسميع والتقليد, على حساب ثقافة التفقيه والتأصيل والنقد والاجتهاد والإبداع, بحيث صعُبت علينا مواكبة مستجدات الحياة المعاصرة, وصرنا نرى مواقف آلية تكاد تخلو من الأصالة والفعالية والمصداقية"[2].

وغياب النقد الذاتي يدفع دائما إلى التهرب من المسؤولية إذ:"يحاول زعماء الحركة الحديثة أن يلصقوا أسباب عطلهم بالاستعمار, ولكن ذلك ليس ضربا من التعلل, إذ يقصدون من ذلك الهرب من مسؤوليتهم الحقيقية, ولقد شاركهم في تعللهم أيضا دعاة الحركة الإصلاحية, أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم, بل اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية, فالتياران كلاهما لايهتمان بعلاج نقائصهما "[3].

يُحاول بن نبي من خلال هذا النص أن ينبه إلى خلل ظل يعانيه عقل المسلم, وهو تعليق أسباب الفشل على مشجب الآخر, ورفض مراجعة الذات ونقدها, حتى أنه حينما تعرض لبعض الأخطاء التي ارتكبتها حركة الإصلاح في الجزائر في كتابه "شروط النهضة", فُهم نقده على أنه تشويه لسمعة الحركة, ويرجع ذلك في رأيه إلى أنّ:" النقد لم يدخل بعد في عاداتنا, ولم يستقر في جونا العقلي, وأن الكلمة ذاتها

---

1 مالك بن نبي: في مهب المعركة ,ص115

2 طيب برغوث:" حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية "، ص42

3 مالك ابن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص70

لم تبرح أجنبية عن قاموسنا أو أنها تعني شيئا آخر, كأنّ كلمة "نقد" وكلمة "تشويه" مترادفتان في لغتنا"[1]. ويشير الباحث زكي أحمد إلى أن:" هناك إقرار من العديد من المفكرين,إننا نعاني في حياتنا الثقافية من أزمة نقد, وهذا أخطر إشكاليات الثقافة فأزمة النقد في أساسها هي أزمة في الثقافة, كما يكرس من جهة أخرى سلبيات الثقافة وآفاتها"[2].

واستمر هذا الداء الذي تختفي وراءه الأسباب الحقيقية للفشل إلى يومنا هذا فالأنظمة التي استلمت السلطة بعد استقلال الدول العربية راحت تعتبر كل نقد أو محاولة للكشف عن الأخطاء بأنه مناف لروح الثورة التي حصل بموجبها الاستقلال:" فغياب المراجعات النقدية التقويمية فسحت المجال للتقليد والاجترار والرتابة في الأداء السلوكي والاجتماعي والسياسي... للأفراد والجماعات والمؤسسات الشعبية والرسمية"[3], كما ظلت التيارات العلمانية هي الأخرى رافضة للنقد الذاتي حتى داخل التيار, وكلما ظهر صوت يعارض توجهاتها ويبيِّن مكامن الضعف والخطأ إلاّ واتهم بأنه رجعي متخلف, أو بأنه شيخ متنكر في هيئة رجل عصري, ولا يختلف عن ذلك التيار الإصلاحي إذ يصف كل نقد بأنه تشويه ومحاولة لخلق الفوضى من جهة, أو تثبيط للعزائم من جهة أخرى, في حين أن :"النقد في حقيقته ليس تجريحا, أو انتهاكا لحرمة الشخصية وإفشاء للمثالب بل هو نصيحة جمالية وهدية قلبية وإحسان أخلاقي"[4].

والأمة التي لاتعترف بأخطائها من أجل تصحيحها والاعتبار منها تظل تراوح مكانها ولا يمكنها أن ترقى إلى مستوى الحضارة. وغياب النقد المنهجي والموضوعي هو الذي حرم المحاولات النهضوية:"من فرز ماهو إيجابي مما هو سلبي في منظومتي المفاهيم ومنهجية الانجاز على حد سواء, ولم يسمح للوعي الحضاري بالانتشار في الأمة لتخليصها من الفكر الطفيلي المأزوم, وتحريرها من

---

1 مالك ابن نبي :في مهب المعركة , ص106

2 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص137

3 الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري, ص11

4 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص138

الكوابح الفكرية والنفسية والاجتماعية التي أثقلت كاهلها, وحددت فاعليتها الحضارية"[1].

ج 3ـ غياب الوعي المنهجي:

يرى بن نبي أن الجهود النهضوية وإن اتسمت في معظم الأحيان بالنية الصادقة والرغبة الملحة لتكسير قيود التخلف, إلاّ أنّ غياب الوعي بسنن التغيير لدى كل من رجال الإصلاح وتيار التحديث هو ماأدى إلى فشل المشروع النهضوي العربي وذلك لأنّ:"أي اختلال في الوعي المنهجي, في أبعاده المعرفية والإجرائية والأخلاقية, سينعكس مباشرة على الوعي والأداء الثقافي, وهذه الانعكاسات السلبية المتتالية, تؤثر مجتمعه على مستوى الوعي والأداء الحضاري للفرد والمجتمع، وتدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من الضعف والتقهقر والاستعابات الحضارية المضادة"[2].

ولما كان للحضارة مراحلها المختلفة والتي تنتقل خلالها الأمم والمجتمعات من مرحلة تاريخية إلى أخرى وفق قانون التطور الحضاري, فإنّ أي أمة كما تعيش مرحلة الازدهار والريادة الحضارية في مرحلة من تاريخها, فإنها تعيش أيضا مرحلة ركود وانحطاط تخلد خلالها إلى نومها العميق, وما إن توفرت لها نفس شروط ميلادها حتى تستطيع استعادة نهضتها, غير أنّ :"أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ, أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا, ولعل أكبر أخطاء القادة أنّهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية, ومن هنا تبدأ الكارثة ويخرج قطارنا عن الطريق حيث يسير خبط عشواء"[3].

---

[1] الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري, ص11

[2] طيب البرغوث : " مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السنية , تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي", ط1, دار قرطبة , الجزائر, 2004, ص 26

[3] مالك ابن نبي : شروط النهضة ص52

وتجاهلهم لمنهجية التفكير الصحيح هو الذي :"جعلهم يتصورون المسألة بطريقة غير صحيحة, وبالتالي وضعوا حلولا غير موضوعية لمشاكل الأمة"[1].

والجهل بطبيعة المرحلة التاريخية التي نعيشها إنما هو ناتج عن:" قصور الوعي السنني واضطرابه, لدى الصفوة الفكرية والسياسية في ساحات الدعوة والدولة والمجتمع على حدٍ سواء"[2]. الأمر الذي دفع بقادة الفكر والسياسة إلى استيراد حلول جاهزة استخدمها الآخر كعلاج لمشكلاته الخاصة رغم أن:"الفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية, ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية"[3].

ولا يمكن للنهضة أن تتحقق إلاّ إذا كانت الحلول المقترحة لعلاج أزمة التخلف مرتبطة بالمرحلة التاريخية التي تعيشها الأمة, وكانت تحديات الواقع ومتطلباته هي الأساس الذي نعود إليه من أجل صياغة المشروع الحضاري للأمة الإسلامية المعاصرة .

ج 4ـــ الاغتراب الزماني والمكاني:

يرى بن نبي أن المجتمع الإسلامي بعد سقوط الدولة الموحدية استرسل في سباته العميق الذي استمر لعدة قرون, ولم يسترد وعيه إلاّ بعد تلقيه ضربات موجعة من طرف الاستعمار من جهة, والنداءات المتكررة لبعض رجال الإصلاح من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده, واصطلح على تسميتها بمرحلة النهضة والتي يؤرخ لبدايتها حوالي سنة 1858, وهي مستمرة إلى يومنا هذا [4].

والأمة التي تستيقظ وتنتبه لما حولها, بعد فترة طويلة من النوم, لابد لها أنّ تجد نفسها محاصرة بمشكلات متعددة ومعقدة, وتحتاج إلى حلول مستعجلة, وفي هذه

---

1 عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى, مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل, العدد 20, سنة2003, ص74

2 طيب البرغوث:" مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية , تحليل الأهمية المعطى الثقافي والتربوي " , ص 03

3مالك بن نبي : شروط النهضة , ص53

4أنظر مالك ابن نبي: فكرة كومنويلث إسلامي , ص26

المرحلة تسود الفوضى والارتباك والتذبذب في كيفية التعامل مع مشكلات الراهن أو الواقع, وهنا يظهر اتجاه محافظ متشبث بأذيال الماضي, واتجاه تقدمي يسعى لاستعارة الحلول من الحضارة الغربية.

ومعالجة مشكلات العالم الإسلامي وفقا لما سبق ذكره:"يؤدي بالتيار الحديث, وباتجاه الإصلاح معا إلى ذلك الخليط الملفق من محدثات مستعارة أو رواسب متوارثة. هذه الفوضى المكونة من عناصر لم تهضم أو تتمثل, تنفجر في صورة تنافر عنيف"[1].

ومبدأ دعوة الحركة الإصلاحية بالعودة إلى الماضي:"لم يسجل إذن في نسق من الأحداث التاريخية, فهو بهذا يعد مزلقة لاتؤدي بالإنسان إلى مرحلة من الوعي, بل إلى مرحلة يتعلم فيها مايتصل بعلم الكلام, أي أنه يسلك النهج الذي سبق أن سلكه المسلمون في عصر مابعد صفين, فهو إذن إصلاح للعلم, قلما يمس ــ بل لا يمس البتة ــ مصير المجموعات الإنسانية"[2]. لهذا نجد أن ماتحقق من جهود الحركة الإصلاحية هو وقوفهم:"عند حدود مأعطته الحضارة الإسلامية في عهودها السابقة, وتحول أنظارهم بالكلية إلى هذا التراث والتغني به منصرفين عن الواقع الذي تردى وتقهقر في حين بلغت حضارات أخرى الأوج"[3].

واستعارة الحلول من الغرب هي نتاج الصدمة الثقافية العنيفة التي تعرض لها العالم الإسلامي فأصبح على إثرها يعاني الشعور بمركب النقص أمام الآخر من جهة, ويحاول من جهة أخرى مواجهة هذا المركب والتغلب عليه:"حتى أدى بهم مركب النقص إلى أنّ ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي, وألقوا أسلحتهم في الميدان, كأنّهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب, فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيي بالزي الغربي, وينتحل في أذواقه وسلوكه كل مايتسم بالطابع الغربي حتى

---

[1] مالك ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص78

[2] مالك ابن نبي: المصدر نفسه , ص156

[3] وصفي عاشور أبو زيد: فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي, رؤى,مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي, العدد20, 2003, ص15

ولو كان هذا الطابع ليس إلاّ مظهرا لاشيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية"[1].

هذه الفئة من الاتجاه التقدمي لم تستطع أن تصمد أمام الزحف الثقافي الغربي, فراحت تبحث عن وسائل تافهة للمواجهة, جعلتها في النهاية تتمهظر بالمظهر الحديث, لكن كيفية تعاملها مع المعضلات وتصرفاتها اليومية لاتختلف في شيء عن إنسان مابعد الموحدين, لأنه:"لكل مجتمع خصائصه النفسية والاجتماعية, فالقيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية ليست قابلة للتداول ونظرا لعدم التقيد بهذا الشرط في عملية الاقتباس من الغرب ظهر التقليد الأعمى, وسادت الفوضى في الميادين الفكرية والخلقية, وفي ميادين السياسة"[2].

أما الفئة الثانية فيمثلها أولئك المثقفون الذين تأثروا بالثقافة الغربية وفُتنوا بمنتجاتها وأشيائها الجديدة دون إدراك منهم لطبيعة القيم الثقافية التي أنتجت هذه الأشياء:"فهؤلاء المفكرون يخلطون بين أمرين, الانفتاح الكامل على كل رياح الفكر, وبين تسليم القلعة للمهاجمين كما يفعل الجيش الخائن. هؤلاء الذين مردوا بإدمان على تقليد الآخرين, ليس لديهم أي مفهوم عن ابتكار هذا الغير, ولا عن دوافع الابتكار, عن تكاليفه في جميع المجالات التي يقلدونهم فيها, وكان الأجدر بهم أن يبتكروا هم أنفسهم وفق دوافعهم الخاصة بدل أن يقلدوا"[3], وقد نتج عن حركة الاغتراب هذه:"انفصام الشخصية الثقافية عند هؤلاء بحيث يعيشون في واقع, وأفكارهم مستعارة من واقع آخر, وهذا الاغتراب هو الذي جعل المصير العربي والإسلامي في يد الاستعمار يتصرف فيه كيف يشاء"[4] وهو ما سنحاول تناوله في الفصل الثاني من هذا البحث.

---

[1] مالك ابن نبي : القضايا الكبرى , ص 170

[2] عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي, رؤى, مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل, العدد 20, سنة2003, ص73

[3] مالك ابن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص109

[4] أسعد السحمراني: "مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا", ط2 , دار النفائس , بيروت , 1986, ص124

الـفصـــــل الـثـــانـــي:

المـعوقـات المـوضـوعـيـة:

أ) ــ دور الاستعمار في تلغيم الثورات ومصادرة ثمراتها.

ب) ــ دور الاستعمار في توجيه الممارسة السياسية واحترامها.

ج) ــ الاستعمار وجبهة الصراع الفكري.

أ- دور الاستعمار في تلغيم الثورات ومصادرة ثمراتها:

أ1- دور الاستعمار في مرحلة الثورة:

لما كان السلوك الاستعماري يقوم على الفعل والمبادرة والتكييف مع جميع المستجدات، فإنّه يتعامل مع مختلف الثورات التي تقوم ضد مصالحه وفق خطط إستراتيجية تجعل من النتيجة المُحققة مخالفة تماما لما كان يصبو إليه أصحابها ويهدف، وذلك بالاعتماد على العديد من الطرق ومن بينها "الأخطاء المولَّدة"، أي أنّ الاستعمار يستطيع إدخال مجموعة من العوامل لتغيير مسار الثورة وتوجيهها بعيدا عن هدفها الرئيس، وهو ماحصل للثورة الفلسطينية والثورة الجزائرية حسب اعتقاد بن نبي الذي يقول:" نحن نواجه في المجتمع الإسلامي في عهد مابعد التحضر أخطاء مولَّدة, أي أنَّها أتت إليه من عالم ثقافي آخر، قام بدور المولِّد ولا يُعتبر المندسون في الثورة الفلسطينية أو عبان رمضان في الثورة الجزائرية خطأين نابعين من اطراد الثورتين، وإنّما خطآن أدخلا من الخارج أي خطآن مولَّدان"[1].

كما أنّه قد يُبادر بسرعة مذهلة إلى إطلاق ثورة مضادة تكون مهمتها المحافظة على المصالح الاستعمارية على المدى البعيد، ويكون ذلك من خلال البحث:"في سجلاته عن لائحة باسم عملائه أو خريجي مدارسه فكريا وخلقيا ومسلكيا، لأنه يملك عنهم المعلومات الكافية لكي يعزف لهم اللحن الذي يثيرهم، فيبدأون عملية التخريب من الداخل لتشويه الأفكار والمنجزات الثورية"[2].

إذ لامجال للانفعال ورد الفعل غير المحسوب العواقب في السلوك الاستعماري فما إن يشعر أنّ حركة ثورية بدأت بوادر تكوُنِها تظهر حتى يُسرع إلى خلق ثورة مضادة وإطلاقها, تكون وظيفتها الأساسية استثمار الوضع النفسي والسياسي للجماهير المهيأة من طرف الثوار الحقيقيين, وذلك إمّا للانحراف بالثورة التي تنشأ عن مسارها الحقيقي، وإمّا للمحافظة على المصالح الاستعمارية

---

[1] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص122

[2] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص176 و177

على المدى البعيد من طرف الثوار المزيفين, الذين بادروا بإطلاق ثـورة مـضادة مزيفة, أظهروا من خلالها بطولات مزيفة , يمكن توظيفها مستقبلا للـسيطرة علـى أجهزة الحكم ومختلف المؤسسات الإستراتجية, وبدعم مباشر وغيـر مباشـر مـن الاستعمار الذي قد تضطره الظروف المحيطية لسحب جيوشه مرغما, ولكنه لايهنـأ له بال إلاّ إذا كان تلامذته وعملاؤه هـم الـذين يخلفونـه علـى رأس المراكـز الإستراتجية التي تتحكم في تسيير شؤون الأمة[1], وعن هذا يقول عمر بن قينـة:"إن الاحتلال الفرنسي قد حقق بعض النجاح المذكور إبان وجوده حتـى يـوم رحيلـه المادي في 1962 في صنع أشباه رجال يخدمونه, لكنه حقق نجاحـا أعظـم غيـر منتظر بعد رحيله, بفضل هؤلاء وقد سهر سياسيا واستعماريا قبل رحيله على خطة توزيعهم, وإسناد الأدوار لهم, وزرعهم في الأجهزة الإدارية"[2] لمختلـف القطاعـات المسيرة للدولة.

أمّا إذا تفاجأ الاستعمار بانطلاقة ثورة أصيلة, فإنّه يسعى من يومها الأول إلى وضع مخطط لتفكيكها من الداخل قبل أن يفكر في مواجهتها علنيا, بحيث يُكوِّن ثوره مضادة من داخل الثورة الأصيلة, تَستخدم شعاراتها ووسائلها لتشويه صورتها أمـام الرأي العام المحلي والعالمي أو تُحافظ على سرِّيتها وتُكوِّن نفسها أكثر لتكون بـديلا مهما للتفاوض باسم الثوار الحقيقيين[3].

كما أنّ الاستعمار يدرك مسبقا تركيبتنا النفسية واستجاباتنا الـسلوكية التـي لاتقوم على أساس عقلي, وإنّما هي مجـرد ردود أفعال أقرب إلى الدروشة منها إلى التصرف الإنساني السليم، فهو يدرك مثلا بأنّ صورة الاستعمار مرتبطة في ذهـن المسلم بصورة الشيطان كما يعلم أيضا:"بأنّه حينما يقول الشيطان: اثنان زائد اثنـين يساوي أربعة, فإنّ المسلمين سيقولون ليس هذا صحيحا لأنّ الشيطان قال ذلك"[4].

---

[1] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص122 و123
[2] عمر بن قينة : "المشكلة الثقافية في الجزائر,التفاعلات والنتائج", ط1, دار أسامة, عمان, 2000, ص29 و 30
[3] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص122 و123
[4] المصدر نفسه , ص 123

وبناء على هذه المعطيات المتعلقة بنفسية مسلم مابعد الموحدين فإنّ الاستعمار لايتردد لحظة في البحث عن آليات استخدام الرجل الصادق الذي أعمى بصدقه بصيرة الجماهير فأصبحت أحكامهم لاتخضع لأي منطق صحيح أمام قداسته, فاختيار الاستعمار لممثليه لايكون عشوائيا أو عفويا بل هناك صفات أساسية ومهمة يشترطها في موكليه, فهو كما يحتاج إلى الأذكياء من ذوي الأخلاق الذميمة الذين يكون توكيلهم متوقفا على اتفاق مسبق فهو بحاجة أيضا إلى السذج والأغبياء من الطيبين ذوي الأخلاق الحميدة حتى يوجه سلوكاتهم حيث يريد, ويوظف طيبتهم وأخلاقهم الحسنة لإبعاد الشبهة عن مشاريعه التدميرية.

ومنه فإنّ نشاط الاستعمار:"على الخريطة السياسية يستخدم باستمرار معطيات خريطة نفسية وعلى ذلك فإنّ كل تقنية الأخطاء المولَّدة تعتمد على هذا الذي فصّلناه وتكاد لاتخيب نتائجها في عالم تستند الأفكار فيه على الأشياء والأشخاص كي تسير"[1].

ولا يتوقف دور الاستعمار عند هذا الحد بل يواصل عمله بجد من داخل غرفة العمليات الخاصة بالصراع الفكري وإدارة المعارك بتفوق وعن بعد دون أن يكون ذلك واضحا ومرئيا لأصحاب النوايا الطيبة والنظرة الآنية والسطحية. ويؤكد هذا بن نبي بقوله:"والحاوي الماهر الواقف على المسرح, ليس على المسرح تماما ولكن في غرفة الملقّن حيث يختفي عن الأعين. ليس عليه إلاّ أن يُخرج مزيدا من الخدع في قاعة المشاهدين المكيفة بحالتهم النفسية اتجاهه, ثم يبدأ العرض من شرق العالم الإسلامي إلى غربه, حيث تدعو الضرورة إلى إخراج مشروع ثورة مضادة إلى المسرح في ثوب ثورة"[2].

ويوضح بن نبي للقارئ المتأني تحليله بأمثلة من الواقع القريب للمسلمين فيقول:"والعالم الإسلامي يشتمل على أكثر من انحراف من هذا النوع, فباكستان اقتضى لوجودها انحراف كهذا أي خطأ مولَّد في نفسية الضمير الإسلامي المكيّف

[1] المصدر نفسه , ص 123 و 124
[2] المصدر نفسه , ص124

والمرتهن بالزعيم, والزعيم لايُستخدم لتحريف الطاقات الثورية الآخذة في الحركــة بل إنّه يُستخدم أيضا قاطعا لتيار إيديولوجي موحّد لايتفق مع سياسة التفتيت المطبقة في العالم الإسلامي"[1].

ولا يتوقف الاستعمار عن التربص بمصير الــشعوب الــضعيفة, إذ يُخــضع للمراقبة والتوجيه الزعماء السياسيين الذين استطاعوا من خلال صدقهم وشــجاعتهم أن يكسبوا قلوب الجماهير, فيصبح الزعيم الذي تجسدت في ذاتــه أفكــار الثــورة والتغيير أو النهضة محل اهتمام كبير إذ:"تنصب عليه دراسة الاختصاصيين الدقيقة وذلك لتبين له سائر الثغرات, وعلى تلك الثغرات فإنّ الاستعمار سيضع صــماماته ذات التأثير المزدوج:

1ــ من جهة لمنع إشعاع الفكرة وشخصية الرئيس أن تصلا إلى ضمائر الجماهير
2 ــ وعلى الخصوص لتكون الصورة الحقيقية لعمل الفكرة بمنأى عــن الــرئيس, بحيث لايستطيع أن يتابع سيرهــا الفعلــي ليــضيف إلــى مــسيرتهــا التعــديلات والإصلاحات الضرورية"[2].

ومنه يتبين أنّ المخابر الاستعمارية المختصة تسعى للدراسة والبحــث مــن جهتين متلازمتين, من جهة لرصد نقاط ضعف وأخطاء شــخص الــزعيم وتوجيــه الأضواء الكاشفة نحوها وجعلها مادة دسمة لوسائل الإعلام باسم حرية التعبير وحق المواطن في معرفة الحقيقة, ومن جهة ثانية المحافظة على الظلام والهدوء من خلال إجهاض أي حركة نقدية, وتشجيع ونشر ثقافة المدح والتملق لشخص الزعيم الــذي لاتعرف قراراته الخطأ, ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهكذا يحطم الرئيس ذاته من خلال تصرفاته التي لم يعد قادرا على ضبطها وفق ما يريد الوصول إليه, كما يساهم في تحطيم الفكرة التي تجسدت في ذاته بعــد أن تلصق أخطاؤه بالفكرة المشروع:" والرئيس هكذا يساق إلى تدميره الذاتي عبــر

---

[1] المصدر نفسه , ص124
[2] المصدر نفسه , ص12

آلية يظن أنّه يمسك بزمامها وفي الواقع تمسك بزمامه, هذا التدمير الذاتي ليس دائما ــ ولا غالباــ نهاية جسدية, ولكنّه سقوط سياسي للرئيس يتدرج بطريقــة تنــسحب معها وتفقد الفكرة قيمتها بخطئه حين جسدها في ذاته بأخطائه, أي في الحقيقة نتيجة الأخطاء المولَّدة (erreurs induites) التي أدخلت إلى سياسته بفضل جهــاز الصمامات الذي وضعه الاستعمار كما أشرنا"[1].

وحتى يتحقق كل هذا للاستعمار عليه أن يقضي على كل توجــه نقــدي, لأنّ هذا الأخير هو الجهاز القادر على كشف ملابسات خططه التدميرية, لهذا نرى أنّــه: "لامجال للنقد في الحياة السيــاسية لبلاد العــالم الإسلامي خصوصا حينمــا يكــون المقصود الحفاظ على ثورة مضادة في طريقها إلى التكوين في الظلام الذي لاغنــى عنه لانتشارها أو الحفاظ على أسباب ثورة مضادة تمت فعلا"[2].

أ2-دور الاستعمار في مرحلة ما بعد الاستقلال:

يواصل الاستعمار بعد الاستقلال نشاطه المرتبط بالصراع الفكري لافتضاض الضمائر وترويضها وفق ماخططته مخابره المختصة ليتسلى بردود أفعالنا الانفعالية غير المحسوبة العواقب والتي تستدعي الضحك والبكاء في الوقت نفسه:"إنّ الشيطان يريد أن يتسلى على حسابنا أحيانا, أن يرى كيف ندخل في جحورنا الصغيرة, عند أدنى ضربة جرس أنا لا أقول إنّ لعبته ــ عندما يريد أن يلعب ــ بريئة براءة لعبة الأطفال, كلا بالطبع...فلعبته ذات تكتيك وتقنية, بل أنها سياسة عليا"[3].

وحتى يختلس الاستعمار ثمار النصر العسكري الذي أرغمــه علــى ســحب جيوشه يعزف على وترين مختلفين في ظاهرهما لكنّهما يحققان نفس النتيجة وهمــا وتر التفكك ونشر الرذيلة ومحاربة القيم الأخلاقية العليا, ووتر اللذة المؤقتة الوهمية التي قد تدفع بصاحبها إلى حد السكر والإغماء بمعنى أنّ الاستعمار:"يــضع رجلــه على الدعسة التي توجه الضياع والتفكك والانحلال في الدول النامية, والتي تــؤدي

---

1 المصدر نفسه , ص 126

2 المصدر نفسه , ص 126

3 مالك ابن نبي : "من أجل التغيير", ترجمة بسام بركة, عمر مسقاوي , ط1 , دار الفكر , دمشق, 1995, ص 102.

إلى فسادها وخمولها وتعفنها, وإلى الأمام على هذه الدعسة إنّها موسيقى تسحر حتى البلاهـــة, حتى النشوة, حتى الفنـــاء حتى الحلم, وإلى غيبوبة الـــرادارات العربيـــة صبيحة 5 حزيران. وإذا لم تنسلخ نخبة هذه الأمة ومسؤولوها, وشعبها عـــن ذلـــك السحر فإنّ تلك الموسيقى, وذلك الصوت العليل الرقيق, سيستمران حتى لاتعود كلمة استقلال تعني شيئا على الإطلاق, سوى تلك السخرية الشنيعة التـــي تهـــيمن علـــى مصير أمة فائقة التخلف"[1].

وهذا ما تحقق فعليا في واقعنا بحيث أن:"الاستقلال الذي ظن العالم الإسلامي أنه قد حصل عليه في هذا القرن, ظل استقلالا مفرغا من محتواه ومعناه, وذلك لأن المسلمين جهلوا ما ترتب عليه من مسؤوليات, فإن كان الاستعمار الفكري قد رحـــل بعصاه فقد بقي غزوا فكريا في الصميم حتى غدا هذا الاســـتقلال المزعـــوم خاويـــا عمليا من المضمون, وواقع التخلف الحضاري الذي يحياه العـــالم الإســـلام يفـــوق ضرره وخطره الاستعمار المكشوف ذاته"[2].

نعم هذه هي الحقيقة التي أكدها واقع الشعوب الإسلامية , فقد تمت مـــصادرة استقلالها, واغتيلت ثوراتها, وساد الاقتناع عند بعض ضحايا اللعبة الاستعمارية من أجيال مابعد الاستقلال بأنّ قادة الثورات وصانعي التاريخ العربي المعاصر ساهموا في تخلف الأمة ومراوحتها مكانها بسبب مواجهة المستعمر وإخراجه مـــن الـــبلاد, متجاهلين أنّ وظيفة الاستعمار في البلاد المستعمرة, هـــي اســـتعباد أهلهـــا ولـــيس تحضيرهم وهو ما يبين أن:" لعبة الصراع الفكري لم تنته بإنزال الستار عن حقبـــة الاستعمار المباشر, أو توقفت ولا حتى اعتراها الضعف والركود فلازالـــت تنـــشط وتدار من مؤسسات عالية المستوى, ومن خبراء اختصاصيين من أصحاب العلـــوم الاجتماعية"[3].

---

[1] المصدر نفسه , ص: 102.
[2] سليمان الخطيب: "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر", ط1, المعهد العالمي للفكر الإسلامي, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, بيروت,1993, ص260
[3] زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص93

ولمّا كان الاستعمار يدرك صعوبة تعميم القـوانين والأحكـام فيمـا يتعلـق بالظواهر الإنسانية والاجتمـاعية, راح ينوع الخطط التدميريـة حـسب طبيعـة المتغيرات الجغرافية والبشرية ف:"هذه الدعسة لا تضرب على وتر واحد, بل إنّهـا تعطي سُلَّما كاملا من النغم, فلكلٍ معزوفتـه الخاصـة, حـسب مزاجـه ووضـعه الجغرافي وحسب الظروف الدولية"[1].

وقواعد اللعبة الاستعمارية لاتسمح لأي كان أن يُشوش على الاستعمار ويفسد عليه لعبته المسلية على حساب صبيانية أبناء العالم العربي والإسلامي: "ولكن إذا كانت حكومة ما, أو نخبة ما أو شعب ما, أو شخصية فريدة ما, أو إنسان ما كمصدق, إذ كان من الجرأة والصلف حيث يعكر حلم هؤلاء وكابوس أولئك, ماذا يجرى عندئذ في قاعة الاستماع ؟. فيما يتعلق بمصدق, أنتم تعلمون ما جرى"[2].

ويوظف الاستعمار قوته المادية لحماية مخططاته التدميرية وإرغام الجميع على السير وفق ما رسم من خطط مسبقا وكل من يرفض الانضمام إلى القطيع إمّا باسم المبدأ, أو الأخلاق أو العزة أو غيرها من المبررات له لغته الخاصة التي يُخاطَب بها, وفي هذا يقول بن نبي على لسان الاستعمار: "آه هكذا إذن أنتم لم تعودوا تريدون أن تبقوا في ذلك الفساد !! ولا ذلك المستنقع الآسن!! ولا النيرفانا والتام تام!! أنتم تريدون على حد قولكم الطهارة !! والاستقامة!! والنظام! والحركة ! والعمل! إذن انتظروا, ويضع الموسيقي الماهر رجله على الدعسة الأخرى. لهذا التغيير دلالة ! إنّه سلم نغم التهديد والوعيد والابتزاز"[3] .

وهذه هي لغة عصابة الأشرار التي تسيطر على العالم اليوم, وتوظف قاعدة "مبدأ الثالث المرفوع" "من ليس معنا فهو ضدنا" ليسود الرعب أرجاء العالم شعوبا وحكومات ويُطل علينا زعيم العصابة عبر الفضائيات ليقول لنا: "تعفّنوا بهدوء ! لا تسمعونا أصواتكم, لا احتجاجاتكم, في القاعدة التي تصدح فيها موسيقى النيرفانا,

---

[1] مالك بن نبي: من أجل التغيير, ص103

[2] المصدر نفسه ,ص 103

[3] المصدر نفسه, ص 103

والتام تام, والأحلام والكوابيس, وعلى حكومتكم أن لاتزعج النّاس الذين يتمتعون بالحياة النّاعمة في الداخل والخارج, ببضع مشاريع تُحسِّن بها الجو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ولتغمد إرادتها الضعيفة في جيبها, أو في رأسها أو حيث تشاء"[1].

ثم يواصل الاستعمار شرح خطابه ميدانيا بالهجوم على أفغانستان واحتلال العراق, ومعاقبة الشعب الفلسطيني على اختياره الديمقراطي, وإرسال رسائل تهديد مشفرة بين الحين والآخر لباقي الحكومات المستضعفة, وهذا ما أشار إليه بن نبي قبل قرن من اليوم في قوله:"هذا ماتعنيه لعبة الدعسة الجديدة, بالطبع, إذا أصررتم, وإذا أرادت حكومتكم أن تدخل مرحلة التنفيذ, عندها يمكن للموسيقي الماهر الذي يدوس على هذه الدعسة أن ينتقل إلى نوتة النابالم, وإلى سلم مشاكل على الحدود"[2], وتثوير الأقليات العرقية والطائفية وإمدادها بالدعم المادي والمعنوي, أو حتى السعي إلى إخراج الجماهير إلى الشارع للمطالبة بالتغيير والعدالة الاجتماعية, وما ذلك بالأمر الصعب على من كان يمتلك قاعدة معطيات كافية حول الأرضية التي تدور فوقها معركة الصراع.

وهذا مايدفع للتأكيد أن:"الاستعمار مثَّل الوجه البشع في تاريخ الإنسانية, وهو أكبر عملية تدمير منظمة تعرض لها العالم الإسلامي, ولازالت أثاره عميقة في المجتمعات الإسلامية, ومثَّل أكبر انعطافة تدميرية في تاريخ الأمة الإسلامية الحديثة"[3].

ولعّل من أسباب الهوة المعرفية الواسعة بيننا وبين الاستعمار في مجال الصراع الفكري على وجه الخصوص هو أنّه:"عند الاستعمار معلومات عنّا أكثر بكثير مما عندنا عنه, إنّه يكيف بكل بساطة موسيقاه وفقا لانفعالاتنا ولعقدنا ولنفسيتنا, إنّه يعرف مثلا أنّنا اتجاهه لا نفعل وإنّما ننفعل, وهو عندما يكون قد دخل مرحلة

---

1 المصدر نفسه , ص 10

2 المصدر نفسه , ص104

3 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص87

التفكير في مشاكل الغد في الحفر الموحلة التي يريد أن يوقعنا فيها, نكون نحن لانزال نفكر في مشاكل الأمس في التخلص من الحفر الموحلة التي أوقعنا فيها فعلا"[1].

وما يؤسف له هو أنّنا :"لا نعرف شيئا عن الخاصية القوية للصراع الفكري الذي يطلقه الاستعمار في البلاد التي خرج منها, بعد أن استعمرها"[2]. ونعتقد أنّ كل ما يهم الاستعمار هو السيطرة على مواردنا الطاقوية وغزونا اقتصاديا من خلال إغراق أسواقنا بمنتجاته وسلعه, من أجل الوقوف في وجه حركتنا النهضوية التعميرية :"ولكنّ ينبغي أن نضيف بأنّ مناورات الاستعمار للانتقاص من أفكارنا أعني افتقادها فعاليتها في البناء الاجتماعي هي الأكثر خداعا, وأنّ نعترف في الوقت نفسه بأنّه لايوجد في بلادنا أية وقاية تمنع هذه المناورات من النجاح, بل العكس هو الصحيح"[3], وهذا ما وقع فعلا بعد الاستقلال حيث أنّ الاستعمار الذي طرد من الباب عاد من النافذة الفكرية وبقوة استطاع من خلالها توجيه مختلف المعارك لصالحه والسيطرة على مختلف المواقع الإستراتيجية التي يُرَاهن عليها لإخراج الأمة من تخلفها ولأنه:"يدرك خطورة عملية البناء الحضاري الجاد على نفوذه, فإنه يحاول سواء في مرحلة التحرير أو مرحلة البناء إشغال أبناء المجتمع الساعي للحرية والتقدم عن الهدف وإلهائهم في أمور لا تجدي"[4].

بل إنّ المتأمل المدقق والمحلل الناقد يجد أنّ بصمات الاستعمار موجودة في مختلف الأزمات التي تظهر هنا وهناك في العالم العربي والإسلامي بل إنّها ظاهرة في مختلف المشاريع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي قد تعلق عليها الشعوب أملا في إخراجها من سجن التخلف, فهذه البصمات تظهر إمّا في شكل استفادة الاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من هذه المشاريع, كما قد تظهر في ذلك الجهد التخريبي والتدميري لمشاريع أصحاب النوايا الصادقة والجادة ف:

---

1 مالك بن نبي: من أجل التغيير, ص 105
2 المصدر نفسه , ص 15
3 المصدر نفسه , ص 16
4 أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا, ص167 و168

"الاستقلال إذن ليس إخراج الجيوش, وتحديد يوم يكون ذكرى أو عيد للاستقلال, وليس تكليف لجنة حقوقيين بصياغة دستور للبلاد, الاستقلال أعمق من ذلك وأبعد أفقا, فهو صنع جديد للتاريخ, ونسف لكل المخلفات السلبية للاستعمار, وهجر لنوعية العلاقات الاجتماعية التي روج لها وشجعها خدمة لاستمرارية وجوده"[1].

وهذا مما يدفعنا إلى الاستنتاج أنّ معركتنا مع الاستعمار في المجال الفكري أقسى وأصعب بكثير من تلك المعارك المسلحة التي قادها الرواد الأوائل من زعماء الحركات الثورية والتحررية خلال القرن الماضي باعتبار أنّ المعارك الفكرية أكثر تعقيدا وتتطلب جهدا متكاملا من طرف جميع أبناء الأمة من دون استثناء مع التزود بسلاحي البصيرة والصبر لأنّ من طبيعتها أنّها لا تحسم بنصر كامل ونهائي لصالح أي طرف.

[1] المرجع نفسه , ص166

ب ــ دور الاستعمار في توجيه الممارسة السياسية واحتوائها:

نظرا لما للجانب السياسي من دور مهم في نهضة الشعوب والأمم, فإن الاستعمار لم يُغفل ذلك, بل ركــز جهودا مهمة ورصد إمكــانات كبيرة للسيطرة على الحياة السيــاسية للشعوب المستضعفة, مستثمرا في ذلك مختلف النظريــات العلمية التي أنتجتها مخابره المختصة في هذا المجال, فعمل كل ما في وسعه لاستبدال السياسة التي تقوم على الأفكار المجردة بالسياسة التي تقوم على الأفكار المجسدة في ذات شخص الزعيم, أو الجمــاعة أو الحــزب, وذلك لما تشكله السياسة التي تقوم على الأفكار المجردة من خطورة على مصالحه كما يعتقد, وتجعله عاجزا عن السيطرة على الإمساك بزمام الأمور والتوجيه وفق ما يرغب.

وذلك لأنّ الأفكار المجردة يسهل انتشارها وتوسعها, ويتم اعتناقها بسرعة, ولا يمكن لأي كان أن يتحكم فيها أو يغير مسارها فهي تدافع عن نفسها كل الأخطار المحدقة بها ف:"كل حركة من حركاتها تتطلب كأي عملية حسابية, تعقيبا على نتيجتها, وتصحيحا تابعا لها, فإنّ السياسة المقعدة تراجع دائما نتائجها, هذه المراجعة تحميها من تدخل أي عامل أجنبي يحاول تغيير مجراها ومرساها لأنّها تُكون جهازا معدِّلا يُطلق إشارة الخطر كلما حدث في الطريق أي حدث من شأنه أن يغير في الحركة وفي الاتجاه"[1].

ولأجل تجاوز هذه المشكلة يسعى الاستعمار إلى تشجيع السياسة التي تقوم على أساس الأفكار المجسدة, إذ تحل الفكرة المجردة في ذات:"شخص لتنشئ صورة سياسية خاصة, وهذا بحكم شذوذها عن مقاييس العقل, تتشبث بفرد تتجسد في ذاته فتتطور وتتمو, وتنتظم طبقا لمصالحه الشخصية انتظاما تصبح معه هذه المصالح تلقائيا هي المسوغات والدوافع والمقاييس لسياسة عاطفية, وقد يحدث أن يتنحى الفرد

---

[1] مالك ابن نبي:" الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " , بإشراف : ندوة مالك ابن نبي , ط3 , دار الفكر , دمشق , 1988 , ص 24

الذي يجسد هذه السياسة فيحل محله كائن مركب, أو بعبارة أدق مركب أفراد يجمع بينّهم اتصال عضوي, مثل مايسمى في الطب التوائم السيامية"[1].

أي أنّ صلاحيات توجيه الحياة السياسية قد تتجمع لدى شخص وحيد, إمَّا لِما يتصف به من مؤهلات ذاتية, وإمَّا أنّه حُضِّر ليكون كذلك, والاستعمار يمتلك قدرة كبيرة على إخراج مسرحيات سياسية يصنع من خلالها الزعماء والأبطال, وفي كلتا الحالتين يكون الأمر مفيدا للاستعمار, لأنّه يمكن التأثير على قرارات شخص الزعيم وتوجيهه إلى حيث يريد الاستعمار, وذلك إمّا بإرادته, وإمّا عن جهل منه, وإمّا مرغما, فكلها احتمالات تؤدي نتائجها إلى نفس الهدف, وهو تعطيل مسار الأمة وإبعادها عن الاتجاه الصحيح الذي يجب أن تسير فيه أي أمة تريد النهوض.

كما قد يُستبدل شخص الزعيم بمركب أفراد وهم أشبه ما يكون بالتوائم التي تولد ملتصقة بعضها ببعض لاشتراكها في عضو من الأعضاء, والعضو المشترك بين هذه الكائنات السياسية هو الجهاز الهضمي, و يبيِّن بن نبي هذا بقوله: "وقد يحدث أن يكون هذا الاتصال بواسطة جهاز هضم مشترك فيصبح الكائن المركب بذلك قائما على تضامن هضمي, فكل مايمر بحنجرة فرد من الأفراد المركبين يدخل في عملية هضم مشتركة, وتصبح القضية ــ كما يقال في العرف السياسي ــ قضية هضم, ولا بأس أن يكون في الرؤوس المتصلة بالجهاز الهضمي أفكار مختلفة شريطة ألاّ يُعطل ذلك الاختلاف عملية الهضم, وإلاّ تخلص مركب الأفراد من الرأس الذي يحمل فكرة مشوشة, وفصله عن الجهاز الهضمي"[2].

وهكذا يصبح التحالف قائما على أساس المصلحة المادية الخالصة فيجد كل فرد من أفراد التحالف نفسه ــ مهما كانت قناعاته ــ مضطرا تحت تأثير الشهوات الهضمية للسكوت عن أي انحراف يهدد مصير الأمة لأنّ أي احتجاج أو معارضة ستحرمه من نعم السلطة التي قد لاتحصى , وللاستعمار يد طولى في تركيب هذا الجهاز انطلاقا مما يمتلك من معطيات عن الخريطة النفسية للشعوب المستعمرة

[1] المصدر نفسه , ص25 و 24
[2] المصدر نفسه , ص25

فهو:"جهاز يعمل طبقا لآلية نفسية غير معقدة, تدفعه إلى الحركة دوافع عاطفية وتوجهه العوامل التي تتحكم فيه لسياسة عاطفية, وهي عوامل تمثلها في مستوى معين مصالح خاصة والاستعمار يعلم كل شيء عن آلية تلك المصالح التي تعبر في النهاية عن ردود أفعال لجهاز هضم"[1], وفي مثل هذه الحال يجد الصراع الفكري:"إطاره الأوسع في البلاد المحكومة بشبكة من الإيحاءات تدلي بها مراصد الاستعمار لتصنع متقلب الأحداث وسوء منقلبها حيال نهضة فاعلة في عالمنا العربي الإسلامي"[2].

وحينها يصبح الاستعمار متحكما فعليا في السياسات التي تقوم على الأفكار المجسدة وقادرا على توجيهها حيث يريد, وهذا مايفسر شجاعة الحكام العرب وحرصهم على المصالح العليا للأمة حينما يتعلق الأمر بقمع شعوبهم, وفي المقابل عجزهم وجبنهم وخوفهم حتى من إصدار بيان تنديد يسمون فيه الأشياء بأسمائها ومسمياتها حينما يتعلق الأمر بالممارسات الوحشية التي يقوم بها الأعداء ضد أبناء الأمة هنا وهناك. وحينما تكون دوافع السياسة:" ناشئة عن آلية هضم, فإنّ الاستعمار يستطيع أن يتصرف في رغبات ذلك الجهاز, أي في شهوات مركب الأفراد لتبقى البلاد المستعمرة تحت تصرفه سياسيا واقتصاديا"[3].

ويعود سر نجاح الاستعمار في احتواء واختراق السياسة العربية إلى استغلاله ذلك الميل والنزوع إلى السهولة التي تميز نفسية مسلم مابعد الموحدين:" فحينما تُخَطَط السياسة طبقا لمبدأ السهولة , فإنّها سوف تجتذب إلى تيارها كثيرا من النّاس ذوي النوايا الطيبة, الذين يُقدِّرون الأشياء بناء على سهولات الحاضر, لا على صعوبات المستقبل, وإذا ما قدرنا أنّه يُضاف شيء من الإغراء إلى هذه الجاذبية الطبيعية فإننا سوف نتصور حتمية الانزلاق إلى وحل السهولات المغرية, وهذا الشيء موجود بالفعل, إذ أنّ طريق السهولة تؤدي حتما إلى سياسة هضمية تلبي

---

1 المصدر نفسه , ص 25

2 عبود العسكري: مشكلات الحضارة بين ابن خلدون وابن نبي , مجلة رؤى, ص56

3 مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة , ص26

وتغذي الشهوات"[1]. ولمّا كانت نفسية مابعد الموحدين تقوم على الميل إلى السهولة والانفعالية, أي قيام سلوكاتها على أساس عاطفي, فإنّ الاستعمار لا يُفرط في استثمار هذه الأرضية الملائمة ف:" يستغل هذه الاستعدادات ويقرن أسبابها النفسية بخطط تربوية مناسبة في البلاد المستعمرة لأنّها ليست في ثقافتها الموروثة عن عهد انحطاط ما يقاوم أسباب الانحراف في نفسية شعوبها فيصل إلى أن يضع بتلك الاستعدادات سياسة(عاطفية ــ شهوانية) تتفق مع مصالحه, فهو يضعها حينما يربط عواطف الشعب الطيبة بشهوات مركب أفراد معين"[2]. فنجده يشجع قيام الجماهير بردود الأفعال التي تقوم على الحماسة والعاطفة, إمّا من خلال تثويرها بالخطب النارية ليفترق الجمع بعدها وكأنّ مشاكل الأمة كلّها قد حلت. أومن خلال استفزازها بمنبهات ومثيرات قوية, تدفعها إلى الغضب والثورة العفوية والعشوائية حتى يدفعها لإفراغ كل طاقاتها في غير المكان المناسب, وفي مقابل ذلك يشتري ذمم الزعماء والقادة, وهذا ما يؤكده بن نبي:"وهنا تواجهنا مشكلتان, ولكنّ مشكلة العوامل النفسية والإيحاءات هي الأهم في نظرنا, لأنّ تلك العوامل تحرك الملايين من الجماهير الطيبة, بينما لا تحرك النقود سوى أفراد أُعدت ضمائرهم على صورة صندوق الصدقات الذي توضع فيه النقود"[3].

وكل ما يهم الاستعمار أمام هذا هو أنّ يسود الهدوء ويشتد الظلام الدامس من أجل إبقاء:"الرأي العـــام في قيود لا تراها إلاّ عين بصيرة, وحتى يبقى الفكر في أغلال مايسمى (الواقعية) وهي جحود الواقع, وحتى تبقى السياسة سوقا تشتري فيه الضمائر, ويبقى النشاط الاجتماعي معطلا بسبب شروط سلبية تفرضها إدارة خفية على حياتنا, ويجعلها من له بها صلة في بلادنا مبررات فشلنا "[4].

وحتى تواصل الجماهير جريها وراء السراب دون أن تشعر بطول الانتظار أو اليأس نجد الاستعمار:" يُخرج من شنطته آلات أكثر تعقيدا... تلفظ بخطب

---

[1] المصدر نفسه , ص 27
[2] المصدر نفسه , ص27
[3] المصدر نفسه , ص69
[4] مالك ابن نبي : في مهب المعركة , ص13

وطنية, تقدم هذه الآلات للجماهير المنخدعة , كي تلهيها وتمسكها بعيدا عن ساحة الواجبات والعمل تُقدم في صورة أوثان مزينة مجهزة لتأخذ الأبصار وتذهل الألباب"[1].

ونظرا لما تعرفه المجتمعات من تطورات تلقائية ناتجة عن تأثير المتغيرات المحيطية فإنّ الاستعمار يجد أنّ لغة الصعاليك لم تعد قادرة على إيصال رسائله حينها:" يلجأ [أيضا] إلى شنطته فيخرج منها أَرَضَة قد امتلأ بطنها من غبار تاريخ عصر مابعد الموحدين, عصر الانحطاط, لقد امتلأت من هذا الانحطاط وأصبحت تلقي منه جشأ تكتبه أو تقوله إننا نرى هذه الأرَضة تحت ملامح الطالب الجاد, نراها جادة في الانحطاط على مدرج كلية جاد في تحضير مؤهلات "النائب الحر" وقد يكتفي للحصول على هذه المؤهلات أن يكون للطالب قلم حسن أو بوق جيد في التعبير عن رغبات الاستعمار وأفكاره"[2].

أمّا عن الآلية التي يُمَكِن الاستعمار من خلالها عملاءه من السيطرة على قلوب الجماهير وعقولها, فتتمثل في استغلال الحقد الذي تُكنُّه للاستعمار, فيقوم بتقديم الطعم المناسب لهذه النفسية من خلال تبني الخطابات الأكثر تشددا وتطرفا والتي لا تترك مناسبة تمرّ إلاّ وتتهجم على الاستعمار وتصفه بأبشع الصور, وهكذا تنقاد الجماهير تحت تأثير الخطب النّارية. فتُنَصِّب ــ بناء على ذلك ــ العميل زعيما, لأنّها ترى فيه نموذج الشخص المقدام والشجاع والمعبرعن تطلعاتها, وتتجاهل نصائح الموجهين الصادقين والمخلصين من ذوي الخبرة والبصيرة ,هذا إن لم تتهمهم بالجبن تارة, وبالخيانة والعمالة تارة أخرى, كما قد تحكم عليهم بالإعدام ... وقد نبه بن نبي إلى هذا من خلال قوله:"إنّ كلمة استعمار هي أخطر سلاح يستخدمه الاستعمار, وأحكم فخ يُنصِّبه للجماهير, وما من خائن يدسه الاستعمار في الجبهة التي تكافح فيها الشعوب المستعمَرة إلاّ وكلمة استعمار هي التي تفتح له أبوابا مغلقة في عواطف الجماهير وبهذا وبغيره من الشعارات المثيرة, يتمكن الاستعمار

---

[1] المصدر نفسه , ص 78

[2] المصدر نفسه , ص 79.

من وضع الطابع البدائي على سياسة البلاد المستعمرة, ليقرر لنفسه بذلك انتصارات الحاضر والمستقبل"[1].

وحتى يكون جهد الاستعمار مثمرا فإنّه يحافظ على سمعة عملائه ولا يتورط في بيان أنّ سلوكاتهم تصب في نفس الاتجاه الذي يريده فهو:" يحسب حسابا لكل أعماله وأقواله, حتى لا ينفك الاتصال بين مصالح مركب الأفراد, وبين انفعالات الشعب, أي بين شهوات البطون المؤثرة, وبين الأوضاع العاطفية الواقعة تحت تأثيرها والمحافظة على هذا الاتصال هو الشرط الأساسي في خطة الاستعمار الإستراتيجية التي تقتضي في حالة التطبيق:

أولا: أن يضرب الاستعمار كل قوة مناهضة له, تحت أي راية تجمعت.

ثانيا: أن يحول كل الظروف بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية"[2].

ورغم كل هذه الجهود التي يقوم بها الاستعمار لإخفاء بصماته إلاّ أنّ الملاحظة البسيطة تؤكد وجود مجالات اتفاق كبيرة بين السياسة التي تقوم على أساس هضمي وبين المصالح الإستراتيجية للاستعمار.

وحتى نكون موضوعيين يجب التأكيد على أنّ هذا الاتفاق ليس دائما ناتج عن العمالة, فقد يكون نتاج الغفلة والميل إلى السهولة وسيطرة النزعة الآنية, أو التفسير السطحي والتجزيئي للأحداث, وهي كلها من صفات مسلم مابعد الموحدين, وقد يكون هذا الاتفاق مقصودا ونتاج عمالة واضحة, فلا نعتقد أنّ حاكم العراق اليوم مثلا يجهل علاقته بالاستعمار, ودوره فيما سيلحق بالأمة من نوائب مستقبلا[3].

ولمّا كان السلوك الإنساني لايخضع لقانون صارم لتميزه بخاصية الإرادة وروح المبادرة والإبداع, فإنّ الاستعمار لا يفارقه القلق على مصير مخططاته لأنّ عامل المفاجأة يظل قائما بالنسبة إليه ف:"على الرغم من هذه الدقة وهذا الإتقان في

---

1 مالك ابن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة , ص28

2 المصدر نفسه , ص 29

3 المصدر نفسه , ص 31

صنع الآلات الهاضمة التي يحاول الاستعمار أن يجعل منها أجهزة الحكم في البلاد المستعمرة, قد يجد نفسه أمام واقع, تحدث إشارة خطر مفاجئة تفاجئه على الرغم من احتياطاته وتوقعاته كلّها, وعلى الرغم من شركائه الذين يشاركونه الأمر بحكم الإغراء أو بحكم البلادة "[1].

ولحظة الخطر بالنسبة للاستعمار حينما يضع المستعمَر قطار نهضته على سكة الحضارة ويوجهه في الاتجاه الصحيح, وذلك من خلال أخذه بالأفكار الفاعلة وممارسة السياسة من باب الواجبات و في هذا يقول بن نبي: "إنّ إشارة الخطر حينما تطلق, توشك أنّ توقظ شعبا مرهق الأعصاب جسيم الآلام مستوليا عليه الغضب, كأنّما المنديل الأحمر جعله في حالة شبه تنويمه, فإنّ إشارة الخطر التي انطلقت فجأة قد تذكره بحقه بل بواجبه في فرض رقابته على السياسة المتبعة في بلاده وفي أن يطلب كشف الحسابات ومراجعتها وهذا هو الخطر الأكبر على الاستعمار, حينما يرى الشعب المستعمَر يتولى بنفسه الحياة السياسية"[2]. إنّه يلجأ في هذه الحالات إلى:" طريقة التجميد التي تطبق في جبهة القتال لتجميد قوات العدو عند نقطة معينة "[3]. وذلك من خلال استخدام المنديل الأحمر والأضواء الموجهة, بحيث أنّه يلوح بالمنديل الأحمر, أي أنّه يقوم بسلوكات استفزازية تثير غضب الثور الهائج من خلال تلويحه بالمنديل الأحمر, ويوجه الأضواء الكاشفة إلى هذا الركن من المسرح السياسي لتصبح هذه الاستفزازات هي الشغل الشاغل للجماهير وتبقى الفكرة الفعالة "إشارة الخطر", في الركن المقابل الذي يغمره الظلام فتُعزل هناك مع كل من دخل المعركة تحت رايتها[4]. و لعل الإساءات المتكررة اليوم هنا وهناك لمقدسات الأمة, تمثل شرحا واضحا لما كان يقصده بن نبي من حديثه عن هذه الطريقة, فالجماهير تتفاعل وتثور وتنفعل مع مسرحيات معينة من إخراج مخابر الصراع الفكري. ويقابل ذلك هدوء تام أثناء تمرير أخطر المشاريع المضرة بمصلحة الأمة.

---

[1] المصدر نفسه , ص 31

[2] المصدر نفسه , ص 32

[3] المصدر نفسه , ص29

[4] المصدر نفسه, ص31

ج ـ الاستعمار وجبهة الصراع الفكري:

ج1ـ حرب الاستعمار على الأفكار:

ما إن توصل الإنسان إلى اختراع السلاح الذري ـ الذي يبقى من دون شك سلاحا ردعيا ـ حتى أصبح قيام حرب كونية ثالثة أمرا مستبعدا تماما لما يشكله هذا السلاح الفتاك من خطر على الجميع ودون استثناء, حينها اقتنعت الدول الاستعمارية الكبرى أن القوة العسكرية لم تعد سلاحا أساسيا ووحيدا لتفكيك قدرات الخصم, فوجهت مختلف جهودها إلى جبهة الصراع الفكري, هذه الجبهة التي تدور معركتها في منطقة الظل وكأنّها بين الأشباح, فهي لا تظهر للعيان إلاّ من خلال نتائجها.

ويعرِّف عبد اللطيف عبادة الصراع الفكري بأنه:"وسيلة أو نسق من الوسائل يستعملها شعب أو مجموعة من الشعوب للحط من قيمة أفكار الخصم أو لإبطال مفعولها أو لتحويلها عن الهدف المنشود أو لتعفينها أو شلها أو لإدماجها أو لعزلها عن الجمهور عزلا تاما أو جزئيا, وليس الصراع بأية حال من الأحوال معزولا عن الصراعات الواقعية التي تظهر في الحياة اليومية للناس"[1].

ولما كان تطور أي أمة أو مجتمع متوقفا على طبيعة علاقته بعالم الأفكار, فإنّ الاستعمار سخر إمكانيات كبيرة بهدف إعاقة الحركة الفكرية في البلاد العربية والإسلامية وتشويهها, منطلقا من رصد أي حركة فكرية فعالة حتى ولو لم تكن مرئية, وتوظيف مختلف النظريات المناسبة للقضاء عليها في المهد وعن هذا يقول بن نبي:"حين بنبع عقل واع [أي ذكي], فإنّ الاستعمار يحاول بوسائل شتى تحطيمه, فإذا بدا عصيا عنيدا حطم أسرته ليشل نشاطه, وهكذا يعوق الحياة الفكرية في البلاد فيعوق تطورها"[2], فهو في مثل هذه الحال يعمل على تحطيمه من خلال الإغراءات المختلفة ليجعل منه عميلا أو بالأحرى بوقا يمرر من خلاله مختلف مشاريعه وأفكاره التدميرية, وإن لم يتحقق له ذلك:"فإنه ينتقل إلى أسلوب ثان هو

---

[1] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي, ص106

[2] مالك ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص115

تأليب الشعب عليه, وإثارة الإشاعات حوله عبر بعض الأبواق المأجورة, بتصويره أنه ضد أهداف مجتمعه وبالتالي يجب التخلص منه, ومن خطره بشتى الوسائل, هذا هو سلوكه ضد كل داعية للتحرر عامل له, وضد كل من يرفض أن يتظلل تحت راية المشروعات التي تحقق توسع السيطرة والنفوذ الأجنبيين"[1].

وهكذا فإنّ ذلك النزوع والميل إلى الشيئية ــ الذي سبق وأن ذكرناه في الفصل الأول من هذا البحث ــ عند مسلم ما بعد الموحدين, والجهل التام بالقيمة الاجتماعية للأفكار, يقابله سعي كبير عند الاستعمار للمحافظة على هذا الوضع حتى نكون بالنسبة إليه سوقا مربحة تستهلك مختلف منتجاته وأشيائه بما فيها التافه والمستعمل والمنتهية مدة صلاحيته, وحتى يستمر هذا الوضع الذي يخدم مصالحه الإستراتيجية فهو لا يرضى أن تكون سلوكاتنا مرتبطة بعالم الأفكار الحية لأنّه يحتكرها لنفسه: "ولكنّه لكي يحافظ على احتكاره للأفكار, قد مكّن على وجه الدقة في العالم: لجهاز كامل من المَراقِب التي تستكشف الأفكار وتتبع تحركاتها بإهتمام بالغ, واهتمامه بها اهتمام علمي محض, لأنّ الأمر ينحصر بالنسبة إليه في حماية ذلك الاحتكار لنفسه, وهذا يؤول عمليا إلى صياغة فنية وإستراتيجية خاصة ليس لدى العالم الإسلامي أي فكرة عنها"[2].

وتسخير الاستعمار لإمكانيات مادية كبيرة وقدرات بشرية ذات تكوين عال ومتخصص ليست من قبيل التسلية أو الترف الفكري, أو البحث عن حقيقة معرفية لخدمة الإنسانية, بل هي ذات أبعـــاد حضارية تهدف إلى المحـــافظة على مركزية الحضارة الغربية واستبعاد باقي الشعوب, وإحكام القبضة عليها حتى تبقى دائما تابعة لها في جميع مجالات الحياة, فالاستعمار:"لايقتنع بمجرد الاستعلام عن حركة الأفكار, فهذا شأن الفيلسوف إلاّ أنّ للاستعمار فلسفته الخاصة التي تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه, وفي الانحراف بها عن مراميها, بتوجيهها خارج

---

[1] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا, ص127
[2] مالك ابن نبي: فكرة كمنويليث إسلامي , ص55

المدار الذي أراد أصحابها استقاءها فيه. كيف يتخلص من فكرة معينة؟ كيف ينحرف بها ويوجهها خارج مدارها؟...ها هنا تتجلى عبقرية الاستعمار الجهنّمية"[1].

فما إن تطرح مبادرات سياسية, أو مشاريع فكرية لمعالجة المشكلات والتحديات التي تواجهها الأمة العربية والإسلامية حتى تكون مخابر الاستعمار المختصة, لها بالمرصاد, وذلك من خلال الاهتمام بها ودراستها أولا ثمّ طرحها بصورة مشوهة أو توجيهها إلى غير هدفها بمعنى تحييدها عمّا خططه أصحابها, وقد لفت بن نبي انتباهنا إلى هذا بقوله:" يجب أن نقرر مبدئيا هذه القاعدة العامة, ألا وهي أنّه عندما يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم, فإنّ هذه المشكلة تكون قد طُرحت أو ستطرح عاجلا في أوساط المتخصصين في الدراسات لحساب وتحت إشراف الاستعمار"[2].

وبعد الدراسة النظرية لهذه المبادرات أو المشاريع يتقرر العمل الميداني إمّا من خلال تقزيمها والتقليل من شأنها إذا تبيَّن أنّها حلول ناجعة, في حين إذا تبين أنّها خاطئة فإنّ جهدهم سينصب على تضخيمها والترويج لها ف:" كلما يتقدم هذا المفكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة يسرع من طرفهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل, فإن كان خاطئا زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو بأخرى, وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه وتخفيض قيمته حتى لايفيد"[3].

فوظيفة هذه المراصد المختصة تتمثل في دراسة حركة الأفكار واعتراض طريقها ومنعها من الوصول إلى عقول الجماهير, فإما أنّها تتلاشى وتختفي في الطريق تحت أقدام المتظاهرين غضبا أو فرحا على حد سواء, كما لا يسمع لصوتها صدى في وسط ضجيج المسيرات, أو الملاعب, أو الجدل العقيم حول مشكلات قديمة مرتبطة بعصرها, وإن كان ولابد أنّها تصل فإنّه يتم شحنها بشوائب تؤدي إلى

[1] المصدر نفسه , ص55
[2] مالك ابن نبي: القضايا الكبرى , ص173
[3] المصدر نفسه , ص 174

انفجارها قبل تحقيق الهدف منها أو تؤدي إلى تعفينها مما يفقدها الصلاحية ف:"راصد الفكر في العالم الغربي يرصد كل كبيرة وصغيرة في عالم الفكر في البلدان المستعمرة بداء من مقال في صحيفة محلية وانتهاء بمراكز الأبحاث, فتدعم ما يحقق مصالحها بقصد أو بدون قصد وتلمعه وتروجه, وتعتم وتبعد عن دائرة الضوء كل فكرة أو رأي يهدد مصالحها"[1].

وسر هذه القدرة الفائقة على تحطيم الأفكار هو أنّ عيون أساتذة الصراع الفكري لا تعرف النوم ف:"كلما لاحت في العالم الإسلامي أي بادرة ذات مغزى ولو كانت لا تبصرها أعيننا, فإنّ مجهر أولئك الأخصائيين يلتقطها على الفور ليجري عليها كل طرق التحليل, وإذا وجدوا فيها أي اتصال بحركة الأفكار في العالم الإسلامي, تجري عليها كل عمليات التشريح وتمر بكل أصناف التقطير, حتى يبقى في محتواها الاجتماعي أقل ما يمكن من عوامل التيسير لصلاحيتها, أو أكثر مايمكن من عوامل التعسير وانتفاء الصلاحية"[2].

ومؤسسة الاستشراق من بين مؤسسات الاستعمار الرسمية التي تقوم بهذا العمل لحساب الحضارة الغربية[3], وعلى حساب شعوب مستضعفة وحضارات أخرى تسعى للمحافظة على بقائها, ف:"الاستشراق له ارتباط بكثير من حقول المعرفة التي أنشأها الغرب خصوصا لتوجيه الشعوب إلى خدمة أهداف العالم الغربي والحضارة الغربية, وتحقيق بسط الهيمنة والنفوذ على العالم والوصول إلى عالمية الحضارة الغربية وجعلها النموذج المقتدى من قبل الجميع"[4].

ولكي تُصد الجماهير عن فكرة عملية يسعى أصحابها للتمكين لها, فإنّ أساتذة الصراع يلجأون إلى أرشيف المستشرقين لإخراج مخدر يتحدث عن بطولات وأمجاد الماضي الزاهر والتليد الذي سطعت فيه شمس العرب فأضاءت بنورها كل

---

1 عبود العسكري: مشكلات الحضارة بين ابن خلدون وابن نبي , مجلة رؤى , ص57

2 مالك بن نبي: القضايا الكبرى, ص 174 و 175

3 عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص104

- مولود عويمر:"مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري", بدون طبعة, دار الأمل, الجزائر,2007, ص112

4 بدران بن مسعود بن الحسن:"الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري, أنموذج مالك بن نبي", ط1, كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر, الدوحة, 1999, ص210

الدنيا:"والغاية من ذلك الإلهاء والتخدير, إذ يبقى الواقع العربي الإسلامي خلوا من أي توجيه أصيل"[1], ويؤكد بن نبي هذا بقوله:"إنّما ترى كيف يتصرف أولي الاختصاص في الصراع الفكري في ظرف خاص من ظروفه عندما تعرض فكرة عمل وتأمل على الجماهير الإسلامية, كيف يستطعون لفت الأبصار عنها بعرض أفكار أخرى في المناسبة ذاتها, أفكار جذابة تدعو للأحلام السعيدة, أفكار مقتبسة من قصص ألف ليلة وليلة"[2]. بحيث يقدم أساتذة الصراع الفكري:" عجائب الماضي المزدهر إلى المثقف المسلم حتى ينبهر به عوض أن يواجه واقعه المليء بالمشاكل بفعالية"[3] ويواصل بن نبي توضيحه لهذا الخداع الفكري قائلا:"وما ذلك الأدب المطنب في المدح والتمجيد لماضينا إلاّ وسائل إلفات في المجال السياسي, أو في المجال الفكري, حتى يلتفت العالم الإسلامي عن أم مشكلاته ألا وهي مشكلة حضارته, حتى يلفتوه عنها, ويرابطوا اهتمامه بمشكلات وهمية, ويلهوه بحلول وهمية, يتجلى عبثها بصورة مفجعة في ظرف من الظروف الخطيرة غداة إفلاس مصقع وهزيمة شنيعة, وفضيحة مخجلة, مثل غداة 5يونيو 1667"[4].

ومن هنا يظهر لنا كيف باعد الاستشراق:"بيننا وبين مواضيع التفكير في الحاضر في صورته الدفاعية وأغرقنا في أحلام الماضي العذبة, كما باعد بيننا وبين مشاكلنا الحقيقية في صورتها الجدلية وأغرقنا في مناقشة مشاكل كاذبة, ولقد جعل منا محامين لمجتمع مابعد الموحدين المنهار, في حين ينبغي أن ننتقده بشدة وعنف"[5].

وحتى لا يُسمع صدى صوت أي مكافح في المعركة الفكرية فإنّ مخدرات لفت النظر والانتباه متعددة وهي نتاج استعماري خالص , فمن رفض العيش على أوهام السعادة المرتبطة بأمجاد الماضي, فإنّه يجب أن يُستفز إلى حد الثورة والانفعال الشديد, وحينها تسيطر العاطفة والحماس على سلوكاته وهكذا يزول

---

[1] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا, ص134

[2] مالك بن نبي: القضايا الكبرى, ص 176

[3] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص103

[4] مالك بن نبي: القضايا الكبرى, ص 177

[5] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص103

الخطر المحتمل وهو اعتناق فكرة مجردة ما قد تقود إلى باب الحضارة أو التحضر, يقول بن نبي: "في الوقت الذي نلاحظها من جانب الشباب الذي تحقن له حقنة من سيروم الكلاب المسعورة فينطلق يلهث في مجال الديماغوجية, نراها تستمر في الناحية الأخرى حيث يصب نفس الأخصائيون في روح الجناح الآخر من شبابنا عقار النوم والسلوى من خالص إنتاج المستشرقين , وهكذا تتم العملية على جناحي شبابنا, الجناح المصاب بالشلل المضطرب , والجناح المصاب بالشلل المسكن, فالبعض يصيحون ويضطربون, والآخرون يحلمون في بلاد تتطلب النظام والجدية, وتتطلب الضمير المتيقظ على الدوام لمواجهة مشكلات الاستقلال"[1].

كما يُلفت بن نبي الأنظار إلى أنّ الكتب على اختلاف قيمتها المعرفية تمر بالضرورة عبر المؤسسات المختصة في الصراع الفكري لتوظفها كلٌ في مجاله, إمّا للتشويش على الأعمال الجادة , وإمّا لتحطيم القيم الأخلاقية, وإمّا لتخدير القراء وإلفاتهم عن مشكلاتهم الجوهرية:"فهذه الغايات ــ التي عرّفناها فيما سبق بافتضاض الضمائرــ يمكن تلخيصها كما يلي: إنّ كل فراغ إيديولوجي لا تشغله أفكارنا ينتظر أفكارا منافية معادية لنا"[2].

وقادة الصراع الفكري ليس من عادتهم الصبر طويلا حتى يقع الفراغ الإيديولوجي:"بل يصنعونه هم, وربما يشغَلونه مؤقتا بأفكار سواهم حتى تنتهي في مرحلة أولى عملية فصلنا عن أفكارنا بتلك الأفكار الفاصلة الوسيطة.أجل إنّ هذا المجال ليس المجال الذي يطبق فيه المبدأ المقرر تبعا لخط مستقيم مثل الهندسة, حيث النتيجة المنطقية تتبع مباشرة التي قبلها, فالصراع الفكري يجري فيه منطقه الخاص, تبعا لخط ملتو على العموم, بحيث يقتضي الانتقال من مرحلة معينة إلى أخرى, إلى مراحل وسيطة تفرض منعرجات ومنعطفات الطريق"[3].

1مالك بن نبي: القضايا الكبرى, ص197
2 المصدر نفسه , ص 195 و 196
3 المصدر نفسه , ص196

ويشرح بن نبي طبيعة الالتواء والتعقيد الذي يميز عملية الصراع الفكري ومدى خطورته الممثلة في إجهاض الحركة النهضوية للأمة من خلال تفكيك صفوفها وتضخيم مشكلاتها ليتحول الشباب المسلم من ذات تسعى لتحقيق أهدافها الكبرى إلى أداة في أيدي المتخصصين توجهه لضرب مشروعه الحضاري في العمق دون أن يشعر بذلك, فالاستعمار لا يطرح إيديولوجيته مباشرة كبديل للقيم والمبادئ الأصيلة التي يؤمن بها أفراد الأمة, بل يستخدم أفكار غيره كمعبر أو جسر لتفكيك وحدة الأمة أولا, ولإيجاد وإحداث ثغرات يستطيع أن يمرر من خلالها أفكاره وإيديولوجيته التي يريد:" فما يبقى عليه إلاّ أن يحمل هذه الطائفة على جسر من أفكار الغير, ليعبر بهم إلى الضفة الأخرى حيث نجد عصابة من ماركسيين مزيفين, وقوميين مصطنعين, وأفراد مقنعين على وجوههم قناع الثورة, وبهذه العملية الأولى تكون قد حصلت على نتيجة أولى, أنّ وحدة الصف المعنوية قد انفصمت في الوطن في الوقت الذي هو في حاجة لها لمواجهة مشكلات الاستقلال الصعبة وذات الأهمية الكبرى"[1].

وهكذا تنشأ علاقة توتر بين التيارات النابعة من إدارة الأمة والتيارات المصطنعة التي نفخ فيها الاستعمار من روحه فكريا وماديا, فتتضاعف المشكلات التي تعيق نهوض الأمة, و:" يسخر ذلك بعض العناصر من الشباب بكل أسف, من دون أن تشعر أنها تخون الوطن, وتحدد مواقفها وسلوكها طبقا لما يرضي ويحقق أغراض مراصد الاستعمار في المجالات الحيوية"[2] و:" يصبح هذا الشباب يلعب دور الفرملة عندما يضع عليه أخصائيو الصراع الفكري قدمهم, ونقول قدمهم لأنّهم ينزهون أيديهم أن يضعوها على هذه الأجهزة حتى لا تتسخ"[3].

أمّا عن كيفية تحويل هذه الذوات إلى مجرد أدوات لفرملة الجهود والمشاريع النهضوية الجادة, فيتمثل في إعداده المسبق لبطاقة أو خريطة نفسية العالم الإسلامي للاعتماد عليها في توظيف نظريات المدرسة السلوكية في علم النفس القائمة أساسا

---

[1] المصدر نفسه , ص197

[2] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص168

[3] مالك بن نبي: القضايا الكبرى, ص 197

على تفسير السلوك الإنساني بأنّه استجابة أو رد فعل لمنبهات ومثيرات داخليـــة أو خارجية, إذ يسعى لتوفير هذه المنبهات والمثيرات انطلاقا من البطاقة النفسية التــي تتضمن حال الأمة, كما يقوم بتعطيل أي فكرة عملية لمنعها من أداء وظيفتها وذلــك إمّا من خلال إضافة حد موجب أو سالب لمضمونها مما يفقدها قيمتها وصـــلاحيتها, أو بعبارة أخرى وظيفتها, إذ من شروط أداء الفكرة لوظيفتها هـــي أنّهـــا لا تقبــل الإضافة ولا الحذف, فهي أشبه بالماء الطاهر عند الفقهاء الذي يفقد قيمته بإضافة أي حد حتى ولو كان حدا موجبا كالعطر مثلا[1]. وعن هذا المــنهج يقــول بــن نبــي: "فالاستعمار يمتلك كما قلنا جهازا من المَراقب التي تستكشف الأفكار, كمـــا يمتلــك منهجا يتيح له تبديل قيمة فكرة ما, بالإضافة أو الحذف لحد مـــن حـــدودها, وهـــذا المنهج يطبق قانون ردود الفعل الشرطية الذي اكتشفه (بافلوف), مستعملا ما يمكـــن أن نطلق عليه (المرآة المعطلة) ذات الآلية المبسَّطة, فهذه المرآة تستعمل في تسليط الانعكاسات التي يسقطها حدٌ مختار لغاية معينة , بطريقة تلقائية على فكرة ما فـــي ذهن قارئ من القراء"[2].

و أمام هذا الوضع يتحسر بن نبي على صبيانيتنا في ميدان الصراع الفكري, أمام المتخصصين الذين سهر الاستعمار على تكوينهم منـــذ زمـــن بعيـــد وزودهـــم بمختلف الإمكانات المادية لتوظيفها في الاستعلام عن حركة الأفكار, وكذا الإمكانات المعرفية المتعلقة بأرضية المعركة, أي البطاقة النفسية للفرد العربي وما تكشف عنه من ثغرات ومواطن ضعف, بالإضافة إلى إحاطتهم المعرفيـــة بالقيمـــة الرياضـــية للأفكار وما تؤول إليه في النهاية, وعن هذا يقول:"يتعين علينا أولا أن نتقبل مبدئيا: أن الاستعمار يعرف على الأقل أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا, كلّ التفاصيل التي أشرنا إليها بصدد ضعف أساسنا المفاهيمي, وربما لا نكون سوى مجرد أطفال بإزاء الأخصائيين الذين يعملون من عشرات السنين في مختبرات الاستعمار النفسية, حيث يمتلكون بالإضافة إلى ذلك كل وسائل الاستعلام التي لا يمكننا امتلاكهـــا الآن, وإذن فهو محيط علما بكل ثغرات نفسيتنا, ولذلك فهو عندما يقوم بمعركة مفاهمية, يكـــون

[1] مالك ابن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة , ص 128
[2] مالك ابن نبي: فكرة كومنويليث إسلامي , ص57 و 56

على معرفة تامة بأرضية المعركة أولا بالذات, ثم أنّه على معرفة فنية بالفكرة باعتبارها وسيلة من الوسائل من حيث معرفته لقيمتها الرياضية وحدود هذه القيمة في النهاية"[1].

ويضاف إلى هذه الصبيانية القاصرة والعاجزة عن التعامل الواعي مع مشكلات الحضارة والارتقاء إلى مستوى التحديات التي تواجهها الأمة, ذلك الخلط بين ميزتي الأصالة والفعالية:"وهذا الخلط في نفسية النخبة المسلمة الحاضرة, هو النواة التي حولها تتجمع سائر دسائس ومناورات الصراع الفكري, والأساتذة الكبار الذين يمسكون بأسرار ووسائل هذا الصراع يعرفون تماما كيف يستفيدون من هذا اللبس, حيث يقابلونه أمام أنظار شبابنا الجامعي بين أصالة الفكرة الإسلامية وفعاليتها"[2].

و أمام كلّ هذه الدسائس والمناورات المتعددة الأشكال ضد أمة طالت مرحلة طفولتها وصبيانيتها وظلت متعلقة بعالم الأشياء, وغير مدركة تماما للمكانة الحقيقية لعالم الأفكار وأهميته في بناء الحضارات وتطور الأمم وتفوقها, يجد بن نبي نفسه مرغما للاعتراف بمهارة قادة الصراع الفكري في إدارة المعارك لصالحهم إذ يقول: "وإذا كنّا أمام مسرح أحد الحواة المشعوذين فإننا نعلم مسبقا بأنّ خدعه ليست إلاّ مظاهر ما كان لها أن تكون لولا مهارة الحاوي وعلمه الكامل برد فعلنا الاعتيادي, لكننا هنا نحن أمام مسرح سياسي حيث الحاوي يسمى الاستعمار ومن أجل أن نفهم خدعه التي تنطلي على حواسنا ينبغي أن نقول: ماذا نُكَوِنُ أمام ناظريه ـ كعينات نفسية ـ؟ وماذا يُكون على صعيد إثاراتنا الأخلاقية والسياسية"[3].

ورغم هذا التفوق إلاّ أننا قادرون على تحقيق التوازن على الأقل شريطة التخلص من أمراضنا التي أشرنا إليها في الفصل الأول باعتبار أن بدايات حل أزماتنا تنطلق من إرادتنا وذواتنا لا من اتهام الآخر, ولما كانت هذه الأمراض ليست

---

[1] المصدر نفسه , ص 55
[2] مالك ابن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص 107
[3] المصدر نفسه , ص 123

فطرية بل هي من غبار التاريخ أي من أعراض فترة الانحطاط والتخلف الذي دام طويلا, فإن التخلص منها لا يحتاج سوى تحديد مشروع حضاري متكامل الأبعاد والجوانب آخذا في عين الاعتبار تحطيم كل المعوقات التي تقف في وجه النهوض الحضاري لأمة طال ليل تخلفها.

ج2ـ توظيف الخطط العلمية لتحطيم الأفكار:

يرى مالك بن نبي أنّ عمل الاستعمار مرتبط بجانبين، جانب سلبي وجانب إيجابي، فأمّا الأول فيتمثل في خططه ومؤامراته لتحطيم الأفكار الفعالة والعملية وتفكيكها, وأما الثاني فيتمثل في خلق أفكار مناسبة له و لمصالحه, و يسعى لنشرها لتصبح جزءا من يوميات أبناء الشعوب المستعمرة, بل إنّ حماسة الشعوب وانفعاليتها تجعلها تنظر إلى هذه الأفكار بأنّها من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها[1].

وكمثال عن الجانب الأول من عمل الاستعمار, أعطى بن نبي مثال التشويش على محاضرة تتناول مشكلا جوهريا بالنسبة لحال الأمة وتحدياتها المستقبلية, وذلك من خلال التعليق عليها في وسائل الإعلام الأكثر تأثيرا وتوجيها للرأي العام من دون الإشارة لا إلى اسم المحاضر ولا عنوان محاضرته, وإنّما بتناول نفس الموضوع ومحاولة إعطاء درس للمحاضر الغبي الذي يحتاج إلى توجيه, واعتبار الموضوع في حد ذاته سخيفا ولا يستحق الاهتمام. بل وبالرجوع قليلا إلى الوراء نجد أنّ الجهة التي علقت على الموضوع السابق الذكر هي نفسها التي حضّرت لإلقاء المحاضرة ووجهت الدعوة للمحاضر, وعلقت على المحاضرة بطريقتها الخاصة لخدمة أهداف تتعلق بالصراع الفكري[2].

وأعطى أيضا مثال تمزيق المقالات, بحيث أنّ بعض الجرائد التي تتبنى قضايا الأمة حينما يُرسل إليها موضوع ما فإنّها تجزئة إلى نصفين أو ثلاث, ولا

---

1 مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة, ص 103
2 المصدر نفسه , ص 100

تنشر النصف الثاني إلاّ بعد زوال مضمون النصف الأول من الأذهان, وهكذا يعجز صاحب المقالة عن إيصال رسالته للقارئ ولا يمكن لمن لا اطلاع له علــى آليــات الصراع الفكري أن ينتبه إلى هذا العمل التخريبي حتى ولو كان من القائمين علــى تسيير الجريدة[1].

وأمّا الجانب الثاني فيتمثل في خلق الاســتعمار لأفكــار مناســبة لمــصالحه وترسيخها في وعي الجماهير بالاعتماد على سلوكاتهم الانفعالية, وفكرة إنشاء دولة باكستان هي من هذا النوع, الذي ينتجه الاستعمار تقديرا لمــصالحه الإســتراتيجية, ويسعى للترويج له بين المسلمين الذين لن يتخلفوا عن التهليل والتكبير لقيــام هــذه الدولة, ويعود سبب ذلك إلى سيادة النزعة الذرية أو التجزيئية أي تناول المــشكلات الفكرية والسياسية من زاوية ضيقة جدا أو وجهة نظرة قاصرة تركز علــى بعــض المظاهر وتهمل أهم الأبعاد التي تتحكم في المشكلة أو الظاهرة[2].

وبفضل قيام هذه الدولة تحقق للاستعمار هدفه الرئيس هو إضعاف قوة الهند التي أصبح من الضروري حصولها على استقلالها هذا من جهة, ومن جهة أخــرى الحد من انتشار الإسلام بين أبناء المنطقة لما يشكله ذلك من خطر على المدى البعيد حسب تقدير الاستعمار, وهكذا تم تحويل المسلمين إلى أقلية حقيقية بعــد أن كانــت أقلية وهمية, وزاد على ذلك ذاك التفسير القاصر الذي يرى بأنه لا يمكن الجمع بين من يأكل البقرة ومن يعبدها, ولو نطقت البقرة لقالت: أتركوني وشأني !ولكن القيادة السياسية للعالم الإسلامي قد لا ترقى إلى مستوى هذه البقر[3] !!.

ونستعرض في مايلي بعضا من هذه الآليات التي يستخدمها الاستعمار لتحقيق أهدافه المتعلقة بالصراع الفكري.

---

1 المصدر نفسه , ص101

2 المصدر نفسه , ص 106

3 المصدر نفسه , ص 107 و 108

2أ) طريقة دمل التصفية:

وتتمثل في جمع القوى المعادية داخل دائرة مغلقة تحكمها سلطة العاطفة, ويمنعها من الاجتماع في دائرة الأفكار المجردة, لذا يستخدم الخرقة الحمراء أو المنديل الأحمر في مكان ما ليستدرج هذه القوات المكافحة ضده إليه, أو يستخدم أضواء المصابيح الكاشفة ليوجه من خلالها أنظار الرأي العام إلى هامش الأحداث الحقيقية لإبعاده عن جوهر مشكلاته[1].

2ب) استخدام صمام الفصل:

إذا كانت وظيفة جهاز الصمام هي فصل بعض الموجات غير المرغوب في استقبالها في الراديو أو التلفاز, فإنّ أبطال السياسة العاطفية يقومون بدور فصل الأفكار الفعالة والجادة عن الحركة السياسية حتى لا تقوم بدور الفرملة عند انحراف القاطرة السياسية عن سكة الحضارة, ويقوم صمام الفصل بهذا الدور على مرحلتين: مرحلة ماقبل الثورة ومرحلة مابعد الثورة, فأمّا في المرحلة الأولى فيقوم برفع الشعارات البراقة والمحركة للعواطف، كالحرية والاستقلال والوطن, وهذا لأجل إلهاء النّاس عن واجباتها وصرف أنظارهم عن الأفكار الفعالة والعملية التي تحقق فعلا هذه الشعارات في أرض الميدان.

وأمّا في المرحلة الثانية, فإنّه يسعى جاهدا إلى تشويه تلك الشعارات التي كان يحملها, حتى يدفع الجماهير إلى التشكيك في ثمار جهدها التحرري, ويزرع الحسرة والندم على ذلك العهد الذي سبق قيام الثورة ضد الاستعمار, وذلك من خلال الحديث عن إيجابيات الاستعمار, ودفع الشباب إلى الخروج لاستقبال مسؤولي الدول الاستعمارية بالهتافات الضمنية المتحسرة على مغادرة الاستعمار لأرضهم, والضغط على القيادات السياسية لإمضاء اتفاقات صداقة تتجاهل تماما الأثر السلبي للاستعمار على تخلف الشعوب المستعمرة.

---

[1] المصدر نفسه , ص 110

هكذا إذا نرى كيف يقوم جهاز صمام الفصل بتجميد الطاقات التحررية في مرحلة ما قبل الثورة من خلال استدراجها إلى نقطة معينة , وكيف يقوم في المرحلة التي تلي الثورة بتشويه وتحطيم المثاليات التي قامت على أساسها المعركة التحررية[1].

ولا شك أن الواقع المؤلم للشعوب العربية والإسلامية يؤكد هذا التحليل الذي قدمه بن نبي في الأيام الأولى لاستقلال الدول العربية, إلاّ أن الغرور قد يعمي بصيرة من انطلقوا من الصفر واستطاعوا أن يخرجوا جيشا قويا مدعوما بالحلف الأطلسي عمّر طويلا في بلادهم, في حين أن العسكري الناجح لا يكون بالضرورة قائدا سياسيا ناجحا, يُجنب أمته انفجار الألغام المتعددة الأشكال والأحجام التي زرعها الاستعمار حينما أدرك أنّ ساعة رحيله قد حانت أو قربت.

وبعبارة أوضح فإن النجاح في المعركة العسكرية لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق نجاحات متتالية في المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية خصوصا وأن إنسان ما بعد الموحدين استبعد تماما البعد الفكري من قاموسه الخاص نظرا لصبيانيته المزمنة التي تعلقت بعالم الأشياء وراهنت على كارزمية شخص الزعيم, فالتمسك بما يسمى الشرعية الثورية في تسيير شؤون المجتمع بعد مرور نصف قرن من الاستقلال فيه تجاهل لسنن التطور الحضاري من جهة, ومن جهة أخرى تجاوز للواقع المتغير سواء على مستوى المتطلبات الداخلية أو على مستوى التحديات الخارجية.

2ج) خطة المحامي المورط:

قد يقوم الاستعمار بتشويه فكرة معينة, أو سمعة قيادة دولة معينة, من خلال ادعائه الدفاع عنّها, حتى يصد النّاس عن اعتناق هذه الفكرة, أو تأييد هذه القيادة, لأنّ التركيبة النّفسية لهذه الشعوب, تقوم على أنّ الاستعمار هو الصورة المجسدة للشيطان, ولا يمكن أن يكون أصدقاؤه إلاّ مثله, كما لا يمكن أن تكون الأفكار التي

[1] المصدر نفسه , ص 110 و 111

يدافع عنّها إلاّ أفكارا شيطانية منحرفة. لهذا فالاستعمـــار لا يترك فرصـــة تمـــر دون أن ينـــوه بالعلاقـــات المتينة, والصداقة القوية التي تربطه بأعدائـــه, والـــذين يسميهم أصدقاء, أي بمن يريد أن يصد النّاس عنّهم من خلال هذا التنويه[1].

والمحامي المورّط قد يكون تحت تصرف الاستعمار ـ كما سبق وأنّ بيناه ـ كما قد يتم صنعه بأشكال مختلفة, ولشرح كيفية صنع المحامي المورّط يعطـــي بـــن نبي مثال الشاب الراغب في الالتحاق بوزارة الخارجية, إلاّ أنّه تسرع وعبـــر عـــن بعض الأفكار التي تثير انتباه المتخصصين من قادة الصراع الفكري واهتمامهم مما يجعل الآلة الاستعمارية تتحرك عبر مراصدها لتمنعه من الحصول على مثل هـــذه الوظيفة, وفي الوقت نفسه تُعرض عليه وظيفة ذات مرتب عال جدا مقارنة بالوظيفة السابقة, ولتكن عملا في سفارة معينة, إلاّ أنّ طبيعة العمل في هذه السفارة تتعارض كليا مع الأفكـــار التي يؤمن بها ويعمل لأجل التمكين لها, فقبوله العمل في الـــسفارة إمّـــا أن يجعل منه شخصا مشبوها, بمعنى أن يصبح هو في حد ذاته محاميا مورطا للأفكار التي يدافع عنّها, وإمّا أن يدفعه للتراجع عن أفكاره تحـــت ضـــغط إغـــراء المنصب, وما يدره من مال وجاه ونفوذ[2].

ودهاء المستعمر وعلمه المسبق بالخريطة النفسية للشعوب المستعمرة, التي تجعل مقيـــاس قيمة الأفكـــار مرتبط بمن صدرت عنهم (الأشخاص), هوما يجعلـــه يلجأ إلى هذه الصيغ التي لا يمكن الانتباه لها إلاّباستخدام مجهر النقـــد والتمحـــيص للأحداث التي تجرى على مسرح الصراع الفكـــري, إذ أنّ الاســـتعمار لا يحتـــاج لتحطيم فكرة ما إلاّ مدح صاحبها فيمنعها بذلك من الانتشار, وذلك لأنّ المتخلفين:"لا يدرسون الأفكار من خلال تأمل شخصي مباشر بل من خلال الانعكاسات التي يلقيها عليها محامي مورط أو في الصورة التي تعكسها لنا مرآة حرمان"[3] .

---

1 المصدر نفسه , ص119

2 المصدر نفسه , ص 119

3 المصدر نفسه , ص 120

فالاستعمار في هذه الحالات لا يطبق إلاّ تلك التجارب التـــي كـــشفت عنّهـــا المدرسة السلوكية في علم النفس إلا أنّ:" الفرق بين الاستعمار وبـــافلوف هـــو أن الكائنات التي يُجري عليها العالم الروسي تجاربه كانت حيوانات صغيرة مثل الكلاب والفئران, بينما الاستعمار يجريها على علماء ودبلوماسيين ورجال سياسة إلخ...

ويجب أن نعلم أنّ فن بافلوف يطبق في كل وسط إنساني لـــم يـــتم نـــضجه الفكري أو لم تُتخذ في توجيه ثقافته الاحتياطات اللازمة ضد الانحراف الذهني"[1].

2د) توظيف القيمة الرياضية للأفكار:

يرى بن نبي أنّ توظيف مختلف الطرق العلميـــة الـــسابقة الـــذكر لتحطـــيم الأفكـــار الفعالة حتى تبقى الشعوب الضعيفة دائما تحت رحمة الأقوياء, تحتاج إلـــى مهارة فائقة وإلى دراية واسعة بأرضية المعركة الفكرية, أي بطبيعة الأفكار وقيمتها إذ يقول:"ولكنّ لا يستطيع التوقيع على هذه الآلة الدقيقة من ليس له دراية بما يمكـــن أن نسميه رياضة الأفكار أو جبر الأفكار ومن ليس له إلمام بالأفكـــار علـــى أنّهـــا كائنات حية تؤدي دورها في شروط عضوية معينة, لا تقوم بأي دور بـــدونها, بـــل تفقد الحياة بفقدها فتصبح جثثا هامدة لا صوت لها, ولا قيمة لها في الإيقـــاع الـــذي يمثل موسيقى الصراع الفكري في العالم"[2].

وكل ملاحظ لمجريـــات المعركة, تحتم عليه الموضوعية الاعتراف بتفـــوق الاستعمار وتحكمه في خيوط لعبة الصراع الفكري إذ أنّه:" فنان بارع في موســـيقى الصراع الفكري, فهو يبدع في سمفونية هذا الصراع، إذ هو ينسجها من الخيـــال أو من لعبة الظل كما بينـــا في الفصول السابقة ثم يبلغ إيقاعها الســـاحر عـــن طريـــق الإيحـــاء, لأنّه يجيد التوقيع على النقـــاط التي تسحر الألباب فتعطي لفنه كل قيمتـــه الفنية"[3].فمثلا نجده يقوم بتشويه المنطوق اللغوي للمصطلحات والشعارات فمحـــور (طنجة ــ جاكرتا) مصطلح استخدمه بن نبي ليعبر به عن أفكـــــار معينـــة إلاّ أنّ

---

[1] المصدر نفسه , ص 122
[2] المصدر نفسه , ص 123
[3] المصدر نفسه , ص 124

الاستعمار سارع إلى ضمه إلى قاموسه السياسي, وحاول عقد مؤتمر سياسي بمدينة طنجة لتحقيق أهداف تعارض تماما ما كان يهدف إليه مستخدم هذا المصطلح, وبهذا تصبح كلمة طنجة بعد عقد مثل هذا المؤتمر المشبوه مركز إشعاع حرماني على الكتاب الذي جعل من محور (طنجة ـ جاكرتا) شعارا له, إلاّ أنّ عدم انعقاد ذلك المؤتمر يؤكد أنّ الظروف المحيطية متغيرة وبالتالي ليست دائما في صالح الاستعمار ولكنّ هذا لا يعني إطلاقا نهاية المعركة... والثابت الذي لا يتغير هو الحقائق النفسية والمقاييس المنطقية[1].

والشيء الذي لا يتغير أيضا:" حقيقة الفكرة ذاتها بوصفها كائنا حيويا له وحدة عضوية لا يمكن أن نزيد فيها شيئا ولا ننقصه دون أن تتغير شروط الحياة بالنسبة إليها, كما أننا نغير شروط حياة أي حيوان لو أننا أضفنا له عضوا زائدا مثل الرأس الذي أضافه بعض علماء الاتحاد السوفياتي إلى كلب, أو أنقصنا منه عضوا"[2].

وهذا يعني أن القيمة الرياضية للأفكار لها قاعدتها الخاصة, والتي تختلف عن القاعدة العامة للقيمة العددية, إذ أنّ الفكرة لا تقبل الإضافة سواء بالإيجاب أوالسلب, أي أنّ قيمتها تنقص كلما أضفنا لها حدا جديدا حتى ولو كانت قيمة موجبة, ويعطي بن نبي لشرح ذلك مثال القاعدة الفقهية المتعلقة بصلاحية ماء الوضوء, فالماء الطَهور إذا أضفنا له دنسا (قيمة سالبة) يصبح غير صالح للوضوء وإذا أضفنا له عطرا (قيمة موجبة) يصبح أيضا غير صالح للوضوء[3]: "وعليه يجب أن نراعي في الصراع الفكري كل مايتصل بكيان الأفكار بصفتها أفراد مستقلة بوحدتها العضوية, كائنات حية لا تقبل القسمة ولا الضرب"[4].

---

[1] المصدر نفسه , ص 125
[2] المصدر نفسه , ص 125
[3] المصدر نفسه , ص 128
[4] المصدر نفسه , ص 128 و 129

وانطلاقا من هذه الحقائق الثابتة المتعلقة بعالم الأفكار, والتي لا تعرف التغير تنتج المخابر الاستعمارية المتخصصة في الصراع الفكري نظرياتها وقواعدها الخاصة بكيمياء ورياضة الأفكار والتي يتمثل بعضها فيما يلي:

د1) طريقة القسمة والضرب:

يلجأ الاستعمار إمّا إلى تجزئة الفكرة إلى عناصر جزئية منفصلة عن بعضها البعض ليسهل تحطيمها جزءا تلو الآخر، أو ليحدث توترا في علاقاتها ببعضها البعض فلا تؤدي دورها متكاملا. وإمّا يلجأ إلى إجراء عملية الضرب إذ يقوم بعملية تضخيم مقصودة يضيف من خلالها عناصر فكرية دخيلة وثانوية, ممّا يشل الطاقات المحركة ويشتت الجهود, كما قد يكون عنصرا جديدا كافيا لإثارة الخلاف ويتحول إلى نقطة جوهرية يدور حولها النقاش والجدل الذي لا ينتهي إلى نتيجة عملية وعن هذا يقول بن نبي:" والاستعمار يطبق طبعا هذه الحقائق, فهو تارة يحاول تجزئة الفكرة كأنّه يريد تقسيم طاقتها الانفجارية, وأحيانا يحاول على العكس أن يُجري عليها نوعا من الضرب يجعلها مقحمة في عدة أفكار ثانوية, تضيف إلى حجم الفكرة الأصيلة عناصر فكرية خامدة, لا أثر لها سوى إضعاف سلطانها على العقول, كما لو أننا لففنا سن المسمار أو حد المنقار بلفائف من الورق أو القماش حتى لا تؤثر فيما نريد نقره من الخشب"[1].

د2) طريقة المزلقة:

وتطبق هذه الطريقة حينما يريد الخصم أن يميع النقاش حول مسألة فتطرح أفكار جديدة ومهمة وبالتالي لتتسع دائرة النقاش دون تحقيق أي نتيجة عملية[2].

---

[1] المصدر نفسه, ص 129
[2] المصدر نفسه, ص 130

د3) طريقة الاستبدال:

ويقوم الاستعمار من خلال هذه الطريقة بطرح فكرة بديلة لفكرة عملية تكون محل نقاش عام قد يثمر, إلاّ أن الفكرة البديل تشتت الجهود وتخلق الجدل والنزاع[1].

د4) طريقة البتر:

" أما طريقة البتر فإنّها تطبق عندما توشك مناقشة أن تأتي بنتيجة في موضوع هام في صحيفة وطنية مثلا, وإذا بمحرري الصحيفة (المعادية للاستعمار) يقلبون الصفحة بكل بساطة, وتبقى المناقشة معلقة دون نتيجة, فيجد الكاتب نفسه فجأة مجردا من السلاح, كأنّما يد خفية نزعت من يده القلم في الوقت الذي تدخل المعركة في دورها الحاسم"[2].

هذه بعض من القواعد الخاصة بكيمياء الأفكار, والتي هي نتاج استعماري خالص موجه للتأثير على الحياة العامة والسياسية للأمة العربية. والتي لم تتخلص كليا من قبضته الحديدية التي جعلت من العلم وسيلة لاضطهاد الشعوب ومحاربة الآخر لأجل استعباده باسم القيم الإنسانية العليا, والتي كشف عنها بن نبي في مؤلفاته وخصوصا كتاب"الصراع الفكري في البلاد المستعمرة", وذلك باعتباره صاحب تجربة طويلة ومريرة في هذا المجال خصوصا ما تعرض له من مؤامرات ودسائس ماسينيون وشبكته المنتشرة هنا وهناك لرصد حركة الأفكار وإعداد الخطط الملائمة للقضاء عليها إمّا بالانحراف بها عن مجراها الحقيقي, أو بعزلها في ركن مظلم مع صاحبها وهدف الاستعمار هو أنّ:" يسعى أولا أن يجعل من الفرد خائنا ضد المجتمع الذي يعيش فيه, فإن لم يستطع فإنّه يحاول أن يحقق خيانة المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار"[3].

---

[1] المصدر نفسه , ص 130

[2] المصدر نفسه , ص 130

[3] المصدر نفسه , ص 133

ج3 ــ بعض آليات الصراع الفكري:

أ) تجسيد الأفكار المجردة:

لقد اقتنع الاستعمار من خلال طول تعامله مع الشعوب المستعمرة أن القـوة مهما كانت درجة بطشها لا تُمكِّنه من تحقيق أهدافه الاستعمارية الكبرى, وبذلك تبين له أنّه بحاجة إلى وسائل أخرى أكثر دقة للقضاء على الفكرة كبديل للقـوة التـي لا تنفع في القضاء على الأفكار, فحدد خططه المتمثلة في تجسيد الفكرة المجردة حتـى يسهل الوصول إليها بعدها يتم تحديد مجالها وحصرها في إطار ضيق إذ يقول بـن نبي:"إنّ الاستعمار سوف يجتهد في هذا الفصل الجديد, في امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأي طريقة ممكنّة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة, ومن البديهي أنّه سيحاول أولا تعبئتها لحساب فكرة متجسدة تجسيدا يصبح معه أقرب إليه منالا, لأنّه يمكنّه مقاومتها إمّا بوسائل القوة أو وسائل الإغراء"[1].

ويستعين الاستعمار في حربه على الأفكار المجردة بوسـائل مهمـة منهـا الخريطة النفسية للعالم الإسلامي والتي يتم تحديدها بناء علـى دراسـات مخبريـة متخصصة وتعدل من حين لآخر حسب ما يتوفر من معطيات:"وهي خريطة تجرى عليها التعديلات الضرورية في كل يوم, يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار, إنّه يرسم خططه الحربية ويعطي توجيهاتها العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمرة, معرفة تسوغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي فـي تلك البلاد حسب مستوياته وطبقاته, إنّه يستخدم لغة الفكرة المتجسدة فـي مـستوى الطبقة المثقفة, فيقدم للمثقفين شعارات سياسية تـسد منافـذ إدراكهـم إزاء الفكـرة المجردة"[2], ولعل:"الفكر الظـاهري الجديد الذي هو بطبيعته فكر أعشى"[3], لا يمكنه أن يشاهد عمل الاستعمـار هذا, لأنّه لا يتم في وضح النّهـار كمـا لا يمكـن أن يسمع عنه لأنّه يتم في صمت, فالفعالية والغموض هما أساس نجاح عمله المـرتبط

---

[1] المصدر نفسه , ص 15 و 16

[2] المصدر نفسه , ص 16

[3] عبد اللطيف عبادة: " فقه التغيير في فكر مالك ابن نبي" , ط1 , مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع , الجزائر, 2006 , ص35و 36

بجبهة الصراع الفكري:" فنراه يسدل ظلاما على تلك الجبهة كي يعزلها عن ضمير الشعب المستعمر نفسه وعن الضمير العالمي, وبهذا يصبح وضع الأشياء وكأننا في قاعة غارقة في الضوء, بينما يبقى المسرح ذاته غارقا في الظلام, تلك مسرحية مخرجها الاستعمار وهذا المخرج لا يريد أن يشاهد النظارة فعلا ما يجري على خشبة المسرح"[1].

ب) التلويح بالمنديل الأحمر واستخدام الأضواء الموجِّهة:

أما المنديل الأحمر فهو تلك الراية التي تستخدم في بعض الألعاب الاسبانية لإثارة واستفزاز ثور هائج, وكلمّا استفز هذا الثور بالتلويح بهذه الراية فإنّ درجة هيجانه تزداد, ويواصل هجومه على المنديل الأحمر بدل الهجوم على الهدف الحقيقي إلى أن تُنهك قواه, حينها قد ينتهي الأمر إلى ذبحه أو نحره، ومعاملة الاستعمار للشعوب المستعمرة تتم وفقا لهذه الآلية إذ أنّه:"يلوح في مناسبات معينة بشيء يستفز به الشعب المستعمَر حتى يُثير غضبه ويغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية التي يفقده معها شعوره ويصبح عاجزا عن إدراك موقفه وعن الحكم عليه حكما صحيحا, فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيها أعمى, ويُسرف من قواه, دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع الذي يلوح بالمنديل الأحمر. الاستعمار بطل الألعاب الاسبانية في المجال السياسي. ويمضي الشعب الباسل في هذا الوضع الدرامي, كأنّما تضحياته ذاتها من النفس والنفيس جمدته وقضت عليه بالبقاء فيما هو فيه"[2].

وهكذا كلّما أراد الاستعمار أن يمرر مشروعا تدميريا أو يقضي على فكرة مجردة ويمنعها من الوصول إلى الجماهير, إلاّ وقام بالتلويح بالمنديل الأحمر من خلال تدمير وتخريب مسجد كبير و معروف, أو نشر رسومات تسيء للمسلمين، أو دفع بعض المرتدين إلى نشر كتب ذات مضمون استفزازي, أو دفع بعض رجالات الدين المسيحيين ممن يحتلون مراكز مهمة إلى التهجم على الإسلام:"فهو

---

[1] مالك ابن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة , ص16 و 17

[2] المصدر نفسه , ص29و 30

يستمر إذن في التلويح بالمنديل الأحمر حتى لا تكون للـــشعب المـــستعمَر فرصـــة يتدارك فيها , ويفكر في أمره أو ينظر إلى مشكلاته بمنطق الفعالية, أي يضعها طبقا للأسس السياسية العملية , وهكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده , يجمدها هكذا عند نقطة معينة وتحت راية معينة"[1].

ويُسلط الأضواء الكاشفة على هذه الأحداث الاستفزازية ليجمد عندها خصومه في الركن المقابل الذي يغمره الظلام مع كل من دخل المعركة تحت رايتها فالمتتبع للأحداث:"سينتبه لشيء هو أنّ الاستعمار يُسلط الأضواء الكاشفة على ركن معـــين من المسرح, أي بالضبط على النقطة التي يريد أن يجمد عندها القوى المناهضة لـــه ثم يرى أن ركنـــا آخر من المسرح بقي يغمره الظلام, وإذا هو حدَّق البصر لاحـــظ أنّ الأضواء الكاشفة تتحول عن هذا الركن عن قصد, كأنّ إرادة خفية تحرص على أن يبقى مغمورا بالظلام"[2].

وعليه فيجب أن لا ننتظر من الاستعمار أن يسمح لنـــا بمـــشاهدة المعركـــة الحقيقية أثناء دخول فكرة ما ساحة المعركـــة بل يسعى إلى إخفائها قدر المـــستطاع, حتى لا تتجند القوى الحية للدفاع عنها من جهة, وحتى لا تكون حاضرة في وعـــي الشعب من جهة أخرى:"وهل يرجى من الاستعمار أن يسلط الأضواء على المسرح في الوقت الذي تدخل فيه الفكرة حلبة الصراع, وبالضبط على الركن الذي تبتدئ فيه المعركة؟. لا شك أنّه سوف يكون شيطـــانا بليدا لو فعل ذلك, بل على العكس سوف يحاول أن يجعل الظلام يتزايد في ذلك الركن حينما تدخل الفكرة حلبـــة الـــصراع, بمعنى أنّه يحـــاول جهده عزل المعركة عن الطاقـــات المكافحة في الـــبلاد, وعـــن وعي البلاد ذاتها"[3].

وهكذا يجد كل من دخل المعركة نفسه معزولا دون أن يجد أي قوة تسانده أو تدعمه, فتكون الفرصة مواتية للاستعمار لكي ينقض عليه بكل وحشية فيلجـــأ إلـــى

---

1 المصدر نفسه , ص 30
2 المصدر نفسه , ص 30 و 31
3 المصدر نفسه , ص 35

تحطيمه معنويا من خلال توجيه أقسى الضربات لأفراد أسرته دون مراعاة الجـنس أو السن لا يهم إن كانوا أطفالا أم شيوخا رجالا أو نساء[1].

ويخلص بن نبي إلى القول:"وهكذا تستطيع المختبرات المختصة أن تـصرف كل إمكاناتنا الفكرية والمادية إلى معارك وهمية, فنسمع فيها قعقعـة الـسلاح ودوي الحرب ولكننا نتصارع فيها مع أشبـاح تحركها أمام أبصارنـا المسحورة يد خفية ماهرة"[2], أي أنّ الاستعمار يعمل من خلال مخـابره المختصة في توجيه الـصراع وفق ما يخدم مصالحه الخـاصة, ويقضي نهائيا على طاقتنا وإمكانياتنا من خـلال افتعال معارك وهمية تُهدر الطاقات وتفرغها فيما لا جدوى منه من خلال مصارعة الأشبـاح, فكثيرا مما نعتقده نصرا ماهو في حقيقة الأمر إلاّ مراوغـة من طـرف الاستعمار، الذي أذن لشبح ما أن يختفي حتى نندفع بحماستنا العاطفية للسباحة فـي وهم الانتصارات الخادعة, أو بعبارة أخرى حتى لا يتبادر إلى أذهاننا بأنّ المعـارك التي نخوضها مفتعلة, وما هي إلاّ جهاز لامتصاص الطاقة الكامنة في ذواتنا حتى لا توجَه الوجهة الصحيحة التي توصل إلى باب الحضارة, بالإضافة إلى أنّ الـشعور بنشوة الانتصار, حتى ولو كان نصرا مزيفا فإنّه يدفع إلى الإصرار على المواصـلة في نفس الاتجاه, وهو ما يسهل على الاستعمار وأساتذة الصراع الفكري مهامهم.

ولَكم يطمئن الاستعمار أيما اطمئنان لمشاريعنا ومبادرتنا التـي تقـوم علـى أساس رد الفعل العاطفي المرتبط باستفزازاته, باعتبار أنّ هذا المجهـود مـاهو إلاّ تجميع للأفكار والأقلام والأموال وتسخيرها في غير الاتجاه الصحيح, في حين أنّـه يشعر بالغضب والقلق الشديدين إذا لاحظ أننا نسير في الاتجاه الصحيح وننبه الأمـة إلى أنّ الإسلام كدين سماوي يتضمن حصانة ذاتية, ولا يحتاج منّا أن ندافع عنه, بل الأهم هو أنّ يتعلم المسلمون من الإسلام آليات الدفاع عن أنفـسهم. حينهـا يـسعى جاهدا لمنعنا من معالجة مشكلاتنـا وفق هذا الاتجـاه البعيد عن الجدل الميتافيزيقي المرتبط بجنس الاستعمار إذا كان ذكـرا أو أنثـى, وغيـر الخاضـع للمنبهـات

---

[1] المصدر نفسه , ص35 وما بعدها

[2] المصدر نفسه , ص71

والمثيرات التي أنتجتها مخابره المختصة في الصراع الفكري, وماهو ملاحـظ فـي الميدان والواقع هو أن الخروج عن مخططـات أساتذة الصراع الفكري في عالمنـا الإسلامي يمثل حالات استثنائية تمثلها القلة القليلة من أبنـاء المجتمـع الإسـلامي, ورغم ذلك لا يمكنه أن يغفل ـ ولولحظـة ـ عن هؤلاء, بل يركز كل اهتماماتـه على أولئك الذين تمردوا على مخططاته خوفا من أن يكونوا سببا في توجيه الأمـة إلى أهدافها الحقيقية وصدها عن معارك الوهم[1].

ج) عزل الشعوب المستعمرة عن المجتمع العالمي:

يعتمد الاستعمار على قواعد المدرسة السلوكية في علم النفس التي تعتبـر أنّ السلوك الفردي ماهو إلاّ رد فعل لمنبهـات خارجية فيسعى لتحديـد نوعيـة هـذه المنبهات من أجل توجيه فكر المسلم وعمله, ولما كان هذا التوجيه يقوم على أسـاس دراسة مخبرية دقيقة وواعية, وكانت ردود الأفعال التي تصدر من طرفنا مرتبطـة بالفطرة الإنسانية المتمثلة في الدفاع عن النفس وحب البقاء فإن ذلك ينتج سلوكـا غير عقلاني عند المسلم من جراء:"الإيحـاءات التي تسلطهـا على مشاعره ومـن وقت إلى آخر المختبرات المختصة, كي ترفع توتر طاقات الدفاع عن النفس فـوق الدرجة اللائقة حتى يكون الفرد في حالة توتر شـاذة. ويمكن أن نقول دون تردد إنّ هذه الدوافع المنطلقة في حـالة غير عادية وهذه الإيحـاءات الـسلبية هـي التـي جعلت من المسلم ـ فيما يظهر ـ منبوذ القرن العشرين أي الشخص الـذي يعـيش على هامش المجتمع العالمي المعاصر"[2] وفعلا أصبحت تصرفات المسلم اليوم كلها ردود أفعال وارتفع عنده توتر طاقات الدفاع, فهو يعيش إمّا متَّهَمًا وإمَّا متَّهِمًا[3].

وهكذا يقدم المسلم عن نفسه صورة مزيفة غير حقيقية للرأي العـام, وفـي الوقت نفسه وتحت ضغط الانفعال يُكوِّن صورة ذهنية خاطئة, وغير حقيقيـة عـن الآخر بل هي أصلا من صنع مخابر الصراع الفكري:"ومما يلاحـظ بـشأنه فعـلا

---

[1] المصدر نفسه , ص71 وما بعدها
[2] المصدر نفسه , ص70
[3] محمد العبدة:" مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي", ط1, دار القلم , دمشق , 2006, ص92

حينما يراقب سلوكه في المناطق الخارجية عن دار الإسلام القائمة على حـــدوده أي في مناطق الاتصال بعالم الآخرين, فإننا نجده يسلك غالبـــا ــ إن لم نقــل دائمـــا ــ مسلك المتهم بالنسبة للآخرين, أي مسلك الفرد الذي يعيش منبـــوذا فـــي المجتمـــع العالمي في القرن العشرين"[1], والقرن الذي يليه.

وهو ما يؤكده الواقع رغم مرور ما يزيد عن أربعة عقود من الزمن عن هذه الملاحظة, إذ أصبحت قوى الاستكبار العالمي تستفز المسلمين في مقدســـاتهم ممـــا يدفعهم إلى الثورة والغضب الزائد عن الحد, والذي كثيرا ما ينحرف عـــن مجـــراه الطبيعي لشدة الانفعـــال والتوتـــر, وبذلك تنجح المختبرات في تقديم المسلمين للرأي العـــام العالمي على أنّهم برابرة متوحشون أقرب في سلوكاتهم إلى البدائية منها إلى الحضارة, فتُعلَن حالات الطوارئ في المطارات والموانئ لتفادي بدائيتهم وما ينـــتج عنها. كما تنجح أيضا في مغالطة المسلم وإفهامه أن كل الغربيين من دون اســـتثناء على نفس الدرجة من العداوة والكيد للمسلمين فتغلق بذلك كل منافذ التواصـــل بـــين الطرفين حتى يفهم كل منهمـــا حقيقة الآخر كما هي لا كما يتصورها عنـــه, لتبقـــى بذلك نظرة كل طرف قائمة على أحكـــام مسبقة غير صحيحة بل هي أصـــلا مـــن إنتاج مخابر الصراع الفكري. حينها يحقق الاستعمار:"أهدافه التوسعية بغزو أفكـــار الشعوب المتخلفة وإضعاف شخصيتها والتشكيك في ثراها وتحطيم هويتها, وبـــذلك يتم إقصاؤها بشتى الوسائل عن التفاعل الحضاري من خلال شخصيتها الحـــضارية المميزة"[2].

وهكذا ينجح أســـاتذة الصراع الفكري في عزلنـــا عن المجتمع العالمي:" كما يُعزل مكافح الصراع الفكري عن المجتمع الخاص, إذ يعزلنا فعلا عن عالم نتهمـــه ويتهمنا ويملأ أبصارنا فيه بالأشباح التي يزيد تأثيرها في توترنا, فوق درجة مجرد الدفاع عن النفس, بينما يزيد المنديل الأحمر في فزعنا من إبليس"[3].

1مالك ابن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة , ص70
2 سليمان الخطيب: "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر", ص260
3مالك ابن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة, ص70 و71

د) خلق وحدات كفاح جزئية:

يسهر الاستعمار دائما على الإمساك الجيد بخيوط لعبة الصراع وذلـك مـن خلال استباق الأحداث وتحويل طبيعة المعركة لصالحه, فيخلق لذلك وحدات كفـاح جزئية لمواجهة وحدة الكفاح الشاملة التي تواجهه, فيحقق بذلك هدفين مهمـين: أمّـا الأول فيتمثل في التقليل من حدة الدافع الروحي أو الفكري أو الإيديولوجي المتعلـق بالموضوع الذي تدور حوله الفكرة, أمّا الهدف الثاني والذي لا يقل أهمية عن سابقه بالنسبة للاستعمار فيتمثل في تفكيك القوة الموحدة وتشتيتها من أجل القضاء عليهـا الواحدة تلو الأخرى[1] :" وهذه الخطة التي تحول طبيعة المعركة لصالح الاسـتعمار تطبق بنجاح في ميدان كفاح الجماهير, كما تطبق في ميدان كفاح الفرد, فحينما تُكوِن الأحداث والظروف وحدة كفاح شاملة ضد الاستعمار, نرى هذا الأخير يشرع فـي خلق وحدات كفـاح جزئية, حتى يحدث الخلاف والتنـافس بين القوى التي تقاومه, فتنحرف بذلك المعركـة من معركـة بين قوى الشعب المستعمَر والاستعمار إلـى معركـة بين القوى الشعبية ذاتها كما وقع في كوريـا وفي الصين وفي الهند بعـد التقسيم وفي أندونيسيا إلى حد ما"[2], وفي العراق اليوم بعدما تحول الـصراع مـن المواجهة الموحدة للاحتلال الأمريكي إلى صراع طائفي ومذهبي بين السنة والشيعة وكذا في فلسطين حينما يتنازع أبنا الوطن الواحد على سلطة وهمية والاحتلال يعبث بالجميع.

فنجاح فكرة ما في معركة الصراع مرتبط بما تضفيه من قداسة تساهم فـي رفع معنويات حامليها وهو ما يعمل الاستعمار في ميدان الصراع الفكري علـى أن يقضي عليه حتى يضمن لنفسه الفوز في النهـاية, ولعّل التلميذ الوفي للاستعمـار, والمتمثل في بعض الأنظمة العربية الجائرة والمستبدة والخالدة في الحكم, هو الأخر يطبق هذه الطريقة للقضاء على مختلف الحركات التي تطالب بالتغير في المجتمـع, فإذا ما تجمع التيار العلمـاني في كتلة موحدة للدفـاع عن الحريـات والحقـوق

[1] المصدر نفسه, ص 41
[2] المصدر نفسه, ص 41

أنشأت هذه الأنظمة وحدات جزئية تدافع عن نفس المشروع في الظاهر, لكن الحقيقة تكمن في الرغبة في تشتيت القوى الفاعلة التي تجمعت تحت راية هذه الكتلة, وإذا تجمع التيار الإسلامي تحت راية واحدة للمطالبة بالإصلاح والقيام به, نجد هذه الأنظمة تجتهد في فهم طبيعة الخلافات الطبيعية الموجودة بين أبناء هذا التيار لتضخيمها وتوجيه الأضواء الكاشفة نحوها لإخراجها من منطقة الظل, وكذا دعم الجماعات ذات الرؤية السطحية والتحليلات التجزئية الساذجة, سواء من دعاة الاستسلام التام, أومن دعاة المواجهة العنيفة غير المحسوبة العواقب على الأفراد والمجتمع والأمة والمشروع الذي يدافعون عنه, ويتم تزويدها بمختلف الإمكانات ليتحول بعدها الصراع إلى صراع داخلي يعطل الجهد الجماعي وينزع عن المشروع الإصلاحي قداسته.

وحتى يحقق الاستعمار النجاح في عمله المتمثل في تفكيك وحدة الكفاح الشاملة إلى وحدات جزئية فإنّه يَحُول أولا دون الاتفاق على إيجاد قاعدة نظرية موحدة تمثل المرجعية الأساسية التي ترتكز عليها الجهود المختلفة, كما أنّه يسعى إلى تشجيع المبادرات الشخصية التي قد تكون اجتهادات ولكنّها تخدم مشروعه وقد تكون نتيجة إيحاءات قام بها عملاؤه :"وهكذا يستطيع الاستعمار بطرق مختلفة تحويل المعركة التي تنشأ بينه وبين القوى التحررية إلى معركة أو على الأقل منافسه بين تلك القوى نفسها كما رأينا كيف يحوّل معركة بينه وبين فرد يكتب مثلا إلى معركة بين هذا الفرد وإخوانه أنفسهم"[1].

[1] المصدر نفسه , ص 44

ه)الاهتمام بالبعثات الطلابية:

يرى مالك بن نبي:"أن البلاد المستعمرة لا تعرف عموما ما هو الصراع الفكري, وإنّما تسجل تلقائيا نتائجه السلبية في حياتها, فحينما ترسل إلى الخارج بعثة من الطلاب للدراسة العليا فقد قامت تلقائيا بعمل يتصل بالصراع الفكري ولكنّها لا تعلم بالضبط مقتضيات هذا الصراع وأسلوبه ووسائله وأهدافه"[1].

فالاستعمار يهتم اهتماما بالغا بمصير البعثات الطلابية من أبناء البلاد المستعمرة حتى لا تعود بما ينعكس إيجابا على مجتمعاتها, فيقوم أولاً بتجميع المعلومات حول أفراد البعثة ليبدأ بعد ذلك عمله بناء على ما توصل إليه من معطيات أمّا البلاد المستعمرة ف:"إنّها لا تعلم أنّ تلك البعثة التي سلمت شؤونها للمصرف قد دخلت دون أن تشعر في حلبة الصراع الفكري, إذ تقبلتها رعاية الاستعمار وأحاطتها برقابة دقيقة وأعدت لكل فرد من أفرادها ملفا خاصا لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من تصرفاته إلاّ أحصاها, حتى يكون لدى الاستعمار عن تلك البعثة معلومات أكثر مما هي عليه عند المصلحة أو الوزارة التي أرسلتها فهذا بالنسبة للبعثة هو الفصل الأول, فصل التعرف, ثم يبتدئ الفصل الثاني: فصل التوجيه"[2] وفي الفصل الثاني تتم تغذية الشهوات والهوى فيعود أفراد البعثة فارغي الأيدي والعقول لأنّ شبكات الصراع الفكري قامت بتحطيمها, أمّا من أثبت امتيازه في مجال تخصصه فلا يعود لأنّ الاستعمار محتاط من ذلك من خلال الإغراءات والتسهيلات التي يوفرها له للبقاء هناك.

كل هذا يحدث من حولنا دون أن نشعر به لأنّه يحدث في منطقة الظل من خشبة المسرح في حين أنّ الأضواء الكاشفة موجهة إلى زاوية أخرى تدور فيها أحداث هامشية مفتعلة, وعن هذا يقول بن نبي:" وهنا يبذل الاستعمار كل مواهبه الشيطانية حتى لا تعود البعثة بطائل لبلادها إذ يتصرف من أجل ذلك طبقا للمعلومات التي سجلتها الملفات: فهو يغذي الهوى والشهوات دون أن يصرف

---

[1] المصدر نفسه , ص33

[2] المصدر نفسه , ص 33

قطميرا, فإنّ التكاليف تدفعها ميزانية البلاد المستعمرة ذاتها والمصرف المختص يؤديها والحمد لله في كل شهر... ويستمر هذا التوجيه السلبي خفيا كسرّ من أسرار ملفات الاستعمار الخاصة بالصراع الفكري, الذي لا نعلم عنه شيئا نحن أبناء المستعمرات أو شبه المستعمرات"[1].

وبعد تخرج أفراد البعثة الطلابية فإنّ أمتهم لا تحصد من وراء ذلك غير الوهم والسراب وخيبة الأمل, إمّا من خلال العودة باللاشيء إلى أوطانها, وإمّا البقاء في الغرب حيث الإمكانات المتوفرة والتسهيلات التي تخصص للممتازين من أجل اللاعودة إلى بلادهم, وفي هذا الشأن يقول بن نبي:"ثم بعد سنوات من ذهاب تلك البعثة التي أرسلناها للخارج تأتي النتيجة النهائية, إنّ بعض أفرادها يعودون إلى البلاد بخفي حنين لأنّ التوجهات الاستعمارية المحكمة حطمتها في الطريق, وبعضها الآخر لا يريد العودة لأنّ الاستعمار حينما لاحظ امتيازاتهم في العلوم مثلا, لم ير من مصلحته أن يتركهم يعودون فاتخذ الإجراءات الضرورية من أجل ذلك بكل ما لديه من وسائل الإغراء"[2].

وليت الأمر توقف عند هذا الحد, بل تجاوزه إلى ما هو أخطر, بحيث أنّ مختلف الطاقات العلمية والنخبوية الجادة التي أثبتت كفاءتها في بلادها والتي سهرت الأمة على تكوينها أصبحت تجد الأبواب موصدة أمامها إمّا خوفا منّها وإمّا لدفعها إلى الهجرة, بل الأدهى والأمر أنّ كل من ظهرت عليه بذور العبقرية من خلال نتائجه الدراسية الممتازة إلاّ وأرسل إلى إحدى الدول الغربية لمواصلة تكوينه والاستقرار هناك دون وجود آليات تفرض عليه العودة أو ترغبه فيها بل العكس هو الصحيح فإذا ما تحركت بداخله مشاعر الغيرة والإخلاص وعاد إلى وطنه فلا يجد مكانه اللائق به كمفكر أو عالم سوى بين السجناء أو البطالين أو المتشردين, وقد يختار البعض منّهم مناسبة مرتبطة بتقديس العلم ومدينة يشار إليها أنّها مدينة العلم ليوجه صرخته المدوية إلى النّائمين من عالم الأحياء وذلك برمي نفسه من فوق

---

[1] المصدر نفسه, ص 34
[2] المصدر: نفسه ص34

جسر[1], ليغادر بذلك هذا العالم الذي سيطر عليه أساتذة الصراع الفكري وفي الوقت نفسه مازالت الشعوب المستضعفة غارقة في سباتها العميق ولعلها تحلـم بمـا هـو أجمل وأسعد.

و) تلويث الأخلاق ونشر الرذائل:

يجتهد الاستعمار من أجل توفير مختلـف الوسـائل والإمكانيـات الماديـة والمعنوية التي تساهم في نشر الرذيلة في الوسط الاجتماعي لأبنـاء المـستعمرات, ويهدف من خلال ذلك إلى تحطيم القدرات والمعنويات والحط مـن قيمـة الإنـسان المستعمر, فمن جهة يقف له بالمرصاد في كل الطرق التي تؤدي إلى النّجاح, ومـن جهة أخرى يوفر له جميع الوسائل التي تحطم ذاته, وتخدره وتنسيه واقعه المـؤلم, ويكون ذلك بالدعم المباشر لدعاة نشر الرذيلة أو من خلال غض الطرف عن كـل نشاطاتهم ويؤكد هذا الباحث شايف عكاشة بقوله وقد:"عمد الاستعمار إلـى توسـيع أبواب التبرج والفسق والزنا, حيث أمر بفتح بيوت الدعارة في كل المـدن والقـرى الجزائرية, وأصبح في استطاعة كل شاب بلغ سن المراهقة أن يلج ما يشاء من تلك البيوت, كما صار في إمكان كل فتاة متبرجة أن تجد شغلا لها داخل هذه البيـوت"[2], وهو يهدف من خلال ذلك إلى:"تحطيم قواعد السلوك والخلق التي تسود المجتمعـات الموجودة تحت سيطرته, لكي يستبدلها بمفاسد وموبقات تحقق الـسقوط الأخلاقـي, وتشكل وسيلة لهو للكثير من أبناء الشعب المغلوب على أمره حتـى تحرفـه عـن أهدافه"[3].

أما اليوم وخصوصا مع ظهور الثورة المعلوماتية والتطور التكنولوجي نجـد أنّ الاستعمار قد ركز على الجانب الإعلامي والذي تمكنّ من خلاله فعلا من التأثير المباشر على تكوين شخصية الأجيال الأخيرة من أبناء المجتمع الإسـلامي فأصـبح

---

1 إشارة إلى انتحار دكتور في الفيزياء النووية بمدينة قسنطينة يوم 16 أفريل2000, نقلا عن جريدة الشروق اليومي, ليوم الخميس 17أفريل 2008 , العدد 2278

2 شايف عكاشة : "الصراع الحضاري في العالم الإسلامي , مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي" , ط 2 , ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, 1988, ص11

3 أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا, ص126

جيل الشباب ممن تعول عليهم الأمم في نهوضها لاتهمهم غير المتعة والترف رغم تخلفهم, ولم يكن هذا ليحدث لولا وجود مخططات استعمارية يسهر على تنفيذها حينا وعملاؤه أحيانا وبهذا تحول المجتمع إلى مجرد قطيع إذ:"لم يحدث في عصر من العصور, أن ارتد الإنسان إلى خصائص الحيوان كما حدث في هذا العصر, وذلك بما تقدم من فطريات تختمر على صورة وأشكال وهي معامل مهيأة بما تحتاجه من الوسائل المادية والنفسية, معامل تأخذ صور القوانين والبنوك والإدارات, والصحف والسجون والمدارس الاستعمارية"[1].

وحينما ينجح الاستعمار في تفكيك الروابط الأخلاقية في المجتمع فإنّه يستطيع أن يغير البنية الثقافية السائدة, فتنقلب المفاهيم ليصبح الاختلاس بطولة, والأمانة سذاجة, والحفاظ على الشرف تخلف, والرذيلة تحرر من قيود المجتمع الظالم, فتغتال بذلك كل القيم الأخلاقية الحميدة لتحل محلها قيم الرذيلة لكنّ في أثواب ذات بريق جذاب, وهي إنتاج استعماري خالص يهدف من خلاله إلى عرقلة الجهود النهضوية وتحطيمها, وهكذا:"استوى على قمة المجتمع الإسلامي الحديث رعاع النّاس, بينّما هبط إلى القاع خيارهم وصفوتهم, وما الحياة الفكرية في أي بلد مستعمر سوى تخمير يقصد به انتقاء أفكار يهتم المستعمر بها ليجعل منها أساسا للبوليتيكا"[2].

ولأجل أن يحكم الاستعمار قبضته على الشعوب المستضعفة فإنّه يسعى لتستمر مرحلة صبيانيتها طويلا:"فهو يريد تحطيم كل إرادة, أو شبه إرادة تدفع الإنسان المستعمر إلى التّقدم والحضارة, ببرنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التحطيم المعنوي, من تلويث أخلاقي يحط أولاً من قيمة الفرد الشخصية, ومن كفاءته, ومن جهده في المسابقة الاجتماعية, لأنّ هذه المسابقة تجرى بحيث تكون المحسوبية هي الشرط الوحيد للنجاح فيها, كما أنّ الشرط الوحيد للنجاح في الانتخابات في البلاد المستعمرة هو رضا الإدارة الاستعمارية على الذي يفوز فعلاً ويلقب"النائب الحر" كما تصبح من ناحية أخرى المخدرات والكحول مؤسسة من مؤسسات الحكم, لا

---

[1] مالك ابن نبي : وجهة العالم الإسلامي, ص 144

[2] المصدر نفسه: ص 144

يقف أحد إزاءها موقفا عدائيا إلاّ ويعرض نفسه[للخطر], كما يُعلَّم عليه في ملفات البوليس بأنّه شخص خطير"[1].

ص) توفير الحماية لداء التعصب ورفض النقد الذاتي:

يسعى الاستعمار جاهدا لتوفير الحماية لداء التعصب ورفض النقد الذاتي, لما يوفره له من فرص لتمرير مختلف الانحرافات والخطط, لذا فهو يحارب الأفكار المجردة التي تقوم بالدور المعدل, ويسعى لتجسيدها في شخص فرد ما أو مركب أفراد من الذين يكافحون ضده, لأنها تدخل ضمن دائرة الشر الذي لابد منه, والغاية من ذلك هي الحيلولة بين الساسة كعلم يقوم على أسس منطقية واضحة من حيث الأهداف والغايات والوسائل, والسياسة العاطفية التي تقوم على الحماسة والانفعالات وردود الأفعال والتناول الذري للمشكلات[2].

ولعّل الحليف المحوري للاستعمار هو تلك الصبيانية المزمنة التي تعانيها الأمة, أو بعبارة أخرى ذلك الضعف الفكري الذي لا يقوى أصحابه على فهم حقائق الأشياء ويكتفون بمظاهرها وأعراضها المتغيرة وغير الثابتة, وكذا تناول الأحداث كأجزاء مستقلة عن بعضها البعض, يقول بن نبي:" غير أنّنا إذا ما فحصنا هذه الحالة على ضوء تجربة طويلة, فسوف نجد أن الضعف الفكري هو أقوى العوامل تأييدًا ومساعدة مساعي الاستعمار في جبهة الصراع الفكري فالتجربة عندنا تكشف لنا أنّ مأساة الأفكار عندنا تدور فعلا على هذا المحور"[3].

ويقول أيضا:" إنّ البلاد المستعمرة تعيش الصراع الفكري, وتسجل نتائجه السلبية في حياتنا أو ميزانيتها أو في أخلاقها, دون أن تعلم عن حقيقته شيئا, وتترك المعركة في وجوه نشاطها نتائجها المتنوعة, دون أن تشعر تلك البلاد أن المعركة مرت بأرجائها"[4]. ويضيف باحث آخر موضحا كيف يحدث ذلك قائلا إن:

---

1 مالك ابن نبي: " في مهب المعركة " ص 43
2 مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة, ص110
3 المصدر نفسه , ص 81
4 المصدر نفسه , ص 35

"الاستعمار يستطيع استغلال هذا الاتجاه المرضي لتجسيد أفكارنـــا خـــصوصا فـــي الإطار السياسي, ويمنعنا هذا الاتجاه أحيانا من استخراج العبرة من الفشل فورا فـــي شخص يكون(رجل نحس) بدلا من التفكير مليا وجديا بالدروس التـــي نـــستخرجها منها"[1].

وإذا كان غياب النقد الذاتي ورفضه يؤدي إلـــى الانحـــراف عـــن المـــسار الصحيح للبناء الحضاري, فإنّ داء التعصب يؤدي إلى انتشار الجدل العقـــيم حـــول المسائل الهامشية والاستعمار لا يغفل عن ذلك بل يسعى جاهدا لتشجيعه وإثارتـــه إذ يرى بن نبي أنّه إذا كان أهل بيزنطة يتجادلون في جنس الملائكة فإنّنـــا ســـنتجادل حول جنس الاستعمار هل هو ذكر أو أنثى؟ وحينها سيعمل الاستعمار على إظهـــار عورته مرة على أنّه أنثى ومرة على أنّه ذكر ويبذل كل ما في وســـعه لبـــث روح الجدال, فننصرف كلنّا إلى هذا الجدل العقيم وتكثر الردود التي تتخـــذ مـــن مـــنهج "التعديل والتجريح" المقتبس من التراث الإسلامي عنوانا لها, إلى أن يتحـــول هـــذا الجدل إلى مشاجرة وعداوة بيننا فيهجر بعضنا بعضا, وقد يتحول الهجر إلى أرضية خصبة لتهيئة الظروف النّفسية لأجل المواجهة المسلحة بين أبناء الأمة الواحدة, أمّـــا من ترفّع عن هذا الجدل العقيم حول المسائل الهامشية, فـــإنّ الاســـتعمار ســـيتكفل بالترويج لتهمته بالخيانة أو العمالة أو الردة أو الجبن[2].

ويتراوح رد فعل الفرد المستعمر اتجاه ذلك الشر المجسد في الاستعمار بـــين موقفين إما العبادة والخنوع والاستسلام التام, وإما الثورة والغضب الـــشديد الـــذي يعمي البصيرة:"ونحن نشاهد فعلاً هاتين الحالتين في المجتمع الإسلامي منـــذ أخـــذ يشعر بالاستعمار ويسعى لتخليص نفسه إنّنا نجد من بين المسلمين مـــن يـــرى فيـــه الشيطان فيعتريه الهول ويهزه الغضب من الشعور بأنّه الشيطان, ومنهم مـــن يـــرى فيه إلها فيعبد لأنّه يتصور أنّ النعم بيده في الدنيا على الأقل"[3].

---

1 عبود العسكري: مشكلات الحضارة بين ابن خلدون وابن نبي , مجلة رؤى, ص57

2 مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة, ص 65 وما بعدها

3 المصدر نفسه , ص 66

ولما كانت مراصد الاستعمار تبني مخططاتها على الأسس العلمية والعملية الفعالة فإنّ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يخفى عنها, كما لا يمكن تجاهله دون أن تستثمره لصالحها:"ولاشك فإنّ الاستعمار سيبذل جهده بكل تأكيد حتى يزداد من يكره الشيطان حقدا أو غضبا عليه, ويزداد من يدين له بالنّعم شكرا وهذان الموفقان ـ وإن كانا يختلفان من الناحية الأخلاقية ـ يحققان النتيجة نفسها من الناحية العملية, إذ هما يكونان حجر الزاوية في الخطة التي يرسمها الاستعمار لتنويم الوعي الإسلامي كما يحول بينه وبين المشاكل القائمة"[1].

ورغم كل ما بيناه من كيفيات وأدوات الصراع الفكري التي يستخدمها الاستعمار, إلاّ أنّه يجب التأكيد أن ما هذا إلاّ جزء يسير من خططه المتجددة والمتنوعة إذ من غير المعقول تحديد قائمة مفصلة ونهائية لمختلف الوسائل التي يستخدمها الاستعمار, وما ينبغي أن لا يغيب عن الأذهان هو أنّ الاستعمار يتكيف مع جميع الظروف الجديدة إلى درجة أنّه يدخل من أبواب لم يكن دخوله منها متوقعا على الإطلاق[2].

لذا يصبح من الضروري تنبيه المسلمين إلى ضرورة إنشاء مراكز ومخابر خاصة لتنبيه الأمة بكل ما يدور حولها من أحداث ذات أثر إيجابي أو سلبي وذلك بتبسيطها وتوضيحها وبالخصوص فهم الآخر الغربي في إطاره التاريخي ومعرفة كيفية توظيفه للأدوات الفكرية في تعاملاته الداخلية والخارجية[3] وفهم نفسيته وأساليبه في الهيمنة[4] وذلك من خلال القيام ب:"حركة استغراب, أي حركة تعاكس حركة الإستشراق لدراسة وتحليل وفهم الحضارة الغربية, تمهيدا لانطلاق الحضارة الإسلامية في دورة تاريخية جديدة"[5].

---

1 المصدر نفسه , ص 67.

2 أنظر المصدر نفسه, ص 112 , وما بعدها

3بدران بن مسعود بن الحسن:"الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري, أنموذج مالك بن نبي", ص211 و210

4مولود عويمر:"مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري", ص111

5 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص89

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا الفصل أنّ الاستعمار استطاع أنّ يستغل قوته المادية والفكرية لإجهاض محاولات العودة الحضارية للأمة العربية الإسلامية من خلال غلق كل السبل مستخدما مختلف الوسائل الممكنة بعيدا عن لغة الأخلاق ولغة حقوق الإنسان وغيرها من الشعارات الوهمية التي يتشدق بها ليوظفها متى يشاء لمصلحته الخاصة, ويغض الطرف عنها متى شاء أو تعارضت مع مصالحه, لكنّ رغم كل ذلك إلاّ أنّ هناك حراكا قويا تشهده الساحة العربية الإسلامية ينبئ بأنّ التخلص من القبضة الحديدية للمستعمر وعملائه من المستبدين قريب جدا لتنطلق قاطرة الحضارة العربية الإسلامية من جديد ـــ بعد توقف دام طويلا ـــ مبشرة بقيم الحق والعدل والخير والسلام في عالم امتلأ جورا وظلما بقيادة قوى الشر.

الـــفـــصـــل الـــثـــالـــث

آلـــيات تجـــاوز معوقـــات الـــنهضة:

أ) بناء شبكة العلاقات الاجتماعية الممزقة
ب) توجيه الفعل السياسي وأخلقته
ت) إعادة تفعيل الدور الاجتماعي للدين
ث) بناء الإنسان الجديد غير القابل للاستعمار
ج) التأسيس للعمل المنهجي
ح) الواقعية والإبداع لتجاوز التقليد
خ) تحقيق الفعالية

أ) بناء شبكة العلاقات الاجتماعية الممزقة:

يقول بن نبي:"إن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"[1], وهو يعني بهذا أننا نصنع التاريخ حينما نقوم بنشاط مشترك, والذي يعني تقاسم الأدوار من جهة، وتكاملها من جهة أخرى، أي يجب أن تكون شبكة علاقاتنا قوية ومنسجمة ومتماسكة، ولن يتأتى لنا هذا الانسجام في شبكة علاقات إلاّ إذا استطعنا تغيير نفسية الفرد ونقلناه من حالته الطبيعية أي من كونه مجرد كائن حي إلى حالته الإنسانية أي إلى كونه كائن اجتماعي[2]، أي:" بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع, إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"[3].

أو بمعنى أخر إلاّ إذا حولناه من مجرد فرد تسيطر عليه غرائزه المختلفة إلى شخص ملتزم بواجباته اتجاه غيره من بني البشر الذين تجمعه بهم روابط معينة قد تكون مادية كما قد تكون روحية فيؤدي واجباته عن قناعة وبإرادة مُلتزما غير مُلزم, الأمر الذي ينعكس إيجابا على صيرورة المجتمع وحركيته التاريخية, لأنه: "بقدر ما يكون إلزام الضمير في الشخص قويا فعالا, تتقوى الروابط الداخلية لشبكة العلاقات الاجتماعية, وتزداد فعاليتها أي توترها, وهو الأمر الذي يؤهلها لتحمل مسؤولية العمل التاريخي المشترك الذي يضع المجتمع في طريق الحضارة ثانية"[4].

لهذا إذا سجن دعاة التغيير والإصلاح أنفسهم داخل أبراج المثالية واللاواقعية وحاولوا إرغام الفرد على السير وفق رؤيتهم التي تجاهلت البناء الداخلي لذات الإنسان فإن مسعاهم سيكون مآله الفشل الذريع حتما, نظرا لتجاهلهم لأهم بعد من أبعاد النهضة وهو الإنسان, باعتبار أن المحرك الأساسي لهذا الأخير هو إرادته وهذه الأخيرة لاتتحرك إلاّ بفكرة دافعة, بمعنى أن الإنسان ــ عموما ــ حينما

---

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع, ص28

[2] حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات , مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص334

- الأخضر شريط: فلسفة عالم الأشخاص والبناء الحضاري عند مالك بن نبي,"بونة للبحوث والدراسات ", مجلة دورية محكمة, تعني بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية, العددان الرابع والخامس , ديسمبر2005,يونيو2006, ص151

[3] آمينة تشيكو:"مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي", دون ط , المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر, 1989, ص117

[4] محمد بغدادي: التربية والحضارة , ص188

يتخلص من رواسب التخلف التي تقيده وتمنعه من الحركة, وتتوفر له الفكرة الدافعة فإننا سننتظر منه المعجزات, ليس بمعنى تجاوز السنن أو خرق قوانين الطبيعة, بل سيسير المجتمع نحو الحضارة بسرعة لم نتعود عليها, مثلما كان حال المجتمع الإسلامي في بدايته, إذ أن سر تلك السرعة في صناعة التاريخ يعود إلى تلك الفكرة الروحية التي كانت توجه سلوكات المسلم[1], الأمر الذي جعله ملتزما اتجاه قضايا أمته من دون شعور بالإلزام الخارجي أي الاجتماعي, لأن:"الدين بوصفه علاقة روحية بين الله والإنسان هو العنصر الرئيس لميلاد العلاقة الاجتماعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع"[2].

فحينما تكون السيطرة لصالح النزعة الاجتماعية على حساب النزعة الفردية فتلك هي بداية الطريق الموفق والصحيح باتجاه التغيير والنهضة والتحضر, باعتبار أن:"نظرية الكل الاجتماعي هي أساس تقدم المجتمع, دون تمايز بين إنسان وآخر, بل بانتظام الجميع في إطار تنظيمي جماعي, وورشة واحدة نحو أهداف محددة واضحة"[3], ولن يتم ذلك إلاّ بجهود تربوية تبني في ذات الفرد ذلك النزوع إلى الجماعة والالتزام بقضاياها والتنازل عن فردانيته لإنقاذ أمة يعتقد البعض أنها مهددة بالانقراض[4].

لذلك نجد بن نبي ينبه إلى أن تماسك النظام الاجتماعي يقتضي الحد من حريات الأفراد, بمعنى أن الحرية المطلقة للفرد داخل المجتمع ستؤدي إلى الفوضى بسبب اصطدام الجهود الفردية ببعضها, وبهذا المنظور تصبح الحرية الفردية المطلقة أداة للهدم بدلا من أن تكون أداة للمنافسة والإبداع وفي هذا يقول بن نبي: "ذلك أن حرية القرد يمكنها أن تكون كلية دون أن تضر بمصلحة النوع القردي ولكن حرية الإنسان لايمكنها أن تكون مطلقة إلاّ مقابل فوضى غير متلائمة مع

---

1 الأخضر شريط: فلسفة عالم الأشخاص والبناء الحضاري عند مالك بن نبي,"بونة للبحوث والدراسات ", مجلة دورية محكمة, تعني بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية, العددان الرابع والخامس , ديسمبر2005,يونيو2006, ص148

2 نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , ص144

3 أسعد السحمراني:مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص161

4 علاء الدين الأعرجي:" العقل الفاعل والعقل المنفعل , الأمة العربية بين النهضة والانقراض, أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي", ط1, رياض العلوم للنشر والتوزيع, الجزائر, 2005, ص11

جميع ضرورات التنظيم الاجتماعي والنظام العام"[1]. ومن ثمة فإن كل قطيعة:"بين الفرد والمجتمع هي قطيعة بين الفكر ومقاييس النشاط, لأن البناء الحضاري إرادة اجتماعية قائمة على تواصلية وتناسقية بين الفرد والمجتمع"[2].

والحد من الحرية الفردية داخل الإطار الاجتماعي لايعتبر إطلاقا نوعا من الاستبداد أو الديكتاتورية, كما يبدو للوهلة الأولى, وإنما هو ذلك الثمن الذي تقتضي الضرورة أن يدفعه الفرد ليحصل على الضمانات الاجتماعية الضرورية لحياته, علما أن:"الحياة الاجتماعية ضرورة بالنسبة لكيان الفرد, فهو يلقي نفسه إلى التهلكة إذا ما انفصل عنها, والإنسان شأنه شأن النحلة, إنه لايستطيع أن ينعزل عن المجتمع ويحاول العيش بجهده الخاص, فمصيره من غير شك إلى الموت"[3], وبعبارة أوضح فإن:"قدرة الفرد وإرادته لن تتحقق إلاّ في ظل تحقق قدرة وإرادة المجتمع, وتحقيق قدرة المجتمع وإرادته تتجليان في صورة قيام حضارة"[4].

ومما سبق تتجلى ضرورة اهتمام الفرد بشؤون المجتمع قبل الاهتمام بنفسه نظرا لكونه عاجزا عن صنع مصيره بيده بسبب وقوعه تحت وطأة قانون الجماعة, إذ يقول بن نبي:"فالفرد يحقق إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه, ولا تستطيعان ذلك, وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه, وإذا ما ركن لقدرته وحدها وإرادته وحدها يصبح مجرد قشة ضعيفة"[5].

إنّ المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه هو الذي يحدد مصيره إمّا من خلال توفير جميع الضمانات الضرورية التي تساعده على تحقيق مواهبه وطموحاته, وإما من خلال حرمانه من هذه الضمانات الضرورية مما يجعله يدفع ضريبة مرتفعة جدا تتمثل في الجوع والجهل والألم العضوي من جهة والنفسي من جهة أخرى, وتوفير الضمانات للفرد مرتبط بالتطور المادي والمعنوي للمجتمع, لذا وجب على الفرد أولا

---

[1] مالك بن نبي: القضايا الكبرى , ص109

[2] حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات , مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص341

[3] مالك بن نبي: تأملات , ص157

[4] محمد بغداد باي: التربية والحضارة , ص203

[5] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص42

أن يكرس جهوده لخدمة المجتمع بغية تحقيق تطوره وحينها يستطيع المجتمع في هذه الحال أن يوفر الضمانات لهذا الفرد ولغيره من الأفراد الذين سيدخلون هذا الحيز الاجتماعي مستقبلا, وإذا كانت المجتمعات اليوم تخوض معارك من أجل البقاء, فإن استمرارية أمتنا مرهونة بتجاوز النزعة الفردية والعمل لصالح المجتمع لأن مكانة الفرد تستمد من مكانة أمته بين الأمم[1]. وتحقيق هذا لن يكون إلاّ إذا كانت لدينا:"أفكار جد واضحة عن العلاقات الاجتماعية, فعملية بناء كيان اجتماعي ليس بالأمر السهل, لأن العقد النفسية كما يؤكد العالم الأمريكي(مورينو) هي في العلاقة بين الأفراد, وليس من داخل الفرد كما يقول (فرويد), والفرد في المجتمع الإسلامي اليوم وبسبب ضعف العلاقات الاجتماعية لا تقدم له الضمانات والمسوغات التي تجعله يقدم أقصى طاقاته"[2].

والمجتمع ليس كمّا من الأفراد وكفى, وإنما هو بناء متكامل تربط بين أفراده روابط مقدسة, إذا ما افتقدت تمزق الجسد الاجتماعي لذا يرى بن نبي أن:" المجتمع الذي يقوم بوظيفته التاريخية, المجتمع الذي يقوم بوظيفته نحو الفرد ويحقق راحة الفرد, فإنه لابد أن نفهم معناه فهما دقيقا, فهو ليس عددا من الأفراد, وإنما هو شيء خاص, وليس تكديسا من الأفراد, بنيان فيه أشياء مقدسة متفق عليها "[3].

وأساس تماسك هذا البنيان الاجتماعي هو مجموعة من المبادئ والقيم الأخلاقية, وللتأكيد على جوهرية المبدأ الأخلاقي في النشاط المشترك يعطي مثال الزواج باعتباره أول عقد في شبكة العلاقات الاجتماعية من الناحية التاريخية, وأنه لو كان هدف المجتمع هو مجرد التكاثر لكان ذلك ممكننا عن طريق الاتصال الجنسي الحر, إلاّ أن كل المجتمعات بما فيها المتمدنة, يتم فيها الارتباط بين الجنسين وفقا لخطة دينية رمزية تحقق غاية المجتمع وتلبي حاجاته[4].

---

[1] مالك بن نبي :"مجالس دمشق" , ط 1, دار الفكر , دمشق , 2005 , ص75
[2] محمد العبدة:" مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي", ص94
[3] مالك بن نبي: تأملات , ص175
[4] المصدر نفسه , ص52

ولكن لماذا التأكيد على علاقة القانون الأخلاقي بالنشاط المشترك الذي يقوم به المجتمع لأجل البناء الحضاري؟! لأن هناك بعض الاجتهادات التي يعتقد أصحابها أن تقدم مجتمعنا لن يتم إلاّ إذا تحررنا من الأخلاق ومن كل ماهو مطلق, ولذلك يجب تكسير كل الطابوهات التي تحد من سلوكياتنا وتجعلها خاضعة لمراقبة الضمير الفردي أو الجمعي, واجتهاد مثل هذا لايقوم على أساس علمي صحيح كونه يتجاهل تماما دور الأخلاق في الحفاظ على تماسك شبكة العلاقات الاجتماعية, وأن النشاط المشترك الذي يبني المجتمع ويدفع به نحو أبواب الحضارة والتحضر لن يتم في غياب هذا التماسك, ومنه فإن هؤلاء يحطمون ذواتهم بوسائل غيرهم لأنه:"كلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين, حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه"[1], وهو مايؤكد أن:"الأخلاق شرط لتنظيم العلاقات الاجتماعية بما يلائم المصلحة العامة, وللأخلاق إضافة للبعد النفعي بعد روحي وهو الدين يهذب ويوظف الدافع الغريزي للتجمع في بوتقة مايسمى الروح الخلقية, فإنه بذلك يحقق وظيفة الربط التي هي أساس للتقدم الاجتماعي"[2].

وإذا كان القانون الأخلاقي هو أساس التماسك الاجتماعي, فإن مصدر هذا القانون الأخلاقي هو البعد الديني:"وذلك لأن الوعي الخلقي ظاهرة ذاتية باطنية, لاتستمد وجودها من رقابة خارج النفس أو الذات, ولذا كان الوعي الخلقي يستند إلى الجانب الديني لما في طبيعة العنصر الديني من قدرة للرقابة الباطنية على الذات"[3].

ويؤكد بن نبي أن العلاقات الاجتماعية في حقيقتها ما هي إلاّ تجسيد للعلاقة الروحية بين الله والإنسان, إذ أن هذه الأخيرة تنشئ قيما أخلاقية, وهذه بدورها هي التي تحافظ على ترابط العلاقة الاجتماعية وتماسكها, لذلك يقرر أن:"الحدثين يرتبطان ارتباط الأثر بالسبب في حركة التطور الاجتماعي, فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني"[4].

---

1 مالك بن نبي: ميلاد مجتمع , ص53
2 عبد اللطيف عبادة: " فقه التغيير في فكر مالك ابن نبي", ص60
3 سليمان الخطيب: "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر", ص141
4 مالك بن نبي: ميلاد مجتمع , ص 56 و57

والعلاقتان متلازمتان إذ أن قوة العلاقة الروحية تؤدي إلى قوة تماسك العلاقة الاجتماعية بحيث أن :"الإيمان هو الذي يولد الاندفاع والحركة والتي تتجسد في فعل اجتماعي, بحيث تغدو كل علاقة غيبية وقد تجسدت في علاقة اجتماعية"[1], أمّا ضعف العلاقة الدينية فيؤدي إلى ضعف وتمزق شبكة العلاقات بسبب ارتخاء التوتر واتساع الثغرات داخل هذه الشبكة إذ يقول:" نجد أنه عندما تقوى هذه العلاقة مثلا بين نقطتي صفر و(أ), فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل, قلة تصبح معها صورة المجتمع بعض مايوحي به قوله صلى الله عليه وسلم:" المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا " فتلك صورة المجتمع الذي لا يوجد فيه الفراغ الاجتماعي"[2].

ويوضح سليمان الخطيب هذه الفكرة أكثر من خلال قوله إن:" الإسلام يوازن بين الفرد والجماعة من خلال رابطة تقوم على أساس التكامل والتعاون وتسيير العلاقة على أساس الأخوة والبذل والإيثار, حقق هذا الإسلام في حضارة لا تفقد الفردية وجودها فتسحق الإنسان, ودون أن تفقد الجماعة كيانها فيستعلى الفرد, وهذه الفعالية الاجتماعية بين الفرد والأمة التي ينتمي إليها, عمل مطلوب ليستعيد المسلم مكانته الحضارية وسط المجتمعات المعاصرة"[3].

وحينما يتحدث مالك بن نبي عن التماسك الاجتماعي فهو لايفصل في حديثه بين الرجل والمرأة لأن المجتمع المتماسك هو الذي يقوم فيه كل من الرجل والمرأة بوجباته المتكاملة, إذ أن مصدر التمزق الاجتماعي هو استبعاد طرف للأخر, فالحضارة التي تختفي فيها المرأة السيدة وتسيطر المرأة الفارسة:" تنتهي إلي فجور وميوعة وانحلال, أمّا الحضارة التي عليها طابع الذكر فتنتهي إلي الجفاف والعقم والتحجر"[4], لهذا فالمسلم والمسلمة كلاهما على حد السواء بالنسبة للواجب لأن القضية قضيتهما معا, والقرآن الكريم لم يفصل في آياته واجبات الرجل عن واجبات

---

[1] نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , ص110
[2] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع , ص57
[3] سليمان الخطيب: "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر", ص180
[4] مالك بن نبي: في مهب المعركة , ص98

المرأة بل كان الخطاب موجها لكليهما ماعدا بعض الحقوق التي تخص المرأة بصفتها أنثى[1] يضاف إلى هذا إن الحضارة لا تعني تقدم طرف دون آخر بل:"هي ظاهرة اجتماعية شاملة ومستوعبة لكافة الطبقات والشرائح, ينتعش فيها كل فرد ويحيا حياة سعيدة في عدل وأمن ورفاه"[2].

وانطلاقا من وجهة النظرة هذه:"انتقد [بن نبي] التفريط في حقوق المرأة والإفراط في ذلك, وبيَّن أن من الواجب أن توضع المرأة هنا وهناك حيث تؤدي دورها خادمة للحضارة وملهمة لذوق الجمال وروح الأخلاق, ذلك الدور الذي خصها به المولى سبحانه وتعالى كأم وزوجة"[3], ودعا إلى ضرورة تدارس وضع المرأة المسلمة من طرف أهل الاختصاص لتحريرها من قبضة دعاة تحرير الغرائز الذين جعلوا منها مجرد دمية لتزين واجهات المحلات, بل مجرد أداة إشهارية لتسويق مختلف المنتجات الاقتصادية, وفي الوقت نفسه تحريرها من سجون التقاليد البالية التي هضمت حقوقها تحت غطاء المحافظة على القيم[4], فيقول:" ينبغي أن نطبع حركتنا النسائية بطابعنا لا بطابع ما يُصنع في الخارج, وعلى أية حال فالمرأة ليست كائنا يعيش وحده ويطرح مشكلاته على هامش المجتمع, إنها أحد قطبيه وقطبه الآخر الرجل.ولا ينبغي لنا أن نتصور قطبا ينفصل عن الآخر, ولو حدث هذا بفرض لا يتصوره العقل, فالمجتمع نفسه يتبخر"[5].

ومن خلال هذا القول يتبيّن أن بن نبي كان ذا نظرة استباقية للزمن حينما دعا إلى تبني مشكلات المرأة وطبعها بالطابع المحلي, لأنه كان يدرك أساليب الصراع الفكري وكيف أن ما تعانيه المرأة إلى جانب أخيها الرجل في مجتمع متخلف يمثل ثغرة يستغلها خصوم الأمة من خلال استغلال ضعف المرأة و المزايدة بمشكلاتها غير المنفصلة أصلا عن مشكلات أخيها الرجل. وإلى جانب ضرورة تبني مشكلاتها ينبغي أيضا أن نهيئ لها الأرضية الصالحة لننبتها نباتا طيبا و:"لابد إذا أن نطرح

---

1 مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص136

2 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص75

3 عبد اللطيف عبادة: " فقه التغيير في فكر مالك ابن نبي", ص157

4 أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص 231 و232

5 مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه, ص66

منذ الآن مشكلة إنباتها حتى لانغرس جذورها أينما كان وكيفما كان. فهناك أسمدة تعين على إنبات النبات الطيب وهناك مزابل لا ينبت فيها إلاّ النبات العفن"[1].

ب) توجيه الفعل السياسي وأخلقته:

ب1ـ أولوية الواجب على الحق:

يقول مالك بن نبي:"وليس يكفي مجتمعا لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات, بل ينبغي أن تكون له مبادئ و وسائل تساعده على الخلق والإبداع"[2], فالحاجة لوحدها لاتكفي للإبداع بل يجب أن يكون هناك ضمير حي أي روح المبادرة التي تدفع الإنسان إلى خلق الشيء, ومن ثمة ف:"نحن بحاجة إلى تعريف مزدوج للحاجة, تعريف لها في صلتها بالطاقة, وآخر لصلتها بالمنفعة"[3], وهذا مايؤكد أن المدخل إلى باب الحضارة لايكون إلاّ بمراجعتنا لتصوراتنا النظرية وسلوكاتنا العملية فيما يتعلق بموقفنا من أداء الواجب إذ يجب أن:"نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب, أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق, لأن كل فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحق, ونفور من القيام بالواجب, إذن لسنا نريد من الفرد أن يطالب بحقوقه, فالطبيعة بحقوقه كفيل بل ينبغي على مثقفينا وسياسيينا ومن يمثل كل سلطة أن يوجهوا الهمم إلى الواجب"[4].

وهذا يعني أن الطريق السياسي الجديد الذي يجب على المسلم المعاصر أن يسلكه للتحرر من قيوده الخارجية والداخلية، هو أن يدع جانبا ذلك الحديث عمّا يسمى الحقوق المهضومة التي يجب أن تُسترد, وينطلق في السعي الجاد لإيجاد الوسائل الممكنة والفعالة التي يواجه بها الواقع رغم مرارته وصعوبة التحديات التي يطرحها, وإن بدا هذا الطريق شاقا إلاّ أنه المسار الصحيح الذي يختزل المسافات, ومن خلاله يتم تجاوز مختلف المعوقات والصعوبات التي تقف في وجه المحاولات

---

1 المصدر نفسه , ص65
2 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص142
3 المصدر نفسه , ص 142
4 مالك بن نبي: تأملات , ص 30 و31

النهضوية المتكررة والتي ظلت تراوح مكانها إذ:"لن يكون هذا الإنسان فريسة سهلة إذا ما اتجه إلى تثقيف طرائق تفكيره وطرائق عمله، طبق منطق عملي يخطط نشاطه، ومنطق علمي وموضوعي ينظم فكره وإذا ما تخلص من الخرافات التي تكف نشاطه وتحد من فعاليته"[1].

واختيار طريق الواجبات يرتبط بالإرادة الإنسانية عكس المطالبة بالحقوق المرتبطة بالميل الطبيعي عند الإنسان نحو النزول إلى المنحدرات والاستسلام لما هو أيسر, وحينما نختار طريق الواجبات معناه أننا نؤسس لثقافة جديدة مفتقدة في مجتمعنا والذي ما كان ليبقى على هذه الحال لو أن دعاة التحديث والإصلاح تخلوا عن طريق الحقوق وسلكوا طريق الواجبات, وفي هذا الشأن يقول أسعد السحمراني: "إذا ما نجح الفكر السياسي في العالم الإسلامي والعربي بتوجيه الاهتمام إلى الواجب لأنه أمانة وتأديتها بأحسن وجوهها عمل له قداسة, وخاصة عند الموجودين في مواقع المسؤوليات, عند ذلك تكون قد بدأت بجدية عملية السير على طريق التحرر من كافة أشكال الاستعمار, وتكون قد بدأت عملية صنع المستقبل الحضاري المتقدم"[2].

وقد يلاحظ هذا في مسار الحركة الوطنية الجزائرية قبل الفاتح من نوفمبر 1954, وكيف أن سياسة المطالبة بالحقوق والمشاركة الشكلية في المجالس النيابية لم يجن الشعب الجزائري منها إلاّ المراوغة والخداع والقمع, وما مجازر ماي 1945, إلاّ دليل قاطع على ماتجنيه سياسة المطالبة بالحقوق, ولكن ما إن تكاثفت جهود جميع التيارات الفكرية والسياسية في مسار الثورة التي اعتمدت في الأساس على قيام كل فرد من أفراد المجتمع بواجباته المقدسة حتى وجد الاستعمار نفسه مرغما على التراجع يوما بعد يوم, إلى أن كان الاستقلال في النهاية ثمرة من ثمار مرحلة طريق الواجبات المقدسة في ضمير كل فرد عاش تلك المرحلة, وإذا كان هذا في الجانب السياسي فإن الأمر واضح أكثر في الجانب الاقتصادي إذ أن "كلمة

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي, ص144

[2] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص170

الواجبات تحدد اقتصادا معينا وكلمة حقوق تحدد اقتصادا آخر"[1]. ورغم وضوح هذه الرؤية إلاّ أنه مازال في مجتمعنا:"تيار جارف ينادي بالحقوق ويغفل عن أداء الواجبات وهو تيار ضار ما في ذلك شك, لأنه ينسى التشابك والارتباط المتبادل الموجود بين هذين المفهومين الأخلاقيين"[2].

ومصير أمتنا مرهون بطبيعة الطريق الذي تسلكه لتحقيق حلم النهضة إذ: "بقدر مانختار طريق الواجبات أو طريق الحقوق نقرر في الحقيقة مصير المجتمعات ثقافيا وسياسيا وعسكريا, أي مصير الدول ومصير الأمم"[3], فالأمر واضح جدا إذ أن اختيارنا لطريق الحقوق هو الذي جعلنا نعجز عن تحقيق أهدافنا الكبرى المتمثلة في العودة إلى الحضارة بعد أن خرجنا منها منذ ما يزيد عن سبعة قرون, ومنه فـــ: "ليس الشعب بحاجة إلى أن نتكلم له عن حقوقه وحريته, بل أن نحدد له الوسائل التي يحصل بها عليها, وهذه الوسائل لا يمكن إلاّ أن تكون تعبيرا عن واجباته"[4], لأن الحركية التاريخية لمجتمع ما مرتبطة لزوميا بما يقوم به كل فرد من أفراد هذا المجتمع من النشاط ف:" المجتمع الحي هو المجتمع الذي يعمل ويكد ويتعب حتى يستحق الجزاء. وإذا كان العمل العادي كافيا في البلدان المتقدمة فأضعافه بل أضعاف أضعافه لا تكفي في البلدان السائرة في طريق النمو للحاق بركب العالم المتمدن"[5].

ولهذا يجب علينا أن نفكر في مسؤوليتنا الفردية والجماعية اتجاه أنفسنا كأفراد وكأمة واتجاه غيرنا من أفراد الإنسانية الذين قد تكون لهم حقوق علينا, ويكون لنا شرف خدمتهم, إذن يجب أن نغير ما بأنفسنا من تصورات ساذجة وخاطئة وأن ندرك أن هناك علاقة لزومية بين الحق والواجب أي:" أن الحق ملازم

---

1 مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص120
2 عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص135
3 مالك بن نبي: مجالس دمشق , ص21
4 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص143
5 عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص138 و139

للواجب, وأن الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغير ما بنفسه إنه لقانون سام... غير نفسك تغير التاريخ"[1].

والسياسة لن تكون ناجحة إلاّ إذا كانت المائدة التي يجتمع حولها السياسيون هي مائدة الواجبات لا مائدة الحقوق, أي إذا كان اجتماعهم يهدف إلى تقسيم الأدوار التي يقوم بها كل واحد منهم لخدمة أمته, حينها فقط ستتكامل الجهود وتتحد فيما بينها لتحقيق أهداف الأمة وغاياتها, أما إذا كان اجتماعهم حول موضوعات الحقوق والغنائم, فسوف يحدث التنافر والصراع والتآمر, لرغبة كل طرف في الحصول على النصيب الأكبر من السلطة والنفوذ لاعتقاده بأنه أولى من غيره, وفي هذه الحال ينسحب الشرفاء ويتهافت الانتهازيون حول مائدة الحقوق فتضيع مصالح الأمة وتُخرب المنجزات بعد أن يعم الفساد, وعن هذا يقول بن نبي:"أما الحق ... فما أغراها من كلمة ! إنها كالعسل يجذب الذباب ويجذب الانتفاعيين, بينما كلمة الواجب لاتجذب إلاّ النافعين. وكلمة الواجب على الصعيد السياسي توحد وتؤلف, بينما كلمة الحق تفرق وتمزق"[2].

ب2 ـــ انسجام عمل الفرد مع عمل الدولة :

يرى مالك بن نبي أنه لايمكن لرجل السياسة أن يخرج من دائرة الدروشة و البوليتيك ـــ التي سبق وأن أشرنا إليها ـــ إلاّ إذا استطاع أن يفهم تعقيدات الظاهرة السياسية وخصوصا في علاقتها بالسنن والقوانين التي تحكم عالم الأنفس من جهة, ومن جهة ثانية قواعد علم الاجتماع, والطبيعة المثلى والنموذجية للعلاقات الاجتماعية أفقيا وعموديا, مما يعني أن أزمتنا في المجال السياسي تعود إلى الجهل المركب للقواعد التي يخضع لها الفعل السياسي الناجح وهو ما أشار إليه بن نبي إذ يقول:"ولا شك في أن الأزمة السياسية الراهنة تعود في تعقيداتها إلى أننا نجهل أو نتجاهل القوانين الأساسية التي تقوم عليها الظاهرة السياسية, والتي تقتضينا أن ندخل في اعتبارنا دائما صلة الحكومة بالوسط الاجتماعي, كآلة مسيرة له, وتتأثر به في

[1] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص100
[2] مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص34 و 35

وقت واحد, وفي هذا دلالة على مابين تغيير النفس وتغيير الوسط الاجتماعي من علاقات متينة"[1].

وحتمية العلاقة بين الوسط الاجتماعي والدولة ترهن نجاح السياسة كأداء تنظيمي يقوم بدور التوجيه والتسيير للطاقات الاجتماعية, بشرط أساسي وهو أن يكون عمل الفرد وعمل الدولة في نفس الاتجاه أي متكاملين ومتجانسين:" ولا يمكن لتجانس كهذا أن يتحقق في غير ضمير الفرد, باعتباره مصالح حيوية مشتركة ومسلمات متفق عليها بين جمهور من الناس يكوّن جسم الأمة واجتماعها. فإذا تضاربت المصالح واختلفت المسلمات فلن تكون السياسة سوى دكتاتورية كما تعرفها بكل أسف كثير من بلدان العالم الثالث"[2].

وهو ما يؤدي إلى فقدان عنصر الثقة بين الطرفين واتساع الهوة بينهما وبالتالي سيادة الفوضى و اللافعالية في الأداء السياسي, حينئذ تصبح السياسة عاجزة عن:"تحريك الطاقات الاجتماعية الموجودة في اتجاه معين, نحو هدف محدد يدركه أغلبية المواطنين. إن التعاون بين الدولة والفرد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي هو العامل الرئيسي في تكوين سياسة تؤثر حقيقة في واقع الوطن"[3]. ولعل غياب الانسجام الحقيقي بين عمل الفرد والدولة يشكل ثغرة كبيرة في الحياة السياسية العربية[4], قد توظفها مخابر الصراع الفكري كلما تطلبت الضرورة ذلك, لهذا يجب:"على الحكومات الإسلامية أن تعمل جاهدة من أجل كسب ثقة رعاياها وأن تدرك وتعي بأنهم إذا فقدوا الثقة فيها لم يبق أي أساس للدولة"[5], ويتم تحقيق ذلك من خلال قيام السياسيين ب:"إعادة ترميم شبكة العلاقات الاجتماعية, وإعادة العلاقة المنطقية بين الحاكم والمحكوم من أجل وضع بواعث ومسوغات

---

1 مالك بن نبي: شروط النهضة , ص 34
2 مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص 82
3 المصدر نفسه , ص 82 و83
4 الأخضر شريط: مفهوم الانسان العربي الجديد بين البناء الثقافي والبناء الاجتماعي,مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net , السنة الثالثة ,العدد27, مارس(أذار) 2006.
5 يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث , ص134

للنهوض, وينبغي أن تكون السياسة في خدمة الفرد حتى لا نقطع التفاعل بين الدولة والفرد"[1].

وعليه فإن الانتصارات السياسية وصناعة الأحداث العظيمة التي تغير مجرى التاريخ في حياة أمة من الأمم هي وليدة تلك الجهود المتجانسة التي يقوم بها كلٌ من الفرد والدولة معا وعن هذا يقول بن نبي:" فالإيديولوجية تتطلب إذن خمائر أخرى, تتضمن الوحدة الضرورية بين عمل الدولة وعمل الفرد لإنجاز مهمات بعيدة ترتكز على الثقة والبطولة, والخمائر هذه هي التي تعطي حسب جوهرها القيمة, الجليلة والحقيرة, للسياسة أمام التاريخ"[2].

إذن لن يحقق الفعل السياسي غاياته وأهدافه التي وجد لأجلها إلاّ إذا تبناه كل فرد من أفراد المجتمع واقتنع بجدواه وعمل جاهدا لتحقيقه على أرض الواقع : "فالسياسة لا تستطيع أن تكون العمل الذي تقوم به الأمة كلها, إلاّ بقدر ماتكون مطبوعة في عمل كل فرد منها"[3]. وهو الشرط الذي لم يتحقق في عهد الاستعمار فدفع به إلى الإفلاس رغم امتلاكه ترسانة مادية وقانونية قوية, وتوظيفه لها في الميدان لأجل تجسيد طموحاته التوسعية.

مما يؤكد أن تعارض جهود الدولة مع جهود الأفراد يؤدي حتما إلى التوقف عن السير باتجاه الأحسن, ويبيِّن بن نبي هذا بقوله أن:"إفلاس الاستعمار في المستعمرات كان محتوما, طبقا لقانون التعاون الضروري الذي كان مستحيلا بين الاستعمار والإنسان المستعمر, ولا يعني هذا أن الاستعمار لم يحاول مواجهة المشكلة هذه بفصل المسلم عن الإسلام إلا أنه باء بالفشل"[4].كما أثبتت التجارب:"أن فقدان الثقة بين الدولة والجماهير عامل أساسي في سقوط الدول وانتشار الفوضى واللاأمن في المجتمع"[5].

---

1 عبد القادر بوعرفة: "الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي" , د ط ,دار الغرب , الجزائر, د ت, ص74
2 مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص 84
3 المصدر نفسه , ص81
4 المصدر نفسه , ص 85
5 يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث , ص92

وهذا الانسجام بين عمل الفرد وعمل الدولة هو ذو طبيعة معنوية أخلاقية منفصلة عما هو حسي مادي متغير, وزائل فهو مرتبط بالجانب النفسي في شخصية الفرد لأنه لا يمكن لأي فكرة أن تصمد أمام عواصف التاريخ وأن تدافع عن بقائها من خلال مواجهة التحديات المصيرية التي تواجهها الأمة مالم تستند هذه الفكرة إلى عقيدة يقينية يقينا مطلقا .

وهذا اليقين المطلق الذي يؤمن به الفرد هو الذي يجعل تعاونه مع الدولة قائما على أساس صلب ومتين ويدفعه للتنازل عن بعض حرياته لصالح الجماعة نظرا لما يترتب عن ذلك في نظره من أهداف ذات أبعاد مقدسة قد تجعله لا يكتفي بالتنازل عن حرياته بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو التضحية بحياته وممتلكاته في سبيل القضية التي أصبح يؤمن بها:"والتاريخ من عهد (الفيران) في روما , إلى شهداء بدر, إلى أبطال ستالينجراد ليس إلاّ شرحا لهذه الحقيقة , فالتعاون بين الدولة والفرد, لابد له من جذور في عقيدة تستطيع وحدها أن تجعل ثمن الجهد محتملا مهما كانت قيمته لدى صاحبه, فيضحي هكذا بمصلحته, حتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره"[1].

فلا يمكن إذن للأمة أن تواجه التحديات المصيرية في حياتها إلاّ بفكرة عليا مقدسة:"إذ أنه لا يستطيع مجابهة أهوال الزمن إلاّ جهد تدعمه عقيدة لايعتريها الشك أبدا, أمّا الجهد المدعم بمصالح عاجلة فإنه لا يفتح الطريق لغير سياسة قصيرة محدودة المدى"[2], لأن الأفكار المرتبطة بما هو مادي بحت و بعبارة أوضح الثورات التي ترتبط بأهداف مادية عاجلة يكون مصيرها التراجع بعد إشباع حاجاتها اليومية, وسبب هذا التراجع أو التوقف عن السير هو تحقُق أهدافها المتمثلة في المطالب البيولوجية البحتة, الأمر الذي يدفع بالأفراد إلى التهاون والتكاسل واللامبالاة ومن ثمة تحطيم كل البناء الذي بُذلت من أجله جهود جبارة وربما سالت دماء الأبطال

---

[1] مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص85
[2] يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث , ص91

والأبرياء معا لأجل تحقيقه وهذا هو مصير الثورة الماركسية التي قامت على أهداف مادية عاجلة مرتبطة بالجانب البيولوجي عند الإنسان[1].

ولعل مثل هذا التحليل الموضوعي الصادر عن نظرة ثاقبة للأمور والقائم على حجج وبراهين قوية هو ما كان يقلق بعض الشيوعيين الجزائريين في عهد الاستقلال ويجعلهم يتربصون بمالك حيا وميتا.

إن النهضة والتطور مرتبطان أساسا بذلك الالتزام الذي يبديه كل فرد في المجتمع اتجاه وطنه وأمته, وتجسيده فعليا على أرض الواقع من خلال أداء واجبه اليومي مصحوبا بالشعور بمدى أهمية هذا النشاط مهما كان يبدو صغيرا في تلك الحلقة المتكاملة من النشاطات التي يقوم بها بقية الأفراد لهذا يقول بن نبي:"إن الانضباط النفسي الذي يتحلى به أولئك الذين سيتناولون بعد الكفاح المسلح, المحراث أو المطرقة, القلم أو المبضع, الميزان أو أي أداة أخرى للعمل, إن هذه الأجيال المستمرة في اتجاه مرسوم, والمثابرة عليه هي التي تصنع الدولة على الصورة المتلائمة عضويا مع طبيعة هذا الدأب المستمر وأهدافه"[2].

وإتمام استقلال الدولة وبناؤها يكون بالحد من استقلالية الفرد ولكن من خلال التزامه لا إلزامه بمعنى أن الفرد هو الذي يُسلِّم بنصيب من حريته أو يتنازل عنها بمحض إرادته لتحقيق ما هو أسمى من ذلك[3].

ولن يتنازل الفرد إلاّ إذا كان قد تلقى تربية أخلاقية تجعله يشعر بقدسية الواجب حينها فقط يمكنه أن يقدم التزاما أمام المجتمع للقيام بكل واجباته والتنازل عن بعض حرياته التي تتعارض مع جهود غيره في عملية البناء الحضاري لذا يجب أن يكون التركيز على الجانب الأخلاقي لا على الجانب الشكلي المتمثل في ضبط العلاقات الاجتماعية بين الأفراد أو بين الحاكم والمحكومين بسن قوانين معينة, إذ رغم ما لهذه القوانين من أهمية في قمع الجانب الشرير عند الإنسان إلاّ

[1] مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص85
[2] المصدر نفسه , ص 40
[3] المصدر نفسه , ص 46

أنها لن تحقق غايتها مالم يكن هناك عمل تربوي موازٍ لها يُشعر الفرد بدوره الرسالي الخالد وبمدى مسؤوليته وما يترتب عنها من انعكاسات على حياة الأمة والمجتمع.

وبهذا العمل التربوي فقط يحصل الانسجام سواء فيما بين أفراد المجتمع, أو بين السلطة الحاكمة والشعب المحكوم, ليبقى بعد ذلك الجانب القانوني, صورة مبسطة وشكلية لما يتمثله الأفراد في تصوراتهم للحياة ولطبيعة الأدوار التي يقومون بها في مسيرة البناء الحضاري للأمة.

أما إذا تم التركيز على هذا الجانب الشكلي فقط, وأُهمل الجانب التربوي الذي يقوم على الشعور بالمسؤولية فإن الغاية من وجود الدولة في ذاتها لن تتحقق لأنه في غياب الضمير الأخلاقي الموجه للسلوك الإنساني, نجد أن العقل الذي كشف القوانين لتنظيم العلاقات الاجتماعية أفقيا وعموديا, أي بين الأفراد فيما بينهم من جهة, ومن جهة أخرى بين الحاكم والمحكوم ,فإنه قادر أيضا على خرقها وتجاوزها مع التبرير ولِمَ لا التحايل عليها بعد الانتباه إلى ثغراتها.

لهذا يرى بن نبي أنه:"إذا أردت أن تصلح أمر الدولة ,فأصلح نفسك"[1].

وعليه فإن إصلاح أمر الدولة لن يتم إلا بتغيير ما بالأنفس من أمراض وعقد مكبوتة على مستوى اللاشعور الجمعي لأمة طال تخلفها وانحطاطها بالإضافة إلى تصحيح الكثير من المفاهيم والتصورات الخاطئة أحيانا والساذجة في أغلب الأحيان, وفي هذا الشأن يقول الأخضر شريط:" علينا أن نرسخ في الأجيال أن غنى الفرد من غنى أفكاره وأن إفلاسه من إفلاس أفكاره"[2].

---

[1] المصدر نفسه , ص 40

[2] الأخضر شريط: مفهوم الانسان العربي الجديد بين البناء الثقافي والبناء الاجتماعي,مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net , السنة الثالثة ,العدد27, مارس(أذار) 2006.

ب3 ــ ربط السياسة بالأخلاق والعلم:

يرى مالك بن نبي أن الوضع السياسي للعالم العربي, وضع غير أصيل, أي أنه غير نابع من ذاتية الأمة المختلفة عن غيرها بسماتها الخاصة ومميزاتها الحضارية الأمر الذي يؤدي إلى عجزه عن تحقيق الأهداف والغايات المرجوة منه إذ يقول:" والواقع أن الفكر السياسي الحديث في العالم الإسلامي هو ذاته عنصر متنافر فهو اقتباس, لايتفق وحالة ذلك العالم, والمسلمون في هذا الميدان أو في غيره من الميادين لم ينقبوا عن وسائل لنهضتهم بل اكتفوا بحاجات قلدوا فيها غيرهم, وأشكال جوفاء إلاّ من الهواء"[1], وهذا يؤكد أن النهضة لا يمكنها أن تتحقق بتقليد نماذج سياسة جاهزة أنجزها الغير تحت ضغط ظروفه التاريخية وبيئته الثقافية الخاصة به, وإنما تتحقق بإيجاد منهج قادر على إحداث تركيب تفاعلي بين شروط النهضة المتمثلة في الإنسان والتراب والوقت.ولهذا فـ:"إن الخطوة الأساسية هي في أن يتوجه الفكر السياسي الحديث إلى دراسة ممحصة للواقع تشريحا وفهما, حتى يمكن بعد ذلك إدراك العناصر المكونة على حقيقتها, لكي تصاغ الأهداف والخطط على أساس تقدير سليم للطاقات والثروات وبناء الإنسان في جو ثقافي ملائم للتركيب الحضاري الجديد"[2].

ويركز بن نبي كثيرا على ضرورة الجمع بين الجانبين الأخلاقي والعلمي في الممارسة السياسية:" فالسياسة [عنده] لابد لها أن تكون أخلاقية, جمالية, علمية, لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ"[3]. أي استبعاد التحايل والخداع والمكر من العمل السياسي وربطه بالجانب الأخلاقي من جهة, ومن جهة أخرى مراعاة الشروط الموضوعية لتحقيق الغايات والأهداف المرجوة من خلال اعتماد المنهجية الواضحة في العمل, فالفعالية مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود عمل واضح المعالم يقوم على مقاييس واقعية بعيدة عن مثالية الصالونات وما يدور فيها من ترف فكري منفصل عن متطلبات الأمة وإمكاناتها الحقيقية, بالإضافة إلى ضرورة عرض الأفكار

1 مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص 97
2 أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص209
3 مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص 135

والمشاريع للمناقشة والإثراء من طرف مختلف التيارات المتواجدة فعليا في المجتمع, فالمشاريع السياسية الناجحة, هي ثمرة الحوار الداخلي الجاد والبناء بين مختلف المدارس الفكرية والتيارات السياسية المكونة للدولة[1].

وحتى لايكون النشاط السياسي مجرد فوضى ودروشة تجمع بين السذاجة والخرافة والأسطورة من جانب والخداع والمكر والنفاق من جانب آخر, يجب أن يقوم على أساس علمي, أو بالأحرى تكون بمثابة علم اجتماع تطبيقي, ولتحقيق هذا:" يجب أن يقوم على مبدأين:1 – أن نتبع سياسة تتفق و وسائلنا.

2 – أن نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا"[2].

أمّا المبدأ الأول فيعني به بن نبي أن أي انطلاقة نهضوية, أونجاح للنشاط السياسي, فإنها مرهونة بالاعتماد على العناصر الأولية المتوفرة بين أيدي جميع الأمم والمتمثلة في: الإنسان والتراب والوقت. فهذه العناصر رغم ماتبدو عليه من بساطة للوهلة الأولى إلاّ أنها كفيلة بتحقيق انطلاقة حضارية موفقة, وما الحضارات المختلفة التي عرفتها الإنسانية إلاّ نتاج لتفاعل هذه العناصر فيما بينها. هذا دون أن نهمل ما تمنحه لنا المصادفات التاريخية أو واقع العصر من إمكانات ووسائل ثانوية تكمل نشاطنا أو تسرع به وتنظمه أكثر.

وأمّا المبدأ الثاني فيعني به ضرورة إبداع آليات العمل السياسي الخاص بنا والمتوافق مع الخريطة النفسية والاجتماعية لأمتنا, إذ أن النماذج السياسية غير المتوافقة مع الخصوصيات الثقافية للمجتمع الذي تطبق فيه ستصطدم بعدم الانسجام بين أعمال الأفراد وعمل السلطة واصطدام الجهود دائما يهدم ولا يبني.

ويحدد مالك بن نبي ثلاثة شروط أساسية مطلوبة لنجاح النشاط السياسي تتمثل في تحديد الأهداف والغايات بدقة ووضوح ثم تحديد آليات تجسيد هذه التصورات في الواقع اليومي ثم العمل على توفير الحماية لها من أي انحراف

---

1 مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه , ص 94 و95

2 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص 99

محتمل, إذ يقول موضحا:" والعمل السياسي إذن يقتضي في مستوى الدولة شروطا ثلاثة على الأقل:

أولا : تصور العمل, أي تحديد السياسة بأكثر ما يمكن من الوضوح.
ثانيا : تصور وسائل تحصين هذا العمل من الإحباط, حتى لايبقي حبرا على ورق
في نص الدستور أو ميثاقا أو مجرد لائحة
ثالثا : تصور جهاز يحفظ المواطن من إجحاف العمل, إذا تعدى عن جهل أو سوء نية, من يقوم بتنفيذه"[1].

ولعل السياسة في العالم الإسلامي أحوج ما تكون لهذه الشروط المهمة كيف لا؟ والملاحظة اليومية تؤكد ذلك الانحراف الخطير الذي يقوم به بعض الأفراد تحت مظلة القانون والدولة لحماية مصالحهم الخاصة وتوسيع الهوة بين الحاكم والمحكوم إذ:"قد ترى أحيانا القانون في يد من ينفذه, يتخذه أداة يقضي بها مصالحه, والويل إذن للمواطن الذي يكون تحت رحمة, طاغية صغير يخضع باسم الدولة لهواه, أو لإدارة خفية "[2].

وإذا كان مصير الأمة مرهونا بثقة المواطن في القائمين على الشأن السياسي وتعاونه لإرادي معهم, من باب الشعور بالواجب والمسؤولية الفردية, والرغبة في الازدهار والتقدم, فـ:"ينبغي إذن حماية المواطن من هذا الاختلاس وذلك التحطيم اللذَين من شأنهما أن يضعا المواطن ضد الدولة وضد النظام فمن المصلحة العليا أن نضع من أجل المواطن جهاز دفاع يحميه من عملها حين يصبح هذا العمل إجحافا"[3].

ومن متطلبات السياسية الناجحة أنها توجه عمل الدولة في الاتجاه الصحيح الذي يخدم مصلحة المجتمع من جهة ويحافظ على بقائها واستمراريتها من جهة أخرى, وكذا إنشاء أو تأسيس جهاز للرقابة أو النقد الذاتي يتولى السهر على متابعة

---
[1] مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه , ص 101
[2] المصدر نفسه , ص 101
[3] المصدر نفسه , ص 101

تنفيذ مختلف المشاريع الإستراتيجية التي تقوم بها الدولة, بالإضافة إلى إنشاء جهاز لحماية المواطن من تسلط الدولة نفسها عليه حتى تتم المحافظة على تلك القيم الأخلاقية والمعنوية التي تجعل عمل الفرد منسجما مع عمل الدولة, كما يجب على السياسة أيضا أن تسعى لمنح ذلك التوتر الخلاق الذي يحرك الطاقات الاجتماعية[1]. والسياسة الناجحة التي تستطيع تحقيق أهدافها, هي تلك السياسة التي تكون غايتها متطابقة مع عاملين أساسيين:

فأما الأول فيتمثل في التطابق مع التطور الطبيعي للأمة, أي يراعي الظروف المحيطة والإمكانات المتوفرة لتحقيق الهدف ولا تقتصر الإمكانات على الجانب المادي بل تتجاوز ذلك بكثير إلى مستوى الوعي في المجتمع وكذا طبيعة التركيبة النفسية للأفراد وخلوها من الأمراض الاجتماعية المختلفة ومدى استعدادها للتضحية والصمود في ساعات الشدة إلى غير ذلك من الشروط الموضوعية والذاتية.

وأمّا الثاني فيتمثل في التطابق مع مصير الإنسانية كلها, فتلك السياسة التي تربط أهدافها الكبرى بما لايتناقض مع مصير الإنسانية جمعاء هي الغائب الأكبر عن الساحة العالمية, وعلى مستوى العلاقات الدولية. إذ أن الرأي العام العالمي يشعر بفراغ رهيب نتيجة هذا الغياب الطويل لهذه السياسة الأخلاقية العادلة التي تكرم الإنسان كإنسان بغض النظر عن لونه وعرقه ودينه, وتربط مشاريعها وأهدافها بمصيره حيثما وجد ولن يملأ هذا الفراغ إلاّ ذوي العقول الراجحة من أصحاب القيم الخالدة[2].

[1] المصدر نفسه, ص 88
[2] مالك بن نبي : بين الرشاد و التيه , ص 88

ت ـ إعادة تفعل الدور الاجتماعي للدين:

يرى مالك بن نبي أن للعنصر الديني أهمية كبرى في تطور المجتمعات, أي من خلال تحويله للطاقة الاجتماعية إلى نشاط جماعي مشترك, وأنه يتدخل مباشرة في تحديد سمات الشخصية عند الفرد, كما أن تأثيره يظهر بطريقتين مختلفتين إذ يدفع بالفرد في حالة الفعالية للمساهمة في النشاط الاجتماعي المشترك, إلاّ أنه عندما يتحلل, فإنه ينشئ جوانب مرضية في شخصية الفرد تعيق النشاط المشترك وتجعله مستحيلا ويؤكد هذا بقوله:" يدخل [الدين] مباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد, وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا لدى الفرد, وكان هذا النشاط لدى الفرد سببا في وجود النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ"[1].

وهذا يعني أن العنصر الديني حينما يؤدي وظيفته الاجتماعية يقوي شبكة العلاقات ويشدها إلى بعضها البعض, وحينما ينحل ويفقد فعاليته الاجتماعية فإنه يؤدي إلى تحلل هذه الشبكة وتمزقها[2], مما يعني أن للدين تأثير كبير وأهمية قصوى في عملية البناء الحضاري ويتضح هذا أكثر من خلال الخلاصة التي توصل إليها بن نبي في قوله:"وهكذا يظهر لنا من وجهة علم النفس أن العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد, وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقع في تصرف (أنا) الفرد ثم توجيه هذه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع, تبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ"[3].

ويمتد هذا التأثير البارز للعنصر الديني على حياة الفرد إلى تفعيل علاقة الإنسان بالوقت من جهة وبالتراب من جهة ف:" يجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر, وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط مجالا مجهزا

---

[1] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع, ص 72

[2] الأخضر شريط: فلسفة عالم الأشخاص والبناء الحضاري عند مالك بن نبي,"بونة للبحوث والدراسات ", مجلة دورية محكمة, تعني بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية, العددان الرابع والخامس , ديسمبر2005,يونيو2006, ص151

[3] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع, ص 74

مكيفا تكييفا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج"[1], ومن ثمة فالوظيفة التركيبية للدين تظهر في كونه:"يؤدي إلى كافة العمليات التغييرية الاجتماعية المهمة في الإنسان والوقت والتراب وما يتبعها من معطيات نفسية تتحقق من خلال حركة المجتمع وانتقاله من مرحلة السكونية إلى المرحلة الديناميكية الحضارية إذ أن العناصر الثلاثة تظل في حالة سكونية إلى أن يتدخل الدين بصفته قوة أساسية تحدث التآلف والتركيب الحضاري"[2].

كما أن سبب اعتبار الدين عامل أساسي من عوامل التغيير يرجع للوجود الزمني والنفسي للإنسان, أمّا الأول فمرتبط بالحاجات المادية التي يسعى إليها الإنسان وأمّا الثاني فهو ذو طابع معنوي لذا فحاجاته هي الأخرى ذات طبيعة روحية, وهذا هو جوهر حقيقة الإنسان إذ أنه مزدوج الطبيعة فمن جهة له حاجات مادية تؤثر على سلوكاته لارتباطها بوجوده الزمني, ومن جهة ثانية له حاجات روحية هي الأخرى لها قدرتها على توجيه سلوكاته ــ بل قدرتها أعظم ــ نظرا للترابط والتداخل القائم بين الجانبين السلوكي والنفسي عند الإنسان, ومنه فإن كل مشروع نهضوي يُهمل أحد الجانبين المكونين لجوهر الإنسان والدالين على حقيقته سيكون مآله الفشل, مما يعني بكل وضوح أن للجانب الديني الروحي دورا أساسيا في عملية التغير الاجتماعي[3].ومنه فإن إعادة تفعيله قد تكون أداة:"توتير الوعي وتثويره عند إنسان ما بعد الموحدين"[4].

إذ أننا:" نرى أن كل مايغير النفس يغير المجتمع, ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية ولو أننا استطعنا أن نتتبع في دقة عمل الفكرة الدينية إبان ولادتها فربما أصابتنا الدهشة لما نشهده في عملها من جوانب غير متوقعة"[5], وهذا ما يفسر :"دخول الدين

---

[1] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص 123
[2] نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , ص273 و274
[3] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص 155
[4]حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات , مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص333
[5] مالك بن نبي : تأملات ,ص 80

في الجدلية النفسية والاجتماعية في ذات الفرد وبينه وبين المجتمع في الدورة الحضارية, وأن الدين هو منشئ الحضارة"[1], بل هو الذي :"يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ, وتُحقق في عالم الإنجاز"[2].

وبناء على ما سبق يؤكد مالك بن نبي أن هناك أمرين أساسيين, يمكن لكل مجتمع مهدد بالانهيار والغرق أن ينقذ نفسه بهما وهما: الدين والحضارة, فأما الدين أو العقيدة فهي الوسيلة التي يتم بواسطتها سير سفينة الحياة وسط الأمواج المتلاطمة وعواصف التاريخ الهوجاء, وأمّا الحضارة فهي ذلك الميناء الآمن الذي يجب أن نصل إليه, ومنه فإن المجتمع الإسلامي المعاصر مطالب بإنقاذ سفينته من الغرق بواسطة دينه:"لأن الدين هو الوسيلة الوحيدة لديه ليسير إلى مأمنه, بل والمأمن بالنسبة إلى سائر المجتمعات فالأمر لايختلف من مجتمع إلى آخر فالمأمن هو الحضارة"[3], ويوضح الطيب برغوث هذه الفكرة من خلال قوله إن:"الإسلام عند مالك بن نبي هو الثروة الخالدة في يد المسلم, في كل الظروف وفي جميع المراحل التي يمر بها في حياته, فمادامت هذه الثروة موجودة فإن المسلم يظل مالكا للقوة الحقيقية للنهوض الحضاري, فلو وعى المسلم حقيقة الإسلام لأدرك مقدار ما يملكه من قوة فكرية وروحية وإرادية وأخلاقية استثنائية عجيبة, هي مصدر وأم بقية الثروات الأخرى"[4] وذلك لأن العقيدة الدينية:"هي العنصر الأول في بناء الحضارة والعناصر الأخرى كالعلم والاقتصاد وغيرها, إنما هي خاضعة لهذا العنصر الرئيسي, فإذا فقدت سلطانها على هذه العناصر اندفعت تلك القوى إلى غاية غير واضحة, وتغلبت عليها إذ تلك الأهواء التي توجهها بصورة عكسية لأسس الكيان الحضاري"[5].

وهذا يستدعي ضرورة عمل المسلم على التفكير والتوجيه السليم لاختيار المسوغات الملائمة لخلق التوتر في هذا المجتمع من جديد ولا شك أن أسمى

---

[1] نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي , ص284
[2] بدران بن مسعود بن الحسن:الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري, أنموذج مالك بن نبي, ص106
[3] مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص 61
[4] الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي , ص53
[5] سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر, ص284

المسوغات هي تلك المرتبطة بعالم الغيب, أو بعبارة أخرى بالبعد الديني لأنها تتضمن الكمال المطلق, وهذا الأخير يساهم بدرجة أقوى في خلق توتر دائم مرتبط بذلك الشعور الملازم للمسلم والمتعلق بدوره الرسالي في العالم الأرضي, و:"إذا علمنا بأن الدين الإسلامي مثلا, يدعو ويلح في دعوته هذه على قيم التسامح , والإخاء, والسلم, والعدل, والمساواة, والتعاون, والعلم, والعمل, والعزة, وأنه في الوقت نفسه يشدد على كل مايتنافى مع هذه القيم الأخلاقية السامية, علمنا عندئذ الطبيعة السامية لهذا الدين وتعرفنا على ثقل تأثيره في النفس والمجتمع"[1].

وتحقيق هذا يقتضي ضرورة إرجاع الفاعلية و القوة الإيجابية إلى العقيدة : "فالمسألة لاتتمثل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدته ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها و فعاليتها في الحياة, إلاّ أن المصلحين قد أغفلوا وضع هذه المشكلة"[2] أي أن المسلم اليوم ليس بحاجة إلى من يبرهن له على وجود الله, بل بحاجة ماسة إلى من يشعره بوجوده[3] حتى يستطيع التخلص من ذلك الانفصام الذي أصابه في حياته اليومية, فهو من جهة أشد حرصا على إقامة الشعائر التعبدية في أوقاتها وأماكنها المخصصة لها وأشد تأثرا بتلك الخطب التي يلقيها الوعاظ والدعاة إلى درجة حفظها وتكرارها أمام غيره, ولكن من ناحية السلوك والمعاملة قد لا نجد أحيانا مايدل على أن هذا السلوك يقوم به فعلا مسلم يؤمن بوجود إلــه وبوجود عالم الغيب والشهادة الذي يرد إليه الناس جميعا, إذ أن نظرته إلى العلاقة بين الدنيا والآخرة التي يؤمن بها يشوبها غموض وخلط, فهو إذا تذكر آخرته كان أشد الناس حرصا عليها من خلال إقامة الشعائر التعبدية, وإن هو تفرغ من عبادته غاص في ملذات الحياة الدنيا ومتاهاتها الملتوية والمظلمة إلى درجة أنه ينسى آخرته التي كثيرا ماأصر وحرص على الرغبة في الفوز بها.

وأمام هذا الوضع فمالك لايرى الحل في تجديد علم الكلام الذي يبحث في الأدلة العقلية للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات وجود الله ووحدانيته, وإنما يرى

[1] محمد بغداد باي: التربية والحضارة , ص73
[2] مالك بن نبي : القضايا الكبرى , ص 123
[3] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص 54

ضرورة تأسيس علم جديد يعيد ل:"العقيدة فعاليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي وفي كلمة واحدة, إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله, بقدر ماهي في أن نشعره بوجوده, ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة"[1]. وهذا مايؤكد أن:"المسلم في جميع أطوار تاريخه لم تكن مشكلته مع العقيدة وإنما مشكلته تكمن في عدم شعوره بذاته, فدور الدين يتجسد في إعادة الشعور الحيوي للذات من أجل الانتصار لفكرها وحاضرها, ودور الدين لايقتصر على ترسيخ العقيدة وملة الأجداد, فمشاكل الأجيال المتعاقبة, مشاكل حضارية أكثر منها عقائدية كلامية"[2].

وهذا العلم الجديد ينبغي أن يُحدث تغييرا جذريا, وإن شئت انقلابا حقيقيا في الجانب النفسي للمسلم حتى يستطيع التخلص من مختلف العقد والرواسب الموروثة عن عهد مابعد الموحدين أو مانسميه بعصر الانحطاط والتخلف إذ لايمكننا أن نحقق عودتنا الحضارية بإنسان مثقل برواسب الماضي, بإنسان مُنهار ماديا ومعنويا, ومقيد بعقد نفسية تمتد عبر أعماق تاريخه إلى مايزيد عن سبعة قرون, وعلاج هذا لايتم في نظر بن نبي إلاّ بواسطة علم لم يظهر بعد وعنه يقول: "وتغيير النفس معناه, اقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف, وليس هذا من شأن علم الكلام بل هو من شأن منهاج التصوف, أو بعبارة أدق هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله"[3]. ويضيف عبد القادر بوعرفة إلى هذا أن: "تجديد الصلة بالله يفرض على المثقف ضرورة الوعي بجوهر الدين للفصل بين الدين كعقيدة تستدعي الثبات, وبين الدين كمنهج حياة يفرض ضرورة التغيير"[4].

ومن هذا المنظور يجب على المسلمين الشعور بالمسؤولية اتجاه مصير أمتهم, وأن لا ينحصر عندهم التقرب إلى الله في إقامة الشعائر التعبدية, بل يجب أن يشمل أيضا الاهتمام الاجتماعي لأن:"العقيدة الإسلامية هي عقيدة اجتماعية, ولابد أن نعلم العالم الإسلامي كيف يستعملها كأداة اجتماعية من جديد"[5], ويكون ذلك من

---

[1] المصدر نفسه , ص 54

[2] عبد القادر بوعرفة: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي , ص70و71

[3] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي, ص54

[4] عبد القادر بوعرفة: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي , ص71

[5] يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث , ص121

خلال العمل اليومي لأجل إصلاح حال الأمة وتوجيه أبنائها وتنبيههم لطبيعة المخاطر التي تواجههم, والسعي الحثيث لإيجاد العلاج للأمراض الاجتماعية التي تعاني منها أمتنا, والتي ماهي إلاّ حصاد أفعالنا غير القائمة على الأساس الصحيح[1], ومما سبق يتبين:"أنه ليس المطلوب الدفاع عن أصالة الإسلام, بل مجرد إعادة فعاليته إليه, بتحريكهم قواه الإنتاجية"[2], والانطلاق منه كمرجعية ملهمة وموجهة لحركة النهضة الإسلامية المعاصرة[3], وذلك لأن:"الإيمان ليس مجرد مشاعر في الوجدان أو تصورات في الذهن, لاترجمة لها في واقع الحياة, وليس هناك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية ليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله, لأن المسلم مطالب بأداء الشهادة لهذا الدين وبكل تكاليفها في النفس والجهد والمال"[4].

ومن ثمة يجب علينا أن نوسع مجال إدراكنا حتى نستطيع أن نؤدي مهامنا الرسالية ونبلغ رسالتنا للآخرين مؤيدين في ذلك بوعد الله بأن يُظهر دينه على الدين كله, ولكن لن يتحقق لنا ذلك مالم نجعل من كل نبضة من نبضات حياتنا تعبيرا عمليا عن إخلاصنا لما نؤمن به, وتجردنا لله لأجل تحقيق إرادته في هذا العالم الذي نعيش فيه, لأنه بدون ذلك:"يفقد الجهد الإنساني مبرراته النفسية العميقة وتذبل دوافع خيريته, وينزلق نحو دوامات الفعالية الاهتلاكية الهدمية, ويعرض منجزاته للاضمحلال"[5].

كما أنه يجب علينا أيضا أن نتجاوز مرحلة الجمود الفكري والعجز السلوكي من خلال الاستسلام للواقع المتردي أو الاعتقاد بجمود التاريخ والزمن, فالتاريخ في صيرورة دائمة, والحضارة مازالت تنتقل من رقعة جغرافية إلى أخرى وفقا لسن التداول الحضاري, ومؤشرات العودة الحضارية لأمتنا كثيرة ومتعددة أهمها هذا الشعور بالقلق الذي أصبح يعيشه المسلم يوميا معبرا بذلك عن رفضه للظلم والطغيان الذي تمارسه قوى الكيد العالمي.

---

[1] مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص139 و 140
[2] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص 118
[3] الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي , ص65
[4] سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر, ص129
[5] الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي, ص42

بل إن الآخر الذي جعل اليوم من الإسلام والمسلمين عدوه السياسي الأول بعد تخلصه من الشيوعية لأكبر دليل على أنه يدرك طبيعة تلك الطاقة الكامنة التي يمتلكها أبناء الأمة الإسلامية والتي إن استغلت كما ينبغي ستدفع بهم خطوات كبيرة إلي الأمام لاستلام مشعل الحضارة من أمة بدأت تعد أيامها الأخيرة من خلال عجزها عن تقديم القيم المعنوية عموما والأخلاقية على وجه الخصوص لمجتمع إنساني أصبح يُعبر بكل الطرق الشعورية واللاشعورية بأن الجانب المادي والبراغماتي مهما كان قادرا على الدفع نحو التطور إلاّ أنه لن يكون لوحده كفيلا بتحقيق الخلاص الحقيقي للإنسان في العالم الأرضي.

إذ يثبت التاريخ المعاصر:"أن العلم لايستطيع وحده بوسائله الخاصة إصلاح ما أفسده هو, ولعلنا نستطيع على الأقل تقويم هذا الفساد, و تقدير ثقله في التاريخ من خلال حربين عالميتين"[1].

فالبشرية في حاجة إلى تلك القيم الإنسانية و الأخلاقية ــ التي غالبا ما كانت محل سخرية من طرف الحضارة المادية ــ والتي لايمكن أن يكون مصدرها الحقيقي أرضيا على الإطلاق, لأنها يجب أن تكون عالمية ولعل القيم الأخلاقية العليا المستوحاة من السماء هي وحدها الكفيلة بتحقيق هذا الاستقرار الوجداني الذي أصبح المجتمع العالمي يبحث عنه بأي ثمن مادي[2] :"ولقد أكدت الفكرة الإسلامية فيما مضى صلاحيتها بطريقة بالغة التوفيق . لقد أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق, فجعلت منه إنسانا متحضرا ومحضرا"[3], و:"استمرت مسيرة الحدث الحضاري الإسلامي, حيث أعطى للبشرية جمعاء الكثير والكثير في مختلف ضروب العلم والمعرفة, في صورة لم تعهدها البشرية من قبل, ذلك لأن الإسلام يستجيب دائما لخصائص الواقع, ضمن متغيرات الزمان والمكان, متكيفا دوما مع الاستمرارية الحضارية, ومحافظا دائما على جوهر عقيدته وأصالة

---

1 مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص86

2 نشير إلى أن أعلى نسب الجريمة و الانتحار والتفكك الأسري موجودة في الدول المتطورة ماديا , مما يفسر أن التطور المادي للمجتمع لايمنع من الانحراف في غياب القيم الروحية والأخلاقية.

3 مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص107

قيمته"[1], أمّا اليوم فإن:"ترجمة روحية الإسلام إلى نظام اجتماعي عصري الطابع, يحتاج إلى رؤية واضحة متفهمة لمجريات العلاقات الدولية بين الشعوب على كافة المستويات الثقافية, والاقتصادية, والسياسية"[2].

---

[1] سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر, ص103

[2] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص174

ث ــ بناء الإنسان الجديد غير القابل للاستعمار:

ث1 ــ مكانته في خريطة النهضة :

يرى مالك بن نبي أن هناك ثلاث مراحل يمر بها الإنسان في صلته بالحضارة هي ماقبل الحضارة, وأثناءها, وما بعدها, لذا فهو يحمل بعض الرواسب التي تعتبر مصدرا للصعوبات التي يعانيها ولا يمكن علاجه إلاّ بإعادته إلى الحضارة من جديد ولذالك فحينما :" ندرس قضية الفرد على هذه الطريقة, فإننا نرى أنه مهما تكن مرحلتنا نحن الأمة العربية من الحضارة اليوم, سواء كانت قبل الحضارة أم بعدها لابد لنا من تشييد حضارة, لأن التخطيطات التي دخلت فيها الأمة هي في نهاية التحليل تهدف إلى شيء واحد سواء عبرنا عنه أو لم نعبر, هو تكوين حضارة"[1], وحينما نعبر عن رغبتنا في تجاوز تخلفنا من خلال القول:"إننا نريد أن نكوّن مجتمعا يقدم الضمانات الاجتماعية للفرد ويؤيد الأمن في العالم, أو أننا نريد أن ندرس قضايا مجتمعنا, اقتصادية كانت أم اجتماعية, فإن شروط وصولنا إلى تحقيق هذا كله هي شروط الحضارة ولا يمكن أن تتحقق إلاّ في إطارها"[2].

و لعل أهم شرط للحضارة في نظر مالك بن نبي هو الإنسان لذا نجده يركز على ضرورة بناء الفرد إذ أن حركة التاريخ وركوده مرتبطة ارتباطا لزوميا بحركة الجهاز الاجتماعي الأول المتمثل في الإنسان:"فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ, وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ, وذلك ماتشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ, فنرى المجتمع حينا يزخر بوجود النشاط و تزدهر فيه الحضارة, وأحيانا نراه ساكنا لايتحرك يسوده الكساد وتغمره الظلمات, وهل هذه المظاهر غير تعبير عن حركة الإنسان وركوده"[3].

ولكن تحقيق العودة الحضارية للأمة أو صناعة التاريخ لاتكون بذلك الإنسان الذي لم يعد قادرا على تقديم أي أساس روحي أو مادي لوجوده, ذلك الإنسان الذي

---

1 مالك بن نبي : تأملات , ص29
2 المصدر نفسه , ص29
3 المصدر نفسه , ص129

عجز عن مواجهة تحديات واقعه فحاول الهروب إلى الداخل والانغلاق على ذاته إمّا في صوامع المرابطين وإمّا في الخمارات ومواطن الرذيلة, فهذا النوع لايراهن عليه إطلاقا, فهو رمز للتحلل والتمزق الاجتماعي, بل الإنسان المتكامل والمتوازن هو من يصنع التاريخ حيث يقوم بدوره المزدوج المتمثل في الحضور والشهادة على الناس المعاصرين له, وهذا مايؤكده بن نبي من خلال قوله:"فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده ومثله الأعلى في حاجاته الأساسية والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا وشاهدا"[1].

وحينما نعدل فهما لمعنى التاريخ والإنسان وندرك ذلك الارتباط بين حركة التاريخ وحركة الإنسان نجد أن هذا الإنسان الذي يحرك التاريخ حينا يكون عاجزا عن ذلك في الكثير من الأحيان, وهذه العلاقة المضطربة بين الإنسان والتاريخ تدفع بنا إلى البحث من جديد عن ماهية الإنسان حينها سنجد أنه:"يمثل معادلتين: معادلة تمثل جوهره إنسانا صنعه من أتقن كل شيء صنعه, ومعادلة ثانية تمثله كائنا اجتماعيا يصنعه المجتمع, ومن الواضح أن هذه المعادلة الأخيرة هي التي تحدد فعالية الإنسان"[2].

فالمعادلة الأولى تمثل عنصر الثبات المتمثل في جوهر إنسانيته المكرم من طرف الخالق, والمعادلة الثانية تمثل ماهو متغير وهو ناتج عن البيئة الاجتماعية المتغيرة زمانا ومكانا, والتي تلعب دورا أساسيا في تحديد سمات شخصية الفرد, وهذا يعني أن فعالية الإنسان وقدرته على صناعة التاريخ ليست قيمة جوهرية ثابتة, وإنما هي من نتاج المجتمع, وهذا مايؤكد عليه علماء الاجتماع, ومنه فإن:"الإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير, ومهما جرت محاولات تحديثه بواسطة الاستعارة, أو الشراء للمصنوعات ومنتجات التقنية فإن هذه المحاولات ستكون عقيمة, طالما أنها لم تبدأ من حيث يجب, فالحل الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ, والغني بأفكاره على حساب أشياءه"[3], لأن كرامة الإنسان

---

[1] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص32

[2] مالك بن نبي : تأملات , ص135

[3] عبود العسكري: مشكلات الحضارة بين ابن خلدون وابن نبي , مجلة رؤى , فصلية, العدد20, 2003 , ص56

ومشروعية استخلافه في الأرض يستمدها من إرادته وحريته ومسؤولياته في صناعة التاريخ[1].

لذا فأي مشروع نهضوي يبحث عن حلول لمشكلات الأمة وتحدياتها يجب أن يأخذ المعادلة الاجتماعية للإنسان بعين الاعتبار إذ:"أنه يجب ألاّ ننسى أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية بوصفه مادة خاما بل يدخل في صورة معادلة صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب سابقة وعادات ثابتة, تحدد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون هذا الموقف من القوة أو الوهن, من الاهتمام أو التهاون, من الضبط أو عدم الضبط"[2], فمثلا العربي والياباني إذا وجدا في مكان ما, وواجهتهما مشكلة معينة فسيتعامل معها كل منهما بطريقته الخاصة, مما يعني أن لكل منهما رصيده التاريخي والاجتماعي الذي يؤثر في سلوكاته الحاضرة, ولعل هذا هو سبب عجز مشاريع التحديث المستوردة من الغرب عن تحقيق النهضة العربية نظرا لاصطدامها بمعادلة اجتماعية مختلفة عن معادلة الإنسان الغربي الذي أوجد هذه الأدوات الفكرية لأن الإنسان:"جهاز تخضع حركاته وسكناته إلى قانون صاغه ماضي أسرته ومجتمعه وثقافته, ولابد من النظر إلى ماضي هذا الجهاز لنعرف مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية والمشروعات المخططة القائمة عليه"[3].

ولا ننسى أيضا أن مشكلاتنا مختلفة تماما عن مشكلات غيرنا فإن كانوا هم بحاجة إلى مؤسسات تنظم حياتهم بشكل أفضل, فإننا بحاجة إلى رجال يتحركون في التاريخ ويُذكرون بعضهم بعضا بأهدافهم الكبرى ويتصرفون وفق ما تتطلبه السنن التي تحكم الطبيعة والتاريخ والنفس الإنسانية, فمشكلة العالم الإسلامي هي أنه يحتاج إلى الرجل القوي بمعرفته لنفسه ولما حوله, الرجل المؤثر في محيطه الواعي بأهدافه وبعبارة أوضح الرجل الرسالي الذي يؤمن برسالته الحضارية ويسعى للاندماج في المجتمع الإنساني ليقدم له مأأمكن من الخدمات لما هو بحاجة إليه بعد

---

[1] حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات, مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص334

[2] مالك بن نبي : تأملات , ص182

[3] المصدر نفسه , ص182

أن أفقدته الآلة ولغة الكم إنسانيته وجردته من قيمه الأخلاقية العليا والتي بدونها لن يستطيع الشعور بالاستقرار أو الخلاص, إذ يقول بن نبي:" فالأمر متصل بمشكلتين مختلفتين في أساسهما, فهناك هم في حاجة إلى مؤسسات بينما نحتاج هنا إلى رجال, فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها, وخاصة في الجزائر, فالمسألة هي أنه يجب أولاً أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[1], ويتم هذا من خلال القضاء على النزعة الفردية التي يتميز بها إنسان مابعد الموحدين, وذلك:"عن طريق إحياء سلطة ضمير هذا الإنسان ـ التي يعكسها الالتزام الأخلاقي والسلوكات المسؤولة ـ وإيصالها بالمثل العليا لتوجيه عمله نحو غايات سامية تعلو على درجة النوع لترتبط برسالة اجتماعية تليق بمكانته كإنسان, إذ أنّها تساهم في تقدم النوع الإنساني"[2].

وانطلاقا مما سبق يؤكد بن نبي أن أي انطلاقة نهضوية لاتتحقق إطلاقا بالاعتماد الكلي على عالم الأشياء, وإنما الأساس الحقيقي الذي يجب الاعتماد عليه هو عالم الأنفس لذا يقول:"إن حاجتنا الأولى هي الإنسان الجديد... الإنسان المتحضر ...الإنسان الذي يعود إلى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد, وصياغة هذا الجهاز الدقيق الذي يسمى الإنسان لاتتم بمجرد إضافة جديدة إلى معلوماته القديمة لأنه سيبقى هو قديما في عاداته الفكرية وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية وفي فعاليته إزاءها"[3], أي أن أية محاولة للتغيير الاجتماعي لايمكنها أن تحقق نتائج إيجابية على أرض الواقع مالم تستطع النفاذ إلى أحاسيس الإنسان ومشاعره, فجوهر النهضة هو التجديد الذي يتم على المستوى النفسي للإنسان, أمّا التجديد الذي يشمل الجانب الفكري كعلم الكلام مثلا فما هو إلاّ إصلاح ظاهري, ولقد وفق بن نبي في هذا الطرح إذ أن خبراء التنمية البشرية المعاصرين أثبتوا أن الفكرة لا يمكنها أن تتحول إلى سلوك إلاّ بعد أن تسيطر على المشاعر أو تتحول إلى إحساس.

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة , ص82

[2] محمد بغداد باي: التربية والحضارة , ص157

[3] مالك بن نبي : تأملات , ص193

فمعجزة التغيير إذن مستوطنة في نفس الفرد لافيما يتعلق بما يحيطه به من وسائل حيث أننا إذا استطعنا أن نغير مابنفسه ونخلصه من تلك الأوهام والخرافات والأساطير التي سيطرت على سلوكاته ووجهتها طيلة قرون مضت, نكون بذلك قد حققنا خطوة كبيرة نحو تغيير واقعنا, لأننا بتغيير نفسية الفرد نغير طبيعة العلاقة بينه وبين مشكلاته التي تحاصره من كل جانب بحيث يصبح تعامله معها على أنها تحديات فرضتها مرحلته التاريخية التي يعيش فيها.

لذا من الواجب مواجهتها بما نمتلكه من الوسائل المتوفرة لدينا من دون إفراط ولا تفريط, أي من دون أن نتجاهلها تماما باعتبارها مشكلات بسيطة تزول مع مرور الوقت, ولا من دون أن نقف أمامها وقوف العاجز المنهزم نفسيا قبل المواجهة, ونعتقد مسبقا أن ما بين أيدينا من الإمكانيات البسيطة من المستحيل أن تحل مثل هذه المشكلات المستعصية, الأمر الذي يدفعنا لخيانة الواقع إمّا بالاستسلام له, وإمّا بالانبطاح والرضوخ لمن يتحكم فيه على حساب كرامتنا وقيمنا ومبادئنا, و:"أمّا معرفة النفس فالغاية منها أن يكتشف الإنسان إمكانياته ليحولها إلى عمل نافع, وأن يترك ماليس من اختصاصه, وما ليس عنده كفاءة له, حتى لايكون العمل تخريبا بدل أن يكون بناء"[1].

وهكذا فجوهر التغيير كما سبق وبيّنا مرتبط ارتباطا وثيقا بنفسية الفرد, التي يؤدي تغييرها إلى ثورة سلوكية في طبيعة تعاملات الفرد مع محيطه وما يحتويه من تحديات لأن:"الحضارة كالحرية لايمكن الحصول عليها, إلاّ بالإنسان المتعقل لفعله, المدرك لوقته, المتفاعل مع التراب, المتناغم مع التراث, المتعلق بالمعارف العالمية على السواء, دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولاينتج"[2].

وحينها نستطيع التنبؤ بأن فجر النهضة والتغيير سينبعث من تلك الثورة الداخلية التي تندلع في أعماق الفرد, وتقضي على عقده الموروثة, وعلى مختلف

---

[1] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص201
[2] عبد القادر بوعرفة: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي , ص11

ميكروبات الشلل والخمول, كما أن تحريك الوجدان يزيد في حدة التوتر الذي يدفع إلى العمل المضاعف خصوصا إذا كان هناك تعلق بغايات كبرى في الوجود.

وأمّا التركيز على مظاهر التغير التي تتعلق بالجوانب الفكرية أو المادية فقط فإنه لن يحدث الغاية المرجوة منه مالم ينفذ إلى أعماق الفرد الذي لم يتخلص بعد من أغلاله القديمة والجديدة معا:"وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده, إلاّ إذا انجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر, وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار. ولا يذهب كابوسه عن الشعب, كما يتصور بعضهم, بكلمات أدبية أو خطابية, وإنّما بتحول نفسي, يصبح معه الفرد شيئا فشيئا قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعية جديرا بأن يحترم كرامته, وحينئذ يرتفع عنه طابع القابلية للاستعمار, وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله وتمتص دمه, فإنه بتغيير نفسه قد غير وضع حاكميه تلقائيا إلى الوضع الذي يرتضيه"[1].

ولأجل هذا نجد بن نبي يلح ويكرر في أكثر من مناسبة على أن التحرر الفعلي من هيمنة الاستعمار مهما كان شكله قديما أم جديدا لايتحقق إلا إذا اجتثت أصوله من أعماق أنفسنا أولاً, أي أننا مطالبون بالتخلص من مختلف العقد النفسية والرواسب السلبية المتحكمة في سلوكاتنا والممتدة في أعماق اللاشعور الجمعي إلى فترات طويلة خلال عصر مابعد الموحدين فيقول:"إن هناك نتيجة منطقية وعملية تفرض نفسها, وهي إنه لكي نتحرر من أثر هو الاستعمار, يجب أن نتحرر أولاً من سببه هو القابلية للاستعمار"[2], إذ لامعنى للتغيير الثوري مالم يشمل نفس الإنسان الذي تتوقف عليه عملية بناء الحضارة ومسيرة النهضة.

والمحافظة على المكاسب الثورية والمنجزات الحضارية لن تكون إلاّ بتصفية الإنسان الجديد من القابلية للاستعمار والرضا بالعدم والهوان والاستسلام لما يفرضه الواقع, أي ضرورة تحرير الإنسان العربي من كل الأمراض الفكرية والاجتماعية والنفسية وهي ماأشرنا إلى بعضها في الفصل الأول تحت عنوان المعوقات

---

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة , ص 33
[2] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي , ص95

الذاتية:"فثورة ما (لا)؟ تستطيع بناء وضع جديد والحفاظ على مكتسباتها إلاّ إذا كان أثره في تصفية الاستعمار, فعالاً في تصفية الإنسان من القابلية للاستعمار, فتصفية الاستعمار في الإنسان تشترط تصفيته في الأرض و يجب أن تتقدمها"[1].

ولكن يجب أن لانعتقد أن بناء الإنسان قد تم بمجرد تصفيته من القابلية للاستعمار, بل يجب المتابعة من خلال تصفيته من ذلك التلوث الذي لحقه نتيجة جرائم الاستعمار ومخططاته العلمية ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية:"فأينما حل الاستعمار كان يلوث الإنسان حتى أصبحت تصفيته من رواسب الاستعمار أهم عمل ثوري في الثورة"[2], لذا يجب علينا أن نقوم:"بعملية تنحية لما لصق به من عادات فكرية أردته إلى سفح الحضارة , ومن هنا فالتنمية هي أولا وقبل كل شيء هي تنمية للموارد البشرية في العالم العربي حتى نتمكن من إيجاد هذا النموذج الذي يقتدى به"[3]

وهكذا يتبين لنا بأن هناك علاقة حتمية بين تحقيق الثورة خصوصا والنهضة عموما والتغيير الجذري للإنسان بحيث أن:"الثورة لاتستطيع الوصول إلى أهدافها، إذ هي لم تغير الإنسان بطريقة لارجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته"[4], أي بناء ذلك الإنسان الجديد غير القابل للاستعمار, والذي يستشعر الواجب بذاته دون أن يلزم به, ويشعر بمدى أهمية رسالته في هذا العالم ودوره المتمثل في الشهادة على الناس, والتي لايمكنها أن تتم إلاّ بالحضور الذي يعني المساهمة في توجيه الأحداث نحو الإيجاب أو نحو ما يخدم الصالح العام, وما يخدم الإنسانية جمعاء.

ث2 ــ دوره في بناء الحضارة:

إن الأهداف النهضوية لايمكن أن يحققها إلاّ ذلك الإنسان الذي تخلص من رواسب الماضي وحافظ على توازنه النفسي أمام الإنجازات الباهرة للحضارة

---

1 مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص51
2 المصدر نفسه , ص52
3 الأخضر شريط: مفهوم الانسان العربي الجديد بين البناء الثقافي والبناء الاجتماعي,مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net , السنة الثالثة ,العدد27, مارس(أذار) 2006.
4 مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص54

المعاصرة أي ذلك الإنسان الذي تعرف على ذاته واستفاد من الخبرات التي يحملها تراثه الممتد عبر القرون, كما استطاع أن يخلص نفسه من مختلف السلبيات التي استنشقها فكريا وسلوكيا عبر هذا التراث الذي تعرض للتشويه والطمس خلال فترات الانحطاط.

وتعرف أيضا على حقيقة الآخر كما هو لاكما رآه وهو في حالة انبهار أو كما أراده الاستعمار العسكري والإعلامي أن يراه, حينها فقط يستطيع الإنسان العربي أن يحقق توازنه الحضاري ــ إن صح التعبيرــ وفي هذه الحال يستطيع أن يتعامل مع الآخر ويتحاور معه دون عقدة رفض, ولا انبهار كما أنه سينظر إلى ذاته على حقيقتها من دون تمجيد ولا نكران, وحينما يتحقق هذا على أرض الواقع نستطيع القول أن هذا الإنسان الجديد قد قطع ثلثي المسافة نحو باب الحضارة, ولم يبق له سوى الثلث الأخير والذي سيقطعه حينما يجتهد ويتمكن من آليات التواصل والحوار ويبحث لنفسه عن دور لخدمة الإنسانية[1].

و لعله حينما يتعرف جيدا على الآخر سيجد أن الإنسانية اليوم تعاني من طغيان النزعة المادية وهي في حاجة إلى الكثير من الأشياء أو بالأحرى القيم التي حرمتها منها الحضارة الغربية المعاصرة[2] وحينها ينتبه إلى أنه يمتلك في ثقافته وفي تراثه الذي أصبح يتعامل معه بعقلانية رافضة للتمجيد والتنكر معا, بعض حاجات الإنسانية فيبادر إلى تعريف الآخر بذاته, من خلال تعريفه بتلك القيم الأخلاقية والروحية العليا التي أصبحت نادرة إن لم نقل منعدمة في أسواق الحضارة الغربية.

وما أن ينجح في هذه المهمة التي قد تكون صعبة إلى حد ما حتى يشعر بأنه يختلف فعلا عن غيره ولكن اختلاف تكامل لااختلاف تناقض يؤدي وجود أحدهما إلى إلغاء الآخر, ولعل هذا ماعبر عنه بعض السياسيين الإسبان بمصطلح "تحالف الحضارات" إذ أن التحالف لايتم إلاّ لأجل تحقيق التكامل والشعور وأن وجود البعض متوقف على وجود البعض الآخر لاعلى إلغائه أو استئصاله:"وهذا يتطلب

[1] مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين , ط1, دار الفكر, دمشق,1978, ص59
[2] أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص202

منا إعادة بناء المجتمع الإسلامي على أساس أن ندخله في رياضة جديدة, بمعنى أن نعيد التفكير في وظيفته الأساسية, أن ندخله من جديد في مسيرة الحضارة, والقضية في هذا الإطار تتصل بمدى الكفاءة لابمدى صحة الأفكار"[1].

كما يجب أن نُذكر بأن الإنسان يمثل سببا فاعلا وغائيا في الوقت نفسه بالنسبة للحضارة[2] إذ أن:"الحضارة لاتقوم إلاّ إذا شرع هذا الإنسان في بنائها وكلما أُحكمت قواعد هذا البناء وتجسد في الواقع مشروعه, انتفع الإنسان بعطاء حضارته ولقي مكانته في الوجود وفي التاريخ"[3], ومنه فإن تجاوز معوقات النهضة يتم من خلال الرفع من مستوى الإنسان المسلم إلى مستوى الإنسانية أولاً ليفهمها جيدا, ثم يتأمل ذاته ويتعمق في فهم حاجيات الإنسانية في عصره لِيُعرِّف بعد ذلك الآخرين بنفسه وبمشروعه الذي يحمله وأهمية مايسعى لتقديمه للآخر من أجل إنقاذه من ذلك الفراغ الروحي والأخلاقي الذي انعكست آثاره سلبا على حياته, إذ أنه أصبح عاجزًا عن الشعور باستقراره الداخلي رغم ماحققه من تضخم وإشباع في المجال المادي[4].

ويجب على المسلم أن يقدم نفسه على أساس أنه يقوم بدور مكمل لأدوار الآخرين لاعلى أساس أنه يكوّن بديلا, الأمر الذي قد يزعج الآخر ويجعله يتوجس منه خيفة من أنه مصدر للخطر والإرهاب, فيُسخر جهوده المادية والعلمية للقضاء عليه حتى وإن كان يدرك تماما بأنه يمتلك القدرة على تقديم حاجات الإنسانية المتعلقة بالجانب الروحي والأخلاقي والتي عجزت حضارة الكم والمادة أن تقدمها للإنسانية, فطبيعة الإنسان المتمثلة في تعلقه بذاته لاتسمح له بأن يفسح المجال أمام من يسعى لإزاحتها من مكانتها التي منحتها إياه الدورة الحضارية في مرحلتها التاريخية الراهنة, لذا فإن مجرد شعوره بأن مجتمعا مايزاحمه لتضييق الخناق عليه أو لفرض بديله الحضاري وفق تصوراته فإن غريزة الدفاع عن النفس تتحرك بقوة وفعالية لتضرب بعنف, وفي كل مكان تستطيع الوصول إليه.

---

1 مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص70

2 سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر, ص92

3 محمد بغداد باي: التربية والحضارة , ص78

4 مالك بن نبي: "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ", ص38

لذا فإن المسلم إذا ماأدرك هذه العوامل يستطيع أن يتكيف مع واقعه, ويقدم للحضارة الإنسانية إضافة نوعية, وإن كان تحركه من دون علم, ولا دراية بالسنن التي تحكم الكون عموما والتاريخ والنفس على وجه الخصوص فإنه لن يراوح مكانه هذا إن هو استطاع أن يحافظ على بقائه.

وحينما يحقق المسلم توازنه ويتعقل ذاته سيدرك بأنه صاحب رسالة سماوية وهو مطالب بتبليغها لغيره من بني البشر, إلاّ أن وضعه الحضاري الراهن لايسمح له بأداء هذا الدور بسهولة ويسر ولأجل أن يتحقق ذلك:"لابد للمسلم أولاً أن يساهم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين ندا إلى ند, والمسلم اليوم لايتكلم ندا إلى ند بل يتكلم كإنسان منبوذ لايسمعه إلاّ من وهبهم الله عقولا يستمعون بها إلى الفقراء أمّا الآخرون فهم لايستمعون للمسلم. ثم إن على المسلم أن يستمر في تبليغ دعوة عطل تبليغها منذ سبعة قرون"[1].

فهناك تفاوت على المستوى الحضاري سواء من الناحية المادية أو من ناحية الفعالية:"لذا يجب أن نبني أولاً مجتمعا يكون في مستوى عالمية الرسالة أولاً, ثم في مستوى البشر الذين نبلغهم"[2], إذ لايمكننا أن نبلغ رسالتنا لمن يعتقدون أو يتوهمون أننا أدنى منهم في كل شيء, فهذه النظرة الدونية للآخرين عنّا ستمنعنا من إيصال رسالتنا التي تعبر عن حقيقتنا ولا يمكن أن نزيل هذا الشعور من أذهان الآخرين إلاّ بالارتقاء بمجتمعنا إلى مستوى الحضارة:"فالإنسان لا يستطيع أن يروي أرضا عطشى فوق مستوى الماء ونحن لانستطيع أن نروي الآخرين إن لم نكن على الأقل في مستواهم الاجتماعي وإلاّ فكيف يتقبلون منّا هداية وإرشاد وعناية, ونحن في نظرهم ــ وليس في نظرنا ــ أدنى منهم, إذن يجب أن نكون في مستواهم"[3].

ولهذا يركز بن نبي على أن المرحلة التاريخية الراهنة للأمة, تتطلب الاهتمام وبذل الجهد للرفع من مستوى المسلم إلى مستوى الحضارة حتى يسترجع جزءا من

1مالك بن نبي : مجالس دمشق, ص69
2 المصدر نفسه , ص70
3 المصدر نفسه , ص70

كرامته المفقودة, إذ أنه أصبح مهانا ومحتقرا في المطارات العالمية, بل حتى وهو داخل بيته من طرف قوى الاستكبار, أو بالأحرى أعداء القيم العليا, بل حتى من طرف بعض أبناء جلدته, كما يجب على المسلم أيضا أن يسير في الإتجاه الصحيح المتمثل في جوهر الحضارة[1].

ويؤكد بن نبي هذا من خلال قوله:" إذا أراد المسلم أن يقوم بدوره الرسالي بالنسبة إلى الشعوب المتحضرة والمجتمع المتحضر, وأراد ــ بعبارة أوضح ــ أن يقدم المبررات الجديدة التي تنتظرها تلك الأرواح التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها, إذا أراد المسلم ذلك فليرفع مستواه بحيث يستطيع فعلا القيام بهذا الدور"[2]. وذلك من خلال استغلاله للظروف الراهنة والتي قد تكون ملائمة لكي يقوم بدوره على أحسن وجه, والمتمثلة في عنصرين هامين:

فأما الأول فيتمثل في تلك الثورة المعلوماتية التي أوجدها الآخر لفرض هيمنته على العالم, فهذا المنجز الحضاري يعتبر بمثابة الأداة الفعالة لنشر الأفكار والمعارف والقيم, وليس لها أي موقف سلبي مسبق منّا فهي مجرد أداة, بل إن موقفنا منها هو الذي يحدد قدرتنا على استغلالها, فإن استطاع المسلم أن يكيف هذه الأدوات لصالحه, فإنه سيجد لنفسه مكانا محترما في العالم.

وأمّا العنصر الثاني فيتمثل في فقدان مبررات الوجود فيما يخص محور [واشنطن, موسكو] وهو بصدد البحث عن مبررات جديدة, هذه المبررات الجديدة أصبحت اليوم محل بحث من طرف المجتمع الإنساني الذي يعيش على هذا المحور ف:" أوروبا حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم... ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها, ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله"[3].

---

[1] المصدر نفس , ص75

[2] المصدر نفسه , ص173

[3] المصدر نفسه , ص173

في حين أن الضمير الإسلامي يربط ربطا وثيقا بين مفهوم الإنسان والأساس الغيبي المتمثل في تكريم الله لبني آدم من دون استثناء فللإنسان مكانته في الإسلام كونه كائن مكرم, إذ لايخضع لمقاييس الكم والإحصاء والوزن وما شبه ذلك من القيم السائدة في الفلسفة الاستعمارية لبعض الدول الغربية, فقيمة الإنسان في ضمير المسلم لامتناهية لكونها ذات أساس غيبي مطلق[1] ومن ثمة يجب علينا:"أن نعيش داخل المجتمع الإنساني بصفتنا شهداء على الناس شهادة إيجابية وبصفتنا مبلغين لأقدس رسالة, وبصفتنا منقذين للبشرية بما نحمله بين جنوبنا من خيرية, وبصفتنا غيورين على الكرامة الآدمية, وينبغي لنا أن نتجدد حتى نرقى إلى الدور الريادي الذي نطمح إليه"[2].

ولكن المسلم ليس في مقدوره أن يملأ الفراغ الروحي للآخر بذلك التصنع البلاغي وتلك الكلمات الجوفاء الفارغة من أي مضمون:"وإنما بوصفه إنسانا معاصرا للناس شاهدا عليهم بالتقى والورع, بنزاهة الشاهد الصادق, الصادق الخبير, الواعي لقيمة شهادته"[3]. بحيث لا تنحصر هذه الشهادة:"في ملاحظة الواقع ولكن في تبديل مجرى الأحداث بردها إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا"[4].

وعليه يجب على المسلم أن يرفع مستواه المعرفي والسلوكي إلى مستوى الحضارة, وإلى مستوى القيم العليا التي يحملها ويريد إيصالها إلى غيره ف:"إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي بضفيه الإسلام إلى الحضارة, وهو بعد السماء, عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة, أي أن الوجود الذي فقد القداسة في القرنين الأخيرين خصوصا هذا القرن تعود إليه قداسته, لأن القداسة من الله, ومن الله وحده ولاشيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله "[5].

---

1 مالك بن نبي: في مهب المعركة , ص165
2 عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكرمالك بن نبي , ص87
3 مالك بن نبي: مجالس دمشق , ص173
4 سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر, ص247
5 المصدر نفسه , ص173 و 174

وإذا حقق المسلم هذا فإنه يستطيع أن يشد على أيدي غيره ليقدم لهم العلاج الروحي المستمد من القيم السماوية العليا, كونها تحتوي طاقة ذاتية تؤهلها للنفاذ إلى جوهر المشكلات النفسية للإنسان, ويؤكد مالك بن نبي هذا بقوله:" إذا رفعنا المسلم اجتماعيا إلى الحضارة نكون قد خلصنا بذلك الإنسان الغربي من العاهة الأخلاقية التي تفصله عن الإنسانية وفتحناه بذلك لحوار مجدي بالنسبة إلى فراغه الروحي"[1].

ولهذا فدور المسلم في بداية القرن الواحد والعشرين يجب أن :"نتصوره طبقا لضرورات داخلية وضرورات خارجية, ضرورات إنشاء وتشييد في الداخل, وضرورات اتصال وإشعاع في الخارج"[2].

ولتحقيق هذا يجب على المسلم الذي اهتزت ثقته بنفسه أن يقتنع أولاً بأن له دورا رساليا ينبغي أن يقوم به بإخلاص, ولكن في مقابل ذلك يجب عليه أن يعلم أن ملايين البشر الذين يوجه لهم خطابه, لهم منطقهم الخاص الذي يختلف عن منطقه, فتصوراته واضحة بالنسبة إليه فقط وفقا لمنطقه النظري, لكنها غير واضحة بالنسبة لغيره من الذين تخضع تصوراتهم للمنطق العلمي الذي يتجسد أمامه في صورته الواقعية. فالمظاهر الاجتماعية للمسلمين من خلال الإحصائيات العامة والملاحظة اليومية لاتعكس حقيقة مايريدون إيصاله للآخرين, إذ قد تختفي عزة المسلم وكرامته وأخلاقه وشرفه أمام هذه المظاهر المتمثلة في الجهل والفوضى والتخلف والعنف[3], ويمثل بن نبي أنموذج الإنسان الرسالي إذ أنه قام:" بدور الشاهد على هذا القرن [القرن العشرين] في مذكراته, وبدور المبلغ في سائر مؤلفاته, وبدور الداعية إلى الخير في المبادئ التي رسمها لفلسفته التي يرمي من ورائها إلى سعادة الإنسانية وهنائها"[4].

---

[1] مالك بن نبي: مميزات الداعية الإسلامي في ضوء ماتقتضيه الدعوة الإسلامية , نقلا عن مولود عويمر: مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري , ص219

[2] المصدر نفسه , ص172

[3] مالك بن نبي : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين, ص52 و 53

[4] عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ,ص73 و 74

ج ـ التأسيس للعمل المنهجي:

يرى بن نبي أن بحث طبيعة العلاقة بين الفرد المكيف وشبكة العلاقات الاجتماعية وتطور المجتمع لايمكنها أن تفهم إلاّ وفق:"نطاقين مختلفين:نطاق النفس الإنسانية من ناحية, ونطاق الزمن الاجتماعي من ناحية أخرى"[1], وعلى هذا الأساس فإن أي محاولة لاستخلاص أسس التغيير الاجتماعي لن تكون موفقة مالم تعتمد على علم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع, باعتبار هذه العلوم تشكل نطاقي النفس الإنسانية والزمن الاجتماعي معا.

و لعل الباحث في مشكلات الحضارة يستخلص من التاريخ سننه الثابتة التي لاتعرف التغير إذ يقول:"هذه القواعد هي ثوابت التاريخ, تلك التي لايغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات, لأن نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده, كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه"[2], ولعل هذا هو الفهم العلمي الصحيح للقول المأثور "لايصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها", والذي فهم فهما خاطئا من طرف الحداثيين والإصلاحيين معا, فبعض المحافظين جعلوا من هذا الشعار مشجبا يعلقون عليه عجزهم عن مواجهة تحديات الواقع المستجدة, ليفروا إلى الماضي بكل مايتضمنه من ايجابيات وسلبيات للعيش فيه ولو على مستوى الخيال, أمّا رفض الحداثيين لهذا الشعار فهو واضح, غير أنه رفض لايقوم على أساس علمي, بل على أساس عاطفي انفعالي يرفض ويقاوم كل ماهو قديم, أو بالأحرى كل ماهو من الزمن الاجتماعي, وفي المقابل ينصهر في كل ماهو غربي بلا تكيف ولا إبداع, في حين أن أي:" بناء جديد مقطوع الصلة بالتاريخ هو مجرد متعة عقلية, فهو إلى الخيال أقرب منه إلى الواقع"[3]

فما يجب على أبناء أمتنا فهمه, هو أن الحياة في جانبها النفسي والاجتماعي والطبيعي تتميز بعنصر مهم وأساسي, هو أن كل جانب من هذه الجوانب يخضع

---

[1] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص75
[2] المصدر نفسه , ص76
[3] محمد بغداد باي: التربة والحضارة , ص144

لقوانين وسنن تحكمه وتوجهه, ومنه فلا مجال للنهوض إذا ماظلت سلوكاتنا وتصرفاتنا خاضعة للعشوائية والعفوية اعتقادا منّا أن حسن النية هو الأساس الوحيد للنجاح ولكنه:"مهما يكن فإن أحسن مواهب الإنسان, وأطيب نياته, لاتمنع من تأثير نوائب الزمن, الملازمة للقوانين التي تحكم مصيره"[1].

وهذا يستدعي ضرورة وأولوية العلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية على غيرها من العلوم المادية في مجتمع مازال يجهل حقيقة ذاته, وهذه العلوم هي التي بها نستطيع إعادة بناء إنسان مابعد الموحدين فمهما كانت الظروف يجب أن لانُهمل الإنسان الذي خرج من الحضارة ــ إنسان مابعد الموحدين ــ بل يجب أن يكون محل دراسة واهتمام باعتباره من المشكلات الرئيسة التي أعاقت حركة النهوض في الوطن العربي والإسلامي[2].

فيجب إذن أن نجعل من العلم وسيلة وآلة لتحقيق النهوض لا مجرد مظهر من مظاهر الزينة والترف, كأن تضاف الألقاب العلمية والأكاديمية إلى أسمائنا دون أن نقدم شيئا لمشروعنا النهضوي والحضاري الذي قد يتعثر بسبب عجز طالبي العلم والباحثين عن فهم متطلبات واقع أمتهم من جهة, ومن جهة ثانية تمثلهم للمذاهب الفكرية المستلهمة من بيئة ثقافية ومحيط اجتماعي ومرحلة تاريخية مختلفة تمام الاختلاف عما تتطلبه النهضة العربية, فيتحول العلم بذلك إلى مباريات فكرية للترفيه واستعراض عضلات الألسن الحادة بين أبناء مدارس فكرية منقطعة الصلة عن الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويتوهمون السعي لتحديثه وإصلاحه وتغيره ولهذا:"فالمسألة ليست مسألة وسائل وإنما مسألة مناهج وأفكار"[3].

كما يجب أن نتذكر دائما أن الحياة الاجتماعية تخضع لسنن وقوانين مثلها مثل الحياة العضوية. فعملية نقل الدم من جسم إلى آخر لا يمكنها أن تزوده بالحياة والطاقة ما لم تخضع لشروط دقيقة وموضوعية, فكذلك الأمر بالنسبة لعملية

---

[1] مالك بن نبي: في مهب المعركة, ص107

[2] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص38

[3] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص133

الاقتباس الحضاري فهي الأخرى لاتحقق غايتها إذا كانت نتيجة انبهار الضعيف بالقوي, أو كانت مفروضة من طرف الأقوياء على الضعفاء, فالأمر في الحالتين سواء, ولكنها قد تكون ذات جدوى وفائدة إن هي احترمت بعض الشروط اللازمة وخضعت لمعيار نقدي ودقيق كيفها مع الواقع الجديد الذي انتقلت أو نقلت إليه[1].

وإذا كان البعض يرى أن:" التغيير عند مالك بن نبي هو في حقيقته عملية إعادة بناء تتأسس على النماذج الأصلية للمجتمع وقيمه المقدسة"[2], فإنه يجدر بنا أن ننبه إلى أن إعادة بناء التراث تكون بالتخلص من سلبياته من جهة, وربطه بالتحديات المعاصرة لنا من جهة ثانية, فيكون الانطلاق بذلك اعتمادا على ما نمتلكه من المقومات ذاتية التي قد تصاب بالعطل نتيجة ما علق عليها من أوهام وخرافات وأساطير خلال المراحل المتتالية التي مر بها مجتمعنا.

لذا فأي تفكير في النهضة هو تحدٍّ ومواجهة لصعوبات الحاضر وتخليص الذات من سلبيات ورواسب الماضي الذي يمثل مرحلة العجز والانحطاط, أي دون الذوبان الكلي في هذا الماضي الذي قد نجده يتضمن بعض الانجازات الكبرى والتي نتوهم أنها الدواء الكافي لمرض التخلف, بل يجب التعامل مع الماضي وفق متطلبات الحاضر, أو بعبارات أخرى تكون الغايات المستقبلية وتحديات الحاضر هي الموجه لطبيعة تعاملنا مع التراث, لأن لكل مرحلة تاريخية خصائصها ومميزاتها التي تفرض تعاملاً معينا مع الأحداث التي تحيط بنا وفي هذا الشأن يقول بن نبي:"إن عملية إعادة التنظيم والتوجيه ينبغي أن تكون المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية"[3].

ولهذا فإن أصالة المشروع الذي يدعو إليه بن نبي:" ليست دعوة انعزالية تشيد بالماضي والرجوع إليه, وتقيم القطيعة مع العصر ومبتكراته, بل هي دعوة إلى

---

1 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص80 و81
2 محمد بغداد باي: التربية والحضارة, ص144
3 مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص100

الأخذ بالمبادئ المقدسة لتصلها بالأرض أي تجسيد هذه المبادئ في واقع حياتها بأن تجعل منها المحرك الأساسي لتاريخها"[1].

ولمواجهة تلك "التنافرية المهلكة" التي كانت سببا في تحطيم الكثير من المنجزات وعرقلة جهود الكثير من المخلصين يدعو بن نبي إلى ضرورة تكامل الجهود وتضافرها إذ يقول:" إن علينا أن نقوم بمؤازرة كل عمل بناء, فلا تتضارب جهودنا, وإنما تتضافر من أجل البناء إذا قام كل فرد في حدود مهنته بواجبه على أتمه"[2].

إذ أن مواجهة مختلف الصعوبات والتحديات والتصدي لها يتطلب بالضرورة ذلك الانسجام المتكامل لجهود جميع أبناء الأمة:"ففي الحالات الصعبة ليس من المعقول أن يقلع القطار بعربات الدرجة الأولى بدعوى أنه قطار سريع, بل يجب أن يحرك سائر العربات وراءه من أولوية إلى أولوية"[3].

فعربات القطار يقابلها أفراد الأمة بطبقاتهم الاجتماعية, وتياراتهم الفكرية المختلفة, أي أن مشكلة التخلف تتطلب تضافر جهود جميع الأفراد وجميع الطبقات الاجتماعية وجميع المدارس الفكرية التي يتكون منها المجتمع.

ولضمان تواصل عملية البناء يجب علينا أيضا أن نوفر الحماية للمنجزات التي تم تحقيقها وذلك من خلال الكشف:"عن كل ما يخرب المجتمع ويعرقل سيره, فإذا كان الحرام بينا والحلال بينا, فإنه في بعض الأحايين يتخفى الحرام في أثواب كثيرة, فإذا كان بعضنا يبني فإن علينا ألاّ ندع الآخرين يخربون"[4], لأنه إذا كانت صناعة التاريخ لاتتم إلاّ بالعمل المشترك الذي يقوم به جميع أفراد المجتمع فإن هذا:"العمل المشترك يستلزم بالضرورة تنظيم وتنسيق وجمع المعطيات, وخاصة جميع الأفكار التي تنهض بالنشاطات الفردية"[5], فتتكاثف الأعمال في وحدة متكاملة

---

[1] محمد بغداد باي: التربية والحضارة , ص146
[2] مالك بن نبي : تأملات , ص173
[3] مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص127
[4]مالك بن نبي : تأملات , ص173
[5] مالك بن نبي : القضايا الكبرى , ص101

يمثل كل فرد فيها مهما كان نوع نشاطه حلقة مهمة لايمكن الاستغناء عنها متجهة نحو نفس الغاية فيصبح:"سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد, بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح, لكي يصنع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء"[1].

ولما كانت الشرعية الثورية هي المرجعية الأساس التي تستند إليها الكثير من أنظمة الحكم العربية, فهذا يتطلب وضع برنامج عمل محدد المعالم حتى لايبقى العمل مرتبطا بالعفوية والعشوائية التي تؤدي إلى انحراف الحركة الثورية عن مسارها واختفائها لتستبدل بشبه ثورة أو ثورة مزيفة تنوم الجماهير بدلا من أن تدفعها إلى التحرر, أي أن تكون في ظاهرها ثورة ولكن حقيقتها أنها تؤدي وظيفة المخدر أو المنوم. والظلم والحرمان الذي تعاني منه الجماهير يجعلها تختزن طاقة ثورية هائلة قد تنفجر في لحظة من اللحظات لذا من الواجب أن لاتُضيع الحركة الثورية هذه الطاقات ولا تسمح لها بالانحراف إلى غير أهدافها بل يجب أن يوضع برنامج عمل واضح المعالم حتى يستمر التغيير في مساره الأصيل[2].

بالإضافة إلى هذا يجب الاهتمام بمشكلات الاستقلال وتوحيد وجهات النظر لأجل تفادي مشكلة بعثرة الجهود واصطدامها مع بعضها البعض مما ينعكس سلبا على حال الأمة فتظل تراوح مكانها, وتستنفذ طاقاتها وتدمر ذاتها بذاتها.وبناء على هذا يجب:"أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه وهذا الجهاز حينما يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود"[3], وهذا يعني أنه يجب على المجتمع الإسلامي أن يركز على تحديد رؤيته للمستقبل وتوضيحها, أي تحديد نقطة الهدف الذي يصبو إليه, لأجل أن يدفع بجهود أفراده في وحدة متكاملة نحو الهدف الموحد, فيحقق المجتمع غاياته السامية بجهود أفراده المتحدة والمتكاملة وبذلك تتوفر للأفراد الضمانات الضرورية لتحقيق مواهبهم وطموحاتهم ومن دون هذه العلاقة

---

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة, ص114
[2] مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص50
[3] مالك بن نبي : شروط النهضة, ص84

التكاملية المتداخلة بين الفرد والمجتمع التي تقوم على أساس إلتزام كل طرف بواجبه اتجاه الطرف الثاني لانستطيع ولوج باب الحضارة إلا بمعجزة ما أو مفاجأة من مفاجآت التاريخ, وهو أمريكاد يكون مستحيلا[1].

كما يرى بن نبي أيضا أن العمل المنهجي يقتضي أن تأخذ بعين الاعتبار إمكانيات ومتطلبات أمتنا من جهة ومن جهة ثانية يجب أن لانتجاهل ذلك الوسط العالمي الذي نعيش ضمنه فبمراعاة هذين الجانبين نستطيع المحافظة على استمرارية أمتنا ونضمن لها السير في الاتجاه الصحيح الذي يحقق التطور والتقدم وفي هذا يقول:"وهكذا يجب علينا حينما نضع قضية النهضة العربية نصب أعيننا أن ندرس مقتضياتها من جانبين: بنظرة إلى الخارج لنحدد واجباتها نحو العالم أي لتحديد شروط انسجامها مع ضرورات السير العام, ثم بنظرة إلى الداخل نحدد الطاقات التي يمكن توظيفها من أجل المحافظة على البقاء في الداخل والمحافظة على الاتجاه الصحيح في الخارج"[2].

كما يجب أيضا أن لانتجاهل أو نغفل عن جانب مهم يضمن للأمة استمراريتها, والمتمثل في التفكير في آليات حماية منجزاتنا الحضارية التي ماهي إلاّ حصيلة لدماء وعرق الأجيال السابقة لنا, ولعل علماء الاجتماع هم الأجدر بتحقيق هذه المهمة, وخصوصا إذا تضافرت جهودهم مع من يشرفون على التخطيط لشؤون الأمة ولأجل هذا يجب تأسيس علم اجتماع خاص بمرحلة الاستقلال لتوظيفه من طرف الدولة كأداة رقابة مرتبطة بجهاز التخطيط, وذلك لتجاوز معوق رفض النقد الذاتي واتهام كل ناقد مخلص لأمته ومتأمل لحالها بالتآمر والتشويش أو الخيانة, وذلك لما للنقد من دور جد ايجابي في تحديد معالم الطريق الصحيح وإرجاع قاطرة التنمية أو النهضة إلى مسارها الأصلي كلما انحرفت عنه قليلا[3].

---

[1] مالك بن نبي : مجالس دمشق , ص76

[2] مالك بن نبي: تأملات , ص179 و 180

[3] مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص41

ح ـ الواقعية والإبداع لتجاوز التقليد:

إذا كانت الأبحاث المتعلقة بمجال العلوم الطبيعية تحقق نفس النتائج في مختلف مناطق العالم فإن هذه القاعدة لاتصدق في مجال الأبحاث الاجتماعية نظرا لاصطدامها بعدة متغيرات مرتبطة بالجوانب الثقافية والتاريخية للمجتمعات, مما يؤكد أن لكل مجتمع مرحلته التاريخية التي يمر بها, ورصيده الثقافي الذي يحدد سلوكاته اليومية وطبيعة تعاملاته مع المشكلات المستجدة في حياته, وعليه فإن مآل جميع المحاولات النهضوية التي تعتمد على النظريات والحلول المستوردة من المجتمعات الأخرى هو الفشل لأن هذه الحلول:" تقتضي عند التطبيق عناصر مكملة لاتأتي معها, ولا يمكن أن تأتي معها, لأنه لايمكن حصرها ولا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها, أي لايمكن فصلها عن روحها التي تخيلتها"[1].

ولما وجد المجتمع الذي يسعى للنهوض نفسه بين جانبين: جانب العناصر التقليدية الممتدة بجذورها في عالمه الثقافي وجانب العناصر المستحدثة المستعارة من المجتمعات المعاصرة له والأكثر تحضرا منه, فإنه يجب عليه في هذه الحال أن لا يكدس هذه العناصر المستحدثة إلى جانب عناصره التقليدية بل يجب أن يبذل كل الجهد في تحليلها وتكييفها مع متطلبات واقعه, والتي ليست بالضرورة نفس متطلبات المجتمع الذي أنتجها, ولن يُحقق ذلك مالم يبذل جهدا إبداعيا مميزا وهذا الأخير لن يحدث بدوره مالم يكن هناك فكر نقدي بناء ويقظ أي مدرك ومحدد للشروط الضرورية التي ينبغي أن تتوفر أثناء عملية الاستعارة أي مدى حاجة المجتمع الفعلية لهذه العناصر, ومدى توافقها مع موروثه الحضاري الذي يشكل بنيته الثقافية في جانبها النفسي والسلوكي وكذا مدى قدرة هذه العناصر على تحقيق الإضافة النوعية لنشاط مجتمع يريد الدخول إلى الحضارة أو يسعى لاستعادة مكانته ودوره الريادي بين المجتمعات الحضارية الكبرى بعد أن مرّ بمرحلة ركود وانحطاط فرضتها عليه سنن التاريخ, أو مايسمى بالدورة الحضارية[2].

---

[1] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص103

[2] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص79

وهذا يستدعي فهم سنن التاريخ وكيف أن الأيام دول بين الأمم, وأن للمجتمعات مراحل تمر بها مثلها مثل عمر الفرد, وأن لكل مرحلة خصائصها ومميزاتها, وهل خصائص مرحلتنا هذه تستدعي محاكاة المجتمعات الأخرى التي تعيش مرحلة تاريخية مختلفة عن مرحلتنا نحن, وأن أي مشروع نهضوي لن يتحقق له النجاح مالم ينطلق بالتحديد الأولي للمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع, وهذا ما يفرض علينا عند محاولة:"حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ, وأن ندرك أوضاعنا, وما يعترينا من عوامل الانحطاط, وما ننطوي عليه من أسباب التقدم, فإذا ماحددنا مكاننا من دورة التاريخ, سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا"[1].

كما يجب علينا أيضا النظر إلى مشكلاتنا ومختلف التحديات التي تواجهنا بتفاؤل في أن المستقبل سيكون لصالحنا إن نحن سلكنا الطريق المستقيم القائم على الأساس السنني, ولكن من دون إفراط في التفاؤل واستسهال الأمور إلى درجة تجعلنا نتجرع مرارة النتائج في نهاية المطاف بل يجب علينا أن ندرك الواقع كما هو, ونعي جيدا مايدور حولنا, ونسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية, ومهما كان الوصف يبدو قاسيا فإنه يجب أن لايرقى إلى اعتباره نظرة تشاؤمية, بل هو عين التفاؤل والواقعية التي تتطلب تشخيص الواقع بموضوعية لأجل التوفيق والنجاح في تحديد طبيعة العلاج الذي نحتاج إليه, بل التشاؤم الحقيقي يكمن في ذلك العجز عن مواجهة مرارة الواقع وجسامة التحديات من خلال إخفائها بذلك الأدب المطنب وتلك الخطب النارية المنمقة بالألفاظ البيانية[2].

ومن ثمة فالواقع الذي نعيشه هو الذي يجب أن يكون الأرضية أو الأساس الذي ننطلق منه لنتصور حلول خاصة بمشكلاتنا, أمّا أن نقفز على واقعنا أو نتجاهله أو نحاول استحضار حلول جاهزة, إمّا من الماضي البعيد الذي كانت له تحدياته الخاصة بتلك المرحلة من الزمن, أو من عند الآخر المتميز عنا بخصوصياته الثقافية

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة , ص52
[2] مالك بن نبي : مجالس دمشق, ص144 و 145

والمختلف عنا بمرحلته التاريخية فمثل هذا التصرف لايمكن أن يوصف إلاّ بالجمود الفكري والتخلف الحضاري حتى وإن كان ظاهره يبدو أنه يسعى للتقدم, لأن تقدم المجتمع ماهو إلاّ حصيلة الجهود المتكاملة لأفراده والمعبرة فعلا عن متطلبات واقعهم والمجيبة عن أسئلة حاضرهم لذا يقول بن نبي:"ينبغي أن نهيء في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق مانتصوره من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية, تلكم هي مشكلة الشروط الأولية, وهي مشكلة تثور أمامنا لا بالنسبة إلى الحلول الجاهزة, التي نقتبسها من الخارج, بل بالنسبة لجميع الحلول التي نتصورها لحل مايواجه مجتمعنا من مشكلات في مرحلته التاريخية الراهنة"[1].

وبعد تحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها, حينها فقط نستطيع أن نبحث عن الحلول والمناهج التي بها يمكن تجاوز المعوقات والأغلال التي تحيط بنا وتكبلنا لتمنعنا من النهوض كما ينبغي لنا التساؤل عما نمتلكه من إمكانيات ووسائل إن كانت فعلا تمثل الزاد الكافي الذي يوصل إلى باب الحضارة والتقدم أم لا؟, وحتى نوفق في الإجابة يجب أن نتأمل الصيرورة التاريخية للمجتمعات والأمم لكي نكتشف سنن الأفاق والأنفس التي تعتبر عللا ثابتة لتوجيه حياة المجتمعات والأمم, إمّا نحو الركود والانهيار, وإمّا نحو الفعالية والبناء والتعمير, إذا فقبل أن نجيب عن قدر كفاية الزاد الذي نمتلكه يجب علينا أن نكون على بيّنة من أمرنا كأفراد وكأمة, أي يجب أن تكون لنا دراية تامة بالنواميس والسنن التي يتحرك وفقها العالم, والجدير بالذكر أنها قوانين ثابتة لاتسير وفق أهواء ومصالح الأفراد, بل هي لاتحابي أحدا, فمن استطاع فهمها والتكيف معها والسير وفقها تمكن من الوصول إلى أهدافه التي حددها مسبقا حتى وإن كانت تفسيراته للوجود مادية بحتة, ولا يعترف بما دون ذلك, وأمّا من خالفها وجهلها فإنه لن يستطيع تحقيق غايته مهما حاول جاهدا حتى وإن كان قلبه معلق بعالم السماء في كل حين[2].

---

1 مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص104

2 مالك بن نبي :شروط النهضة , ص54

وحينما يدعو بن نبي إلى البحث عن طرق جديدة كبديل لذلك التقليد المشؤوم عن الحضارة الغربية المعاصرة, فهو لايعني بذلك ــ إطلاقا ــ الانطواء على الذات والانعزال عن العالم, فهذا ليس من الصواب في زمن العولمة التي فرضت هيمنتها بالقوة, وأن الآخر ليس كله شرا كما أنه ليس كله خيرا, لذا يجب إعادة النظر في تنظيم علاقتنا معه, حتى نتمكن من الاستفادة من التجارب الإنسانية الكبرى[1], دون الذوبان في الآخر والتخلي عن مقومتنا الحضارية التي بها نتميز عن الغير, لتكون العلاقة علاقة تبادل المعارف والخبرات لاعلاقة تبعية وتقليد أعمى يدفع بنا إلى فقدان هويتنا من جهة, ومن جهة أخرى إلى العجز على أن نصبح الآخر فعليا حتى وإن تمثلناه معرفيا وسلوكيا, وحينها فقط نكتشف أننا اخترنا طريق الانقراض.

ومن خلال هذا المنظور يوجه بن نبي:"نقدا صريحا للاتجاهات العلمانية والليبرالية التي طالبت بتقليد منتجات الحضارة الغربية باعتبارها المنهج الأمثل لنقل العالم الإسلامي من التخلف والانحطاط إلى الحضارة والازدهار"[2], فالنهضة لاتتحقق بتقليد نماذج جاهزة أنجزها الغير تحت ضغط وتأثير متطلباته الخاصة المرتبطة بظروفه التاريخية وبيئته الثقافية, وإنّما تتحقق بإيجاد منهج قادر على إحداث تركيب تفاعلي بين الإنسان والتراب والوقت:"فنحن لانستطيع أن نصنع التاريخ بتقليد خُطا الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها, بل أن نفتح دروبا جديدة. ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلاّ بأفكار أصيلة تستجيب لسائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي أو على صعيد الأفكار الفعالة لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه"[3], ويوضح حمودة سعيدي هذا بقوله أن الفكرة المستعارة:"لابد أن تكون متناسبة أولا مع نفسية المجتمع, وثانيا مع سنه ودرجة نموه, وبذلك لا يمكن استعارة فكرة (ولا أقول نستوردها جاهزة) لمجتمع مازال في مرحلة الشيئية من عمره لأنه سيتعامل معها كشيء وبذلك تفقد كل إشعاع وكل قدرة على بعث التوتر لأنها قطعت من

1 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص138
2 زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة, ص75 و76
3مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص162

أصولها ومنابتها كفكرة وحولت إلى"شيء" بفعل لاشعوري ناتج عن مرحلة نمو في المجتمع المستقبِل"[1].

فمثلا العبرة من فشل مشاريع العالم الألماني "شاخت" في البلاد الإسلامية تُبيِّن لنا أن الإقلاع الاقتصادي لايكون بأفكار الغير ووسائل الغير وإنما يتم بالاعتماد على أفكارنا أو بالأحرى من خلال إبداعنا لشروط الإقلاع بأنفسنا وتحديد الوسائل الملائمة لذلك, وقد لانملك من الوسائل المادية في ساعة الانطلاق شيئا ولكن التزام الإنسان المؤمن بقضيته وإصراره على تحقيق أهدافه الكبرى هو رأس المال الذي لاينضب ولا يزول[2].

وإذا كان الغرب مازال يعاني من أزمات متعددة الجوانب ومعقدة الأشكال رغم ماحققه من منجزات, فهل نموذجه الحضاري قادر على إنقاذنا من ورطة التخلف الذي نعشيه إذا مانحن تبنيناه أو استعرناه منه, أم أنه سيضيف لجسدنا الاجتماعي المرهق بأمراض السنين العجاف ـــ التي مرت بها أمتنا منذ سقوط الدولة الموحدية إلى اليوم ـــ أمراضا جديدة تقضي على هذا الجسد الضعيف نهائيا, هذا ما يجيب عنه بن نبي في قوله:"[مهما] كانت وجهة الأمر فإن العالم الإسلامي لايستطيع في غمرة هذه الفوضى أن يجد هداه خارج حدوده, بل لايمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي, الذي اقتربت قيامته, ولكن عليه أن يبحث عن طرق جديدة ليكشف عن ينابيع إلهامه الخاصة"[3].

فالطريق الذي يجب أن تسلكه الأمة لتتحرر من قيودها الخارجية والداخلية, هو أن تدع جانبا ذلك الحديث عمّا يسمى الحقوق المهضومة التي يجب أن تسترد والسعي الجاد لإيجاد الوسائل الممكنة والفعالة التي تواجه بها الواقع رغم مرارته وصعوبة التحديات التي يطرحها, وإن بدا طريقا شاقا إلاّ أنه المسار الصحيح الذي يختزل المسافات وبه يتم تجاوز مختلف المعوقات والصعوبات التي تقف في وجه

---

[1] حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات, مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص338

[2] مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص172

[3] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص138

محاولاتنا النهضوية المتكررة والتي ظلت ترواح مكانها منذ زمن بعيد فالحضارة: "هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر, وفي إرادة هذا الشعب إزاء الحضارة, أي عندما يضع في كل تفصيل من حياته مضمونه الأخلاقي والجمالي والعملي حتى يكون هذا التفصيل كأنه خطوة نحو التقدم"[1].

كما يجب أيضا أن نبدع طريقا جديدا لدخول المجتمع العالمي أي أن نتجاوز التقليد, لأننا بالتقليد لن نضمن مكانتنا المتميزة بين الآخرين من جهة, ومن جهة أخرى لن يكون هناك أي معنى لمنجزاتنا لأن مانحققه بالتقليد أو السير في نفس الطريق الذي سار فيه الآخرون يكون قد سبقنا هؤلاء لامتلاكه وتحقيقه وبالتالي فلا معنى لوجودنا في عالم يريد كل مجتمع فيه أن يحقق مكاسب تضمن له البقاء والتميز عن غيره.

ومن هنا فتجاوز التقليد لايكون إلاّ بالبحث عن طرق جديدة لم يسلكها أحد قبلنا ولعلها تكمن في البحث عما تحتاج إليه الإنسانية والسعي لتحقيق هذه الحاجات وبذلك نكون قد صنعنا لأنفسنا مكانا محترما بين غيرنا, وإذا سألنا أنفسنا ما هو الشيء الذي تحتاج إليه الإنسانية ونستطيع نحن كعرب ومسلمين أن نقدمه لها؟. نجد أن الإنسانية اليوم في علاقتها التي طغت عليها المصلحة على حساب القيم الأخلاقية أصبحت تشعر بالقلق إزاء هذا الوضع الفاقد لقيم الإنسانية والذي أصبح يزداد تأزما يوما بعد يوم, وبالتالي فهي بحاجة إلى من يدعوها من جديد إلى طريق الخير[2] والإحسان ولعل المجتمع العربي والإسلامي يمتلك في رصيده التاريخي والثقافي قيما أخلاقية مستوحاة من عالم الغيب تساعده على أداء مهمته هذه على أحسن وجه:"فحضارة الإمبراطورية حضارة السيطرة الأوربية كلها مبنية على الإنسان الأعلى منذ نيتشة إلى يومنا هذا, وعلى حضارتنا أن تخلق إنسان الخيرية!! إنسان

---

[1] مالك بن نبي : في مهب المعركة , ص120

[2] مالك بن نبي : تأملات , ص215

الأمة الوسط ! الإنسان الأفضل الذي ينقذ الإنسانية من كوارثها, وليس هذا أيضا بالأمر السهل ولا هو بالأمر المستحيل إذا توفرت الإرادة وصدقت العزيمة"[1].

كما يدعو بن نبي أيضا إلى السعي للتجسيد الميداني للأفكار, من خلال إنزالها للواقع, فالبحث في مشكلات التخلف الاجتماعي والتنقيب عن آليات النهوض من جديد ليس ترفا فكريا, بقدر ماهو مسؤولية كبرى ملقاة على عاتق من اختار أن يسلك هذا الطريق, ولأجل ذلك:"لا ينبغي لمن يكتب أن يكون مجرد آلة كاتبة, تنقل لنا نسخة دون أن تقدر للكلمات التي كتبتها أي نتيجة اجتماعية, إن على من يكتب واجبا إزاء الكلمات التي يكتبها, يجب عليه أن يتبعها خارج مكتبه في معركة الحياة والصراع الفكري, أن يتبعها في عملها في المجتمع"[2].

وهذا يعني أنه يجب على الباحث أو المفكر أن ينزل من مستوى الأحلام المثالية غير القابلة للتجسيد الميداني إلى الواقعية المنسجمة مع معطيات الحاضر ومتطلبات الحياة الاجتماعية للقارئ باعتباره وسيطا بين المفكر والميدان العملي: "ومن هنا ينشأ واجب آخر لمن يكتب هو أن تكون له فكرة صحيحة بقدر الإمكان عن شخصية القارئ الذي يقوم بدور رئيسٍ في تقرير قيمة الأفكار الاجتماعية, لأنه هو العامل المحول الذي يحول الفكرة فيصيرها واقعا محسوسا أو شيئا ملموسا في محيطه"[3]. وتجدر بنا الإشارة هنا إلى التأكيد بأن شاهد القرن لم يكن :"يفكر من خارج الواقع, أو من أبراج عاجية كما هو حال كثير من المثقفين اليوم, بل كان يواكب حركة الواقع وتطوراتها المتعاكسة بتنظيراته وببلورة الفكرة التي ترشد العمل وتقوم الاعوجاج"[4].

واقتناعا من بن نبي بالدور الإيجابي الذي يقوم به القارئ في إنزال الأفكار إلى الميدان من خلال الممارسة اليومية, فهو يدعو قراءه إلى اختبار تأملاته في الميدان العملي, ونظرا للتفاوت المعرفي والأخلاقي القائم بين البشر فهو يخص

---

[1] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي , ص26
[2] مالك بن نبي: في مهب المعركة , ص137
[3] المصدر نفسه , ص137
[4] زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة , ص116

بالذكر تلك النخبة المخلصة لثوابت أمتها والمقتنعة بدورها الرسالي والمتحررة من مختلف القيود النفسية والاجتماعية وفي ذلك يقول:" ولكي نعطي هذه التأملات قيمة علمية يجب أن نعرضها لاختبار الحياة, في صورة إجراءات تربوية فعلية, في المستوى الإسلامي, ومن أجل هذا لابد من أن يتولاها مجمع من المتخصصين الخاليين من العقد البيروقراطية التي تنتاب الموظف ومن نظارة رجل السياسة المحدودة حريته الأخلاقية بأوامر حزبه أو جماعته, ومن أخلاق الفوضويين المغرمين يتملق الرأي العام"[1].

خ ــ تحقيق الفعالية:

خ1ــ طبيعة اللاّفعالية وعلاجها:

كنا قد أشرنا في الفصل الأول بأن المجتمع الإسلامي المعاصر يعــاني مــن فقدان الفعالية في حياته اليومية, بحيث أنه يتعامل بسلبية مع أغلب المشكلات التــي تواجهه, ولكن هذه اللافعالية غير مرتبطة ببرنامج دراسي يتم تعلمه في المدرســة, بقدر ماهي مرتبطة بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد إذ يقول بن نبي:"فــالفرد لايدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي ولكن لشروط خاصة بوسطه, أمّا مــن حيث سلوكنا السلبي إزاء هذه المشكلة أو تلك, فإن جميع أسباب اللافعالية الخاصــة بوسطنا هي التي تجعل منّا أشخاصا فاقدين للفعالية"[2], إذ أنه قد تتاح الفرصة للبعض من أبناء المسلمين للتعلم في الجامعات الغربية, وتحقيق نتائج إيجابية على المستوى المعرفي, إلاّ أنه على المستوى السلوكي تظل تصرفاتهم متسمة باللافعالية نظرا لما اكتسبوه من بيئتهم الأصلية أثناء مرحلة التنشئة الاجتماعية.

ولا يتوقف وضع مسلم مابعد الموحدين عند هذا الحد, بــل يتجــاوزه إلــى مستوى الشعور بالنرجسية, أو ذلك الغرور المرتبط باعتقاده أنه يمتلك قيم ســماوية

---

[1] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع , ص114
[2] مالك بن نبي : القضايا الكبرى , ص77

مقدسة, وفي الوقت نفسه, يتجاهل أو يغفل عن تخلفه وانحطاطه, وحتى استعباده من طرف بشر مثله لكونهم أقوى منه.

ويضاف إلى هذا غفلته عن كون هذه القيم الإسلامية المقدسة ليست حكرا عليه أو على مجموعة بشرية معينة, وإنما هي ملك للإنسانية جمعاء, وما ارتباطه اليوم بهذه القيم إلاّ نتيجة لحتمية الظروف التاريخية والجغرافية في أغلب الأحيان, ولهذا فواجبه لايتمثل في المزايدة على الغير وإنما في تبليغ هذه الرسالة التي يؤمن بها, وذلك من خلال تفعيل دورها في حياته وإعطاء صورة أنموذجية عن حامل هذه القيم الإسلامية المقدسة, وهذا الذي نبه إليه بن نبي بقوله:"ولا يكفي أن نعلن عن قدسية القيم الإسلامية, بل علينا أن نزودها بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر, وليس المقصود أن نقدم تنازلات إلى الدنيوي على حساب المقدس ولكن أن نحرر هذا الأخير من بعض الغرور الاكتفائي والذي يقضي عليه"[1].

ويواصل بن نبي الإشارة إلى أن أسباب استمرار مرض فقدان الفعالية إنّما يعود إلى غفلتنا عن علاج الإنسان المريض والقابل للاستعمار, وتعاملنا مع الأحداث والأزمات بلغة العاطفة لابلغة الفعالية هو الذي ضخم مشكلاتنا وجعلها تتراكم, فكثيرا مانغضب وننفعل ونوجه أصابع الاتهام إلى الاستعمار ونلومه على جرائمه التي ارتكبها في حقنا ونطالبه بالاعتراف بها, والاعتذار لنا, وننسى بأن الطريق الصحيح لاسترجاع عزتنا وكرامتنا إنما يكمن في إرادتنا الحضارية وقدراتنا الذاتية مهما كانت بساطتها.

ولكي يوضح لنا هذا يقدم بن نبي مثالا عن العلاقة بين الصبي والمجنون, إذ يقوم الصبي باستفزاز المجنون الفاقد لإرادته والتلذذ بردود أفعاله الانفعالية. وحل مثل هذا المشكل ـــ في نظر بن نبي ـــ يكمن في علاج المعتوه من مرض فقدان الإرادة وليس في توجيه اللوم للصبي والاستنكار على تصرفاته اتجاه المجنون فمهما طالت مدة استنكارنا واشتدت لهجتها ضد الصبي فإنها من المستحيل أن ترد للمعتوه

---

[1] مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي , ص112

رشده, لهذا فالطريق الصحيح هو علاج مرض فقدان الإرادة الذي يعاني منه مسلم مابعد الموحدين وليس توجيه اللوم للاستعمار الذي استغل هذا الوضع للاستمتاع والتلذذ[1].

وحتى لاتبقى السيادة حبرا على ورق أومجرد كلام بلا معنى يجب على الدول الحديثة العهد بالاستقلال أن تعتمد الفعالية في مخططاتها للانتقال من مرحلة التحرير إلى مرحلة متطلبات البناء من خلال الأعمال اليومية المتكاملة التي يقوم بها أبناء الأمة:"فإعلان السيادة حاصل منذ اللحظة الأولى, قد كتبته الدماء الزكية التي أراقها الشهداء على مذبح الوطن, أمّا أداة التنمية فإنها أكثر من ذلك... إنها تتطلب عرق الأحياء في عملهم المشترك, إذ هو يتكفل بها لمواصلة الكفاح من مقتضيات التحرير إلى متطلبات البناء"[2].

خ2 ـ ربط الفكر بالعمل لتحقيق الفعالية:

وإذا كان الجدل العقيم والخطابة الجوفاء الفارغة من المضامين الجوهرية هي إحدى سمات إنسان مابعد الموحدين فعلاج ذلك يستدعي الجمع بين العلم النظري والعمل التطبيقي إذ يجب أن تكون الجهود المبذولة في طلب العلم مرتبطة بغايات عملية معبرة عن متطلبات الواقع المعيش لنجعل من العلم والمعرفة آلة ووسيلة للنهوض والتحضر, وأمّا أن ننشغل بمضغ الكلام الموزون في شكل تعابير بلاغية وبيانية لإخفاء فراغه من الحلول العملية والفعلية لمشكلاتنا, فذلك مايرفضه بن نبي :" فالعلم الذي لايترجمه عمل,[كما يقول] يظل ترفا لامكان له في وطن مايزال فقيرا في الوسائل والأطر. ففي هذه المرحلة بالذات, لابد للاهتمامات أن تتركز في البلاد الإسلامية حول مفهوم الفعالية, وعلى الخصوص في مجال التسيير ووسائله"[3].

وهذا يعني ضرورة تجاوز الحرفية في الثقافة والتشدق بالألفاظ والعبارات العذبة الخالية من المضمون العملي من خلال السعي للربط بين الفكر والعمل,وذلك

---
1 مالك بن نبي : تأملات , ص133
2 مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه , ص40
3 المصدر نفسه , ص39

لأن:"الفكر المحول إلى عمل هو التاريخ المشرق لأمة من الأمم"[1], أي أن العمل يمثل الصورة المادية المتجسدة للأفكار التي نؤمن بها ونحاول الدفاع عنها أو نسعى للتمكين لها, وإذا انعدمت هذه العلاقة فسوف لن تتجاوز أفكارنا مستوى الحناجر التي قد يجف ريقها من كثرة الصراخ والعويل المرونق بالأسلوب البلاغي الجميل الذي هو دليل عجزنا عن تغيير الواقع والتعامل معه وفق متطلباته:" فكل حقيقة لاتؤثر على الثالوث الاجتماعي, الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة, وكل كلمة لاتحمل جنين نشاط معين, هي كلمة فارغة ميتة في نوع من المقابر نسميه القاموس"[2], بل إن معضلة واقعنا:"اليوم تكمن في هذه النقطة بالذات, أي في القطيعة بين الكلمة من جهة والحال والمآل من جهة أخرى, وخاصة فيما يمكن الوقوف عليه من مؤيدات في تشريعات وقرارات هذه المجتمعات في كل ضروب ومجالات الحياة الاجتماعية"[3].

فهذا يبيِّن أن مالك بن نبي يرفض تلك الطباوية, وذلك الترف الفكري المنفصل عن واقع الحياة اليومية, فهو يدعو إلى أن يكون الفكر مرتبطا بالعمل الميداني لأن الأفكار والنظريات تستمد قيمتها من نجاحها في توجيه الحياة العامة, أما إن هي عجزت عن التجسيد العملي, فما هي إلا عبارة عن شطحات غامضة لامعنى لها, ولهذا قال:"ولابد لي هنا أن أدعو شبابنا المثقف لأن تكون كل محاولة في أذهانهم تهدف إلى تطبيق عملي"[4].

فهذا القول يظهر إلحاح بن نبي على الربط بين الفكر ونتيجته المادية المتمثلة في العمل بمعنى أن أي نشاط فكري يجب أن يكون هادفا للتجسيد على أرض الواقع وإلاّ سمي ترفا وفي الوقت نفسه أن يرتبط كل عمل ميداني بنشاط فكري سابق له يتصور طرقه الممكنة ووسائله الملائمة ونتائجه المحتملة, وكل واقع تغيب عنه هذه العلاقة لا يمكن تغييره نحو الأحسن إذ يقول بن نبي:" فالمرء عندما يبلغ الاكتمال

---

[1] أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص172
[2] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ,ص100
[3] حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات, مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994, ص335
[4] مالك بن نبي: تأملات , ص25

يضغط على نفسه , ويخالف مادرج عليه محاولا بذلك تعديل وضعه, وحينئذ يصبح كلامه إرادة وعملا يدلان على وجود علاقة بين الكلمات والوقائع, فإذا ما انعدمت العلاقة بين الكلام والعمل أصبح الكلام هذرا"[1], ويجب الإشارة إلى أن هذا الطرح له تأصيله الشرعي إن لم نقل أن مصدره الأساسي هو الإسلام لأن:"اقتران الأفكار بالتطبيق وتحويل الأقوال إلى أعمال هي مفاهيم أساسية في صريح نصوص الإسلام, وعكسها عمل فيه مخالفة تستحق عقاب الله تعالى الذي يمقت القول غير المترجم إلى فعل حيث جاء في الكتاب العزيز:{ يأيها الذين آمنوا لِم تقولون مالا تفعلون* كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون }[2], في الآيتين سؤال وتنبيه وقرار بالعقوبة على فعل مايكرهه الله دفعا للضرر"[3].

خ3 ــ بعض شروط تحقيق الفعالية:

إذا كان الانتقال من حالة الركود والجمود إلى حالة الحركة والحيوية والنشاط في حياة المجتمعات هو مايسمى بالدخول في الحضارة أو النهضة, فإن أغلب المجتمعات التي مرت بهذه التجربة لم تتوفر لها من الوسائل إلاّ تلك الإمكانات الضرورية والبسيطة في آن واحد والمتمثلة في تلك القدرة الذاتية التي يمتلكها الإنسان, ويوظفها للسيطرة على ذاته والطبيعة والزمن باعتبار أن هذه العناصر الثلاث موجودة تحت تصرفه مباشرة, وليست محل نزاع مع غيره, لذا فإن أي انطلاقة يسعى مجتمعنا لإحداثها في مسار تطوره التاريخي لابد أن تقوم على هذه العناصر الأولية وتنطلق منها:"فالتراب هو عماد حياته المادية, لأنه يعيش على ثمرته في أي ظرف كان, والوقت رهن مشيئته لاينازعه فيه أحد, ولديه من العبقرية مايعينه على التصرف فيهما, فهو على هذا يتصرف تصرفا تاما في الشروط الضرورية التي تتيح له أن يحصل على وسائل أقوى"[4].

---

1 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي , ص70
2 القرآن الكريم:سورة الصف , الآيتين 2 و3
3 أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا , ص187
4 مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص98

وهذا يعني أنه يجب علينا أن ننطلق في العمل بالاعتماد على قدراتنا الذاتية والإمكانات المتاحة لنا ولا ننتظر ساعة المعجزات كما يتوهم بعض الفاشلين منا, أو الساعة التي ستتوفر لنا فيها جميع الإمكانيات, والتي قد لاتأتي مادمنا ننتظر ولانعمل.

لذا فإننا حينما نسلك طريق الواجب سنقضي على ذهاني السهولة والاستحالة الذين كان لهما الأثر البارز في عجزنا عن مواجهة الواقع واستسلامنا له حينما سيطر علينا ذهان الاستحالة, أو تورطنا في أزمات لم نلق بالاً لِمَ ينجر عنها من نتائج سلبية ووخيمة على مستقبلنا الحضاري نتيجة استهزائنا ببساطتها في البداية أو لنقل تعاملنا معها تحت تأثير ذهان السهولة الذي لايسمح لنا بتقدير المسائل حسب ما تستحق, وإنّما تقديرها وفقا لرؤيتها السطحية المجزِئة للأحداث المترابطة في حقيقتها:" والواقع أن خرافة هذا الذهان تختفي تماما متى قمنا بأقل الجهود تواضعا لأن لكل جهد ثمرته في الميدان الاجتماعي, ومتى تجمعت الثمرات بصورة إيجابية وجدنا أن أداء الواجب أعظم أثرا من المطالبة بالحق"[1].

وإذا كانت النكسات المتتالية التي تعرضت لها الأمة في عصر الانحطاط قد خلفت فتورا ولامبالاة لدى الجماهير بمشكلاتهم الجوهرية فإن ذلك يقتضي توظيف:"إيديولوجية تعطي التوتر الضروري لمجتمع يقوم بإنجاز مهمات كبرى لأنها تخلق الفرد التواق وهو عكس الفرد المائع الذي يركب مجتمعا ارتخت أوتاره"[2], والتوتر الذي يمثل الفكرة الدافعة لتفعيل نشاطات الأفراد وتوجيهها نحو نفس الغاية قد يظهر ويختفي في المجتمعات حسب طبيعة المرحلة التاريخية التي تمثل راهن المجتمع, لذا يقول بن نبي:" فالتوتر حالة نفسية اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة ثم تزول في ظروف أخرى, وأن المسوغات هي التي تكون الدوافع الإنسانية التي تدفع النشاط إلى أعلى قمة"[3].

---

[1] المصدر نفسه , ص148

[2] مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه , ص87

[3] مالك بن نبي: تأملات , ص42

ومن شروط تحقيق الفعالية ــ أيضا ــ يجب علينا أن نعيد النظر في فهمنا لمعنى التاريخ وعلاقته بالسلوك الإنساني, إذ أننا ننظر إلى التاريخ من منظور نظري خالص ومنفصل عن الميدان التطبيقي, فتجدنا نعتبره مجرد أحداث متعاقبة ومنفصلة عن بعضها البعض, ولتبرير عجزنا عن مواجهة بعضها أحيانا نلجأ إلى مشجب القضاء والقدر واستبعاد مسؤولية الإنسان في حدوث ذلك, في حين أنه يجب علينا أن نحدد مسؤوليتنا التاريخية بعد فهم القوانين والسنن التي تتحكم في صيرورة الحياة الاجتماعية.

وذلك من خلال الربط الجدلي بين أبعاد الزمان المتمثلة في الماضي والحاضر والمستقبل:"فبقدر ماندرك أسبابها ونقيسها بالمقياس الصحيح, نرى فيها منبهات لإرادتنا وموجهات لنشاطنا, وبقدر مانكتشف من أسرارها نسيطر عليها بدلا من أن تسيطر علينا, فنوجهها نحن ولا توجهنا هي, لأننا حينئذ نعلم أن الأسباب التاريخية كلها تصدر عن سلوكاتنا وتنبع من أنفسنا من مواقفنا حيال الأشياء, أعني من إرادتنا في تغيير الأشياء تغييرا يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية"[1], فلو أننا وظفنا لغة الكم في دراسة أحداث التاريخ لوجدناه منحصرا في قائمة إحصائية لنبضات القلب مجسدة في مجموع حركات اليد الموجهة بمواهب العقل[2].

وفي الختام يجب أن ندرك أن كل فكرة نستودعها في التربة, لابد أن يأتي اليوم الذي تنمو فيه, وتغذينا من ثمارها, أي أن كل فكرة نستطيع أن نوصلها إلى الضمير الإنساني يجب أن نطمئن على عدم ضياعها وفنائها, بل إنها ستخط طريقها بهدوء في مجرى البنية الثقافية للمجتمع لتتطور شيئا فشيئا ولا تلبث أن تتحول إلى واقع مجسد إن هي وجدت الأرضية الملائمة لانتشارها أو اللحظة التاريخية التي تدفع بها إلى الواقع[3].

---

[1] المصدر نفسه , ص130

[2] المصدر نفسه , ص39

[3] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ,ص160

الخاتمة:

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن المشروع الفكري البنابي لم يكن قائما على النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلا تاما بسبب الانبهار بمنجزات الغير سواء من القدماء أو الغربيين, وإنما كان مشروعا قائما على التحليل العلمي والعقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة بحيث قام في البداية بتحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها وهي مرحلة مابعد الحضارة, وانطلاقا من خصوصيات هذه المرحلة حاول مالك بن نبي أن يحدد الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسان مابعد الموحدين والتي تمثل أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية وتتلخص هذه المعوقات فيما يلي:

- الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي يشكل مرضا مزمنا ومعديا ومتوارثا بين الأجيال, لأن الجاهل الذي يقدم نفسه على أنه حامل للشهادة الأكاديمية, أو حامل لكتاب الله, لايدرك بأنه جاهل ويعتقد بأن الشهادة التي حصل عليها هي المقياس الوحيد لمكانته العلمية, ولوقوعه في أسر الغرور وجنون العظمة لايعترف بأخطائه ولا يصححها.

- تمزق البناء الاجتماعي للأمة, وسيادة النزعة الفردية في المجتمع مما يؤدي إلى انعكاس معيار القيم, وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها, فيحدث الاصطدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملي الجاد ويؤدي إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها فيما لاجدوى منه.

- أمّا الأفكار السائدة في العالم الإسلامي اليوم فما هي إلاّ مزيج من الأفكار التي تعيق التطور والنمو وتتمثل في الأفكار الميتة والأفكار القاتلة, ورغم اختلاف مصدريهما إلا أن كلاهما يؤدي إلى الهدم لا البناء.

- إن طبيعة العلاقة بين إنسان مابعد الموحدين وعالم الأشياء يحددها المعيار الصبياني في التعلق بالأشياء, إذ لم يعد الإنسان يستمد مكانته الاجتماعية من كونه إنسانا ولا من زاده المعرفي وإنما من كمية الأشياء التي يمتلكها ويتصرف فيها.

- كما أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة, بل كل ما يشد انتباهها هو ذلك الشخص الكارزمي الذي يعتقدون أنه يمتلك جميع الحلول لمشكلاتهم الخاصة, إلى درجة أن يتحول شخص الزعيم إلى وثن يعبد إمّا خوفا وإمّا انبهارا وإمّا طمعا.

- انحراف الممارسة السياسية في الوطن العربي, بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلمية التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل يمارسه بعض الدجالين لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير, واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.

- يتميز تفكير إنسان مابعد الموحدين بأنه تفكير نظري غير مرتبط بأهداف عملية, وأغلب من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام من دون أن يكون لذلك أي انعكاس ايجابي على الواقع.

- عدم استغلال الوقت والمال بعقلانية واعية لأهدافها ووسائلها وأحوالها, وكذا سلبية المثقف العربي الذي لا يتفاعل مع هموم أمته, ويكتفي إمّا بالانطواء على ذاته طلبا للسلامة, وإمّا هروبا إلى الخارج بحثا عن المكاسب المادية وإمّا بتحوله إلى أداة في أيدي مالكي سلطة القرار.

- لجوء المجتمع الإسلامي إلى التكديس بدل البناء, فطغيان الشيئية أعمى بصيرته وجعله يغفل عن البناء المرحلي التكاملي ويبدله بتكديس منتجات الحضارة إلى جنب بعضها البعض معتقدا أن هذه المنتجات هي التي تصنع الحضارة في حين أن العكس هو الصحيح بحيث أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها, ويشتمل التكديس على الأشياء والأفكار والأشخاص.

– يرى مالك بن نبي أن الاستعمار ما كان ليعمر طويلا في العالم الإسلامي لو لم يجد الأرضية مهيأة لبقائه من خلال ذلك الاستسلام التام بل والوقوف إلى جانبه من طرف البعض وتبنى أطروحاته والدفاع عنها من طرف البعض الآخر, ومنه فالقابلية للاستعمار عنده إنّما تعني تلك الحالة النفسية السلبية المتمثلة في الرضا بالعدم, والاستسلام للهوان والعجز عن مواجهة تحديات الواقع ومشكلاته.

– يرجع بن نبي أسباب كبوة المشاريع النهضوية إلى تلك الانطلاقة غير الموفقة التي لا تقوم على الرؤية التكاملية العميقة, والتي لا تدرك أهمية مختلف جوانب الحياة المادية منها والمعنوية, وتأثيراتها المتبادلة فيما بينها, وإنّما تقوم على رؤية سطحية تجزئ المشكلات, وتطرحها منفصلة عن بعضها بل قد تنشغل بجزئية صغيرة وتراهن عليها لوحدها لتحقيق أهداف النهضة, ولعل هذه النظرة التي تفصل المشكلات عن بعضها وتجزئها هي سبب ذلك الفشل المتكرر لمحاولاتنا النهضوية.

– يرى مالك بن نبي أنّ إنسان مابعد الموحدين سواء ارتدى ثوب الإصلاح أو ثوب التحديث فهو يعاني من عقدة رفض النقد, الأمر الذي يجعله يتمادى في أخطائه من دون أن ينتبه إليها, وقد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرته النهضوية, بحيث أنه يتم اللجوء إلى اتهام الأخر أحيانا واتهام التراث في أحايين أخرى لتبرير العجز أو الخطأ في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات.

– العشوائية في العمل, فبالرغم من وجود النية الخالصة للقيام بالتغيير إلاّ أنّها ليست الشرط الوحيد, بل نحتاج إلى المعرفة الواسعة بسنن التغيير الاجتماعي, وهو العنصر المفتقد في الكثير من محاولاتنا النهضوية, بحيث نجهل حتى خصوصيات المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا, لذا تجد البعض منّا يلجأ إلى الماضي البعيد لاستعارة حلول جاهزة, أوجدها أصحابها لمواجهة تحدياتهم الخاصة المختلفة زمانيا عنّا, وتجد البعض الآخر يلجأ إلى الضفة المجاورة لاستيراد حلول جاهزة أيضا, أوجدها أصحابها لمواجهة تحديات خاصة بمرحلتهم التاريخية المختلفة عنّا.

- اتفاق كل من دعاة الإصلاح والتحديث على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين, فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد, وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غربية لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وبالتالي فهذا الاغتراب الزماني والمكاني هو الذي أدى إلى التلفيق والفوضى أحيانا وإلى اصطدام الجهود أحايين أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.

وفي مقابل هذه الأمراض الداخلية التي ظلت تنخر جسد الأمة فكريا ونفسيا واجتماعيا, نجد حاجزا خارجيا يتمثل في الاستعمار الذي يرفض أن يتحول العبد إلى سيد يتخذ قراراته بكل حرية ومسؤولية, كما يرفض تعدد أقطاب الحضارة الإنسانية ومراكزها, كل هذا يدفعه لإجهاض أي مشروع نهضوي أو تحرري يحاول تحقيقه المستضعفون. وقد استخلصنا من هذا البحث مجموعة من الأدوات والآليات التي يوظفها الاستعمار كقيود وحواجز تمنعنا من تحقيق أهدافنا الإنسانية والحضارية ونذكر منها:

- العمل على اختراق مختلف الثورات والمبادرات التي يهدف أصحابها لتغيير أوضاعهم وأحوالهم, من خلال إدخال مجموعة من المتغيرات تساهم في الانحراف بالثورة عن هدفها الرئيسي, كما يقوم بخلق ثورة مضادة تكون في ظاهرها تحمل نفس مواصفات الثورة الأصيلة إلاّ أنّ حقيقتها هي المحافظة على المصالح الاستعمارية وإجهاض الثورة الأصيلة من خلال إبعادها عن مسارها الصحيح.

- اشتغال أخصائيو الصراع الفكري على ملفات شخص الزعيم الذي تجسدت في ذاته أفكار التغيير والثورة, ومن خلال تلك الثغرات التي يتم اكتشافها يوظف لتحطيم المشروع بعلم منه أو بدون علم, إذ تضخم أخطاؤه وتوجه نحوها أضواء الإعلام الكاشفة, وتشجع ثقافة المدح والتملق داخل محيطه, ليحطم بذلك نفسه ومشروعه من خلال تصرفاته.

– مصادرة الاستقلال باللعب على وترين أساسيين وتر التفكك ونشر الرذيلة وتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال محاربة القيم الأخلاقية العليا, ووتر السعادة الوهمية بنشوة الانتصار المؤقت والتي تؤدي بصاحبها إلى حد السكر والإغماء, وبذلك تصبح كلمة استقلال بلا معنى, أو مجرد مفردة في القاموس لاعلاقة لها بالواقع.

– تكييف الاستعمار خططه حسب طبيعة الأوضاع والظروف المحيطة فيستخدم الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى, أوبإعدام زعيم ثوري هنا وتثوير أقليات العرقية والطائفية هناك.

– تشجيع تجسيد الأفكار النهضوية المجردة, في ذات أشخاص كارزميين, أو أحزاب أو جماعات منظمة, لأنّ التجسيد يجعله يُحكم قبضته ويمسك بزمام الأمور, عكس التجريد الذي يسهل انتشار الأفكار الفعالة وتوسعها بسرعة نظرا لامتلاكها آليات ذاتية للدفاع عن نفسها. وعند تجسيد الأفكار السياسية تُعدم القيم والمبادئ لتحل محلها المصالح الشخصية وتصبح بمثابة المسوغات والدوافع والمعايير لأي ممارسة سياسية.

– استغلال عواطف الجماهير الساذجة من خلال خطابات راديكالية متطرفة تمثل حقنا مهدئة لغضبها من جهة, ووسيلة لكسب ثقتها من جهة أخرى حتى يسهل توجيهها, واللجوء إلى تجميد طاقات الأمة عند نقطة معينة, من خلال القيام بعمليات استفزازية تحرك العواطف والمشاعر, فتنطلق الجماهير في الثورة والغضب الزائد عن الحد للتفاعل مع بعض الإشاعات والتي ماهي إلاّ لعبة من لعب الصراع الفكري, ولكن حينما تمرر المشاريع المضرة بمصلحة الأمة نلاحظ هدوءا تاما وصمتا رهيبا وظلاما دامسا.

– تسخير إمكانيات مادية كبيرة وإمكانيات بشرية عالية المستوى للاستعلام عن حركة الأفكار للتخلص منها إمّا بتشويشها والانحراف بها إذا كانت فعالة وإمّا بتضخيمها وتوسيع نشرها والترويج لها إذا كانت متوافقة مع مصالحه.

- توظيف الاستشراق في عملية الصراع الفكري لارتباطه بمؤسسات الاستعلامات التابعة للاستعمار, وإذا كان دور الفريق الذي حاول تقزيم أو إلغاء دور الحضارة الإسلامية المساهِمة في المنجزات الإنسانية واضح للغاية, فإن بن نبي ينبه إلى دور الفريق الثاني الذي نصفه بالموضوعي فهو الآخر مؤسسة لإنتاج مخدرات تمجيد الماضي الزاهر للأمة للانبهار به عوض مواجهة تحديات الواقع المختلف.

- التمحيص الدقيق للكتب والمؤلفات وكل ماينشر لتوظيفه في معركة الصراع الفكري إمّا للتشويش على فكرة ما, أو لتحطيم القيم الأخلاقية أو لتخدير القراء وصدهم عن مشكلاتهم الجوهرية.

- استغلال الفراغ الإيديولوجي حيثما وجد بل لاينتظرون وقوعه وإنّما يعملون على صنعه بطرق معقدة وملتوية من خلال استخدام أفكار الغير كجسر لتفكيك وحدة الأمة من جهة وإحداث ثغرات يمرر من خلالها أفكاره من جهة أخرى. أي من خلال خلق تيارات فكرية مصطنعة قد لا تتوافق ظاهريا مع المشروع الاستعماري إلا أنه ينفخ فيها من روحه لغرض خلق توترات بينها وبين التيارات النابعة من إرادة الأمة فتتضاعف بذلك المشكلات وتزداد تعقيدا.

- استغلال الخريطة النفسية للعالم الإسلامي هو الذي يضمن له النجاح في مهمة تحويل أبناء المسلمين إلى أدوات لتخريب بيوتهم بأيديهم من دون وعي بل حتى من دون قصد.

- يقوم الاستعمار بتفكيك الفكرة الكلية إلى عناصر جزئية ليشتغل على تحطيمها جزءا تلو الآخر, وقد يلجأ إلى تضخيم مقصود لها يشل من خلاله الطاقات ويثير الخلاف بين حامليها فتتبعثر الجهود.

- يقوم الاستعمار بين الفينة والأخرى باستفزاز الشعوب المستعمرة إلى حد الهيجان مما يدفع إلى السباحة في أمواج الغضب والانفعال والعشوائية في التصرف فتفرغ بذلك كامل طاقتها من دون أن تحقق أي هدف لصالحها, بل الأعظم من ذلك أن كل

الأضواء توجه نحو منطقة ردود الأفعال الغاضبة والمنفعلة, وفي المنطقة المقابلة التي يسودها الظلام تمرر مختلف المشاريع التدميرية وتعزل الأفكار الفاعلة والجادة هناك من دون نجدة, فهو لايسمح بمشاهدة المعركة الحقيقة التي يتقرر مصير الأمة تبعا لنتائجها.

- يدفعنا الاستعمار من خلال استفزازاته المتتالية وردود أفعالنا غير المعقولة وتوجيه الأضواء الكاشفة نحوها لتقديم صورة سيئة ومزيفة عن حقيقتنا للرأي العام العالمي, كما تتكوّن لدينا صور ذهنية خاطئة عن حقيقة الآخر نتيجة الضغط المتكرر للانفعالات الناتجة عن الاستفزازات السابقة الذكر, ونقوم بعملية تعميم خاطئة تغلق بموجبها منافذ التواصل ويحتفظ كل طرف بصورة مزيفة عن الآخر, حقيقتها أنها من إنتاج مخابر الصراع الفكري, فنعيش منعزلين عن العالم الخارجي إمّا كمتهِمين للآخر أوكمتهَمين من طرفه لتداس بذلك كرامتنا على أرضية المطارات العالمية بكل برودة أعصاب من جهة الآخر, وبكل خضوع واستكانة من جهتنا.

- القيام بعمليات استباقية تتمثل في خلق تكتلات صغيرة لمواجهة وحدة الكفاح الشاملة, وبسبب التنافس والخلاف بين هذه الوحدات أو التكتلات يتم القضاء على الدافع الروحي الذي يحرك الأفراد العاملين لصالح هذه الفكرة, كما يؤدي هذا الخلاف للانحراف بالمعركة عن طبيعتها فيتنازع أبناء الوطن الواحد أو الدين الواحد أو التيار الإيديولوجي الواحد فيما بينهم, ويلجأون للاستقواء بالاستعمار على بعضهم البعض بدل توحيد الصفوف لمواجهته.

- اهتمام الاستعمار بالبعثات الطلابية للانحراف بها عن طريق طلب العلم لتعود بالشهادة الأكاديمية ولكن من دون زاد علمي ومعرفي, فتوظف كأداة لتكريس الرداءة والتشجيع عليها في أوساط النخبة المثقفة, وفي حالة ما إذا أثبت بعضهم امتيازه فسيحيطه بالتسهيلات والإغراءات من كل جانب للبقاء هناك. بل تغلق كل الأبواب في وجهه إذا ما عاد إلى بلاده, لأن أعداء النجاح يرفضون وجود الممتازين بينهم.

- تحطيم قدرات الإنسان المستعمر من خلال الانحراف بسلوكاته إلى ميدان الوقاحة والرذيلة وذلك من خلال محاربة القيم الأخلاقية بمختلف الطرق وتشجيع دعاة الانحلال بأسماء مختلفة, ويهدف بذلك إلى تفكيك الروابط الأخلاقية لتمزيق شبكة العلاقات من جهة وإلى تغيير البنية الثقافية السائدة من جهة أخرى بالإضافة إلى المحافظة على حالة التخلف.

- تشجيع التعصب للأنا سواء كأفراد أو كجماعة, لينقسم المجتمع إلى فريقين متناحرين فريق يتخذ من الاستعمار آلهة فيستسلم لها خاضعا مستكينا ويرفع ألوية الدفاع عن هذه العقيدة الجديدة التي يفوز معتنقها بكل نعم الدنيا, وفريق ثاني يجعل من الاستعمار شيطانا بليدا فيظل يواجهه بانفعال متزايد, والواقع أن الفريقين من صنع مخابر الصراع لأن ما يؤول إليه نشاطهما في النهاية هو النتيجة نفسها, وهي إبعاد المسلم عن واجباته اليومية وتحدياته الواقعية وتخديره إما بنعم الآلهة الجديدة وإما بالحماس والانفعالات التي لا معنى لها في صناعة الحضارة.

- كل ما سبق ذكره يستدعي ضرورة إنشاء مراكز بحث واستشراف تبحث في آليات الصراع وكيفية تجاوزها أو مواجهتها بهدوء لنصل على الأقل إلى مرحلة التوازن في مجال الصراع الفكري.

وبعد تشخيص الحالة المرضية للأمة سواء من خلال أعراض مرحلة الانحطاط أو من خلال العلاقة غير المتوازنة مع الآخر يقترح مالك بن نبي مشروعا بديلا لتجاوز هذه المعوقات, ويقوم هذا المشروع على مجموعة من الأسس أهمها:

- يجب على المجتمع أن يقوم بجهود تربوية تغرس في ذات الفرد النزوع إلى الجماعة والتخلص من النزعة الفردانية ذات التأثير السلبي على الانسجام الاجتماعي.

- بناء شبكة العلاقات الاجتماعية على أساس أخلاقي مستمد من البعد الديني, والحديث عن بنائها لا يفصل مشكلات الرجل عن مشكلات المرأة, بل لكليهما نفس

الواجبات, ومعاناتهما في المجتمع المتخلف واحدة, والعلاقة بينهما علاقة تكامل, لا علاقة صراع يسيطر فيها طرف على الآخر من دون وجه حق.

- ضرورة مراجعتنا لتصوراتنا النظرية وسلوكاتنا العملية, اتجاه مسألتي الحق والواجب, بحيث يجب أن نؤسس فلسفة نهوضنا على أساس القيام بالواجب عن قناعة والمصحوبة بالشعور بروح المسؤولية, ونتخلى عن طريق الكسل الذي يكتفي أصحابه بالمناداة والمطالبة بالحقوق من دون أن يحركوا ساكنا.

- ضرورة العمل على رأب الصدع وتقليص الهوة الموجودة بين الحاكم والمحكوم من خلال توجيه نشاطات كل منهما إلى اتجاه موحد تتجانس فيه جهودهما وتتكامل لأجل نجاح العمل السياسي وتحقيق غاياته, فالفعل السياسي لن يحقق نجاحه إلاّ إذا تبناه أفراد المجتمع, في إطار تعاون وتفاعل إيجابي بين عمل كل من الدولة والفرد.

- ضرورة استبعاد ذلك التحايل والخداع والمكر من الممارسة السياسية, وربطها بقواعدها العلمية التي تراعي الجوانب الفكرية والنفسية والاجتماعية المعبرة عن خصوصيات الأمة. وتجاوز السذاجة السياسية يقتضي تحديد الأهداف والغايات المرجوة منها بدقة, ثم تحديد الوسائل والآليات الضرورية لتجسيد هذه التصورات, وبالموازاة مع ذلك يجب العمل على توفير الوقاية والحماية للمنجزات المحققة, ولعل كسب ثقة المواطن من طرف القائمين على الشأن السياسي يعتبر من الآليات الضرورية للوقاية.

- الوعي بمتطلبات الأمة المرتبطة بخصوصيتهما, وإدراك طبيعة المحيط الدولي وأهم حاجيات الإنسانية غير المتوفرة في هذا المحيط.

- ضرورة إرجاع الفاعلية الاجتماعية للعقيدة من خلال معالجة ظاهرة الانفصام المرضي الذي يعيشه المسلم المعاصر, ولعل الحل يكمن في تأسيس علم جديد يسميه بن نبي "علم تجديد الصلة بالله" وظيفته أن يُشعر المسلم بوجود الله وليس أن يُبرهن له على وجوده.

– تبرز أهمية العنصر الديني في تنظيم الحياة الاجتماعية بعد فشل العلم ــ رغم أهمية ما قام به في المجال المادي ــ في حل المشكلات في جانبها الأخلاقي, ولعل القيم العليا المستوحاة من السماء هي التي يمكن أن تكون محل اتفاق المجتمعات البشرية رغم اختلافاتها الظاهرية. لأنّ للقيم السماوية خصوصية تتمثل في قدرتها الذاتية على النفاذ إلى ذات الفرد وتوجيه سلوكاته, وما حال البدوي العربي الذي فجّرت طاقاته الكامنة تلك الفكرة الإسلامية وجعلت منه إنسانا متحضرا, إلاّ دليل يجب أن يُذكر في مثل هذا المقام.

– يجب بناء الإنسان الجديد القوي بمعرفته لذاته ولغيره والمدرك لدوره والمؤمن بأهمية رسالته, ولا يكون هذا إلاّ بالتركز على التجديد والتغيير فيما يتعلق بالجانب النفسي لإنسان مابعد الموحدين لأنّ معجزة التغيير مستوطنة في نفسية الفرد لا فيما يحيط به من وسائل مادية, وتغيير نفسية الفرد معناه تغيير طبيعة علاقاته بالمشكلات التي يواجهها وتخليصه من ذهاني السهولة والاستحالة.

– يجب على هذا الإنسان الجديد التعرف على ذاته من دون نكران لها ولا تمجيد, وإنّما بعقلانية الممحص والناقد الموضوعي, والتعرف على الآخر من دون عقدة رفض ولا انبهار, وإنّما بمعرفة موضوعية تُظهر حقيقة الآخر بإيجابياته وسلبياته. ليجد بذلك مكانه المناسب في خريطة التطور الحضاري للمجتمعات والأمم. وبعدها يسعى لتعريف الآخر بنفسه, من خلال البحث عن آليات التواصل معه من جهة, ومحاولة معرفة حاجات الإنسانية لغرض خدمتها.

– يجب توظيف المعرفة العلمية كأداة للنهوض وتجاوز تلك المرحلة التي تكتفي بالعلم كمظهر أو وسيلة لكسب القوت, وفهم سنن الاجتماع هو الذي يجعلنا نتجاوز مرحلة التقليد المزدوج من خلال إبداع حلول ناجعة تتوافق مع خصوصيات المجتمع الذي يحتاج إلى علاج.

– ضرورة السعي للبحث عن آليات لحماية المنجزات الحضارية ووقايتها من الأخطار الداخلية والخارجية معا, ويقترح بن نبي تأسيس علم اجتماع خاص بمرحلة

مابعد الاستقلال ليكون أداة رقابة لممارسة النقد الذاتي من جهة واستشراف المستقبل من جهة أخرى.

- تضافر جهود جميع أفراد الأمة لتحقيق متطلبات واقعهم والإجابة عن أسئلة حاضرهم هو الأداة المثلى لتجنب القفز على الواقع, ويضاف إلى هذا عنصرا مهما أخر هو الفهم السنني لعالم الأفاق والأنفس, لأنّ التحرر من قيود التخلف مرهون بالوعي بالقوانين والحتميات التي يخضع لها الإنسان باعتباره كائن حي من جهة وكائن اجتماعي من جهة ثانية.

- طريق النهضة حسب بن نبي يمر عبر شارع الواجبات المقدسة في ضمير كل فرد من أبناء الأمة, فالشعب الذي يريد التحضر يجب عليه أن يعمل ويجتهد في كل يوم وفي كل دقيقة وفي مختلف مجالات حياته, أمّا أن يكتفي بالنوم والمطالبة بالحقوق فذلك طريق الانقراض.

- ودخولنا للمجتمع العالمي وضمان مكانة محترمة بين الأمم يفرض علينا أن نسلك طريقا جديدا لم يسلكه غيرنا وأن نقدم للإنسانية بعض الحاجات التي افتقدتها في عصر العلم والمادة رغم أنّها في أمس الحاجة إليها.

- علاج الجدل العقيم والخطابة الجوفاء يكون بالجمع بين العلم النظري والعمل التطبيقي أي ربط العلم بأهداف عملية معبرة عن متطلبات الواقع, لأن الأفكار والنظريات تستمد قيمتها من نجاحها في توجيه الحياة العامة أمّا إن هي عجزت عن التجسيد العملي فما هي إلاّ شطحات غامضة وبلا معنى.

- تتحقق الفعالية بالاعتماد على القدرات الذاتية والإمكانات المتاحة مهما كانت بساطتها لأنّ الحضارة في حد ذاتها ماهي إلاّ نتيجة ذلك التفاعل بين الإنسان والزمن والتراب, وتتحقق بتجاوز ذهاني السهولة والاستحالة, والاتجاه نحو طريق الواجبات, وتوظيف الأفكار الدافعة التي تنشئ توترا على مستوى نفسية الفرد مما يدفعه إلى مضاعفة الجهد والإنتاج.

- إعادة فهم معنى التاريخ من خلال الربط بين أبعاد الزمان بحيث أن معالجة تحديات الواقع لا يمكن أن تتم على الوجه الصحيح إلاّ إذا تم ربطها ببعدين أساسيين هما الماضي والمستقبل, وذلك لأن مشكلات الواقع ليست وليدة المصادفة وإنما هي نتاج لأحداث مترابطة ومعقدة تمتد بجذورها إلى الماضي البعيد في حياة الأمة, كما أن محاولة حل مشكلات الواقع لن يكون إلاّ ترقيعا ورد فعل انفعالي مالم يأخذ في الحسبان الأهداف المستقبلية التي تصبو إليها الأمة وتهدف, كل هذا يقتضي الأخذ بعين الاعتبار تكاملية أبعاد الزمان الثلاث وترابطها ببعضها وانعكاسات ذلك الترابط على حياة الأمة والمجتمع إمّا بالإيجاب وإمّا بالسلب.

- يجب أن ندرك كل فكرة تودع في التربة ستتحول إلى مشروع ثقافي مجسد في الميدان إن هي وجدت الأرضية الملائمة واللحظة التاريخية المناسبة.

كانت هذه خلاصة ما توصلنا إليه من خلال هذا البحث إذ لم نستطيع إيجازها أقل من هذا, والتي يتبين من خلالها أن مالك بن نبي كان صاحب مشروع نهضوي قائم على أسس عقلية ومنهجية متكاملة ومتجاوزة لتلك الانطلاقات الصفرية التي تتجاهل أخطاء السابقين ومزياهم, ولعلنا لم نُبرز هذا المشروع بقدر ما لمحنا له فقط من خلال الفصل الأخير وهو مايستدعي مواصلة البحث عن مقومات النهوض الحضاري عند مالك بن نبي.

قائمة المصادر والمراجع

أ)المصادر

1) مالك بن نبي:"بين الرشاد والتيه", ط1, دار الفكر, دمشق, 1978.
2) مالك بن نبي:" تأملات", إشراف: ندوة مالك بن نبي,ط5, دار الفكر, دمشق, 1991.
3) مالك بن نبي:"دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" دار الفكر, دمشق, ط1, 1978.
4) مالك بن نبي:"شروط النهضة" ترجمة: عمر كامل مسقاوي, عبد الصبور شاهين, بإشراف: ندوة مالك بن نبي, ط4, دار الفكر, دمشق, ط4, 1987.
5) مالك بن نبي:"الصراع الفكري في البلاد المستعمرة": بإشراف : ندوة مالك بن نبي, ط3, دار الفكر, دمشق, 1988.
6) مالك بن نبي:"فكرة كمنويلث إسلامي" ترجمة: الطيب الشريف, بإشراف ندوة مالك بن نبي, ط2, دار الفكر, دمشق, 1990.
7) مالك بن نبي:"في مهب المعركة", ط3, دار الفكر, دمشق, 1981.
8) مالك بن نبي:"القضايا الكبرى", ترجمة:الطيب الشريف, بسام بركة, ط1, دار الفكر, دمشق, 1990.
9) مالك بن نبي:"مجالس دمشق", ط1, دار الفكر,دمشق, 2005.
10) مالك بن نبي:"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو, إشراف وتقديم, عمر مسقاوي, ط1, دار الفكر, دمشق, 1988.
11) مالك بن نبي:"مشكلة الثقافة" ترجمة: عبد الصبور شاهين, بإشراف ندوة مالك بن نبي, ط4, دار الفكر, دمشق, 1984.
12) مالك بن نبي:"من أجل التغيير" ترجمة: بسام بركة ,عمر مسقاوي, ط1, دار الفكر, دمشق, 1995.
13) مالك بن نبي:"ميلاد مجتمع", ط3, دار الفكر, دمشق, 1986.
14) مالك بن نبي:"وجهة العالم الإسلامي", ط1, دار الفكر, دمشق, 1986.

ب) المراجع:

1) أسعد السحمراني:"مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا", ط2, دار النفائس, بيروت, 1986.
2) آمينة تشيكو:"مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي", دون طبعة, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر, 1989.
3) بدران بن مسعود بن الحسن:"الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري, أنموذج مالك بن نبي", ط1, كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر, الدوحة, 1999.
4) زكي أحمد: "مالك بن نبي ومشكلات الحضارة, دراسة تحليلية نقدية", ط1, دار الصفوة بيروت, 1992.
5) سليمان الخطيب: "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي, دراسة في ضوء الواقع المعاصر", ط1, المعهد العالمي للفكر الإسلامي, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, بيروت,1993.
6) شايف عكاشة: "الصراع الحضاري في العالم الإسلامي, مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي " , ط 2 , ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, 1988.
7) طه جابر العلواني:"إصلاح الفكر الإسلامي, مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر", بدون طبعة, المعهد العالمي للفكر الإسلامي (مكتب الأردن), عمان, سنة1995.
8) الطيب برغوث:"حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية", ط1, دار قرطبة, الجزائر, 2004.
9) الطيب برغوث:"الفعالية الحضارية والثقافة السننية", ط1, دار قرطبة, الجزائر, 2004.
10) الطيب برغوث:"محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي", ط2, دار قرطبة, الجزائر, 2004.

11) الطيب برغوث:"مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السنية, تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي", ط1, دار قرطبة, الجزائر, 2004.

12) عبد القادر بوعرفة: "الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي", دون طبعة, دار الغرب, الجزائر, دون تاريخ.

13) عبد اللطيف عبادة:"صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي", ط2, عالم الأفكار, الجزائر, دون تاريخ.

14) عبد اللطيف عبادة:" فقه التغيير في فكر مالك بن نبي" , ط1 , مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع , الجزائر, 2006.

15) علاء الدين الأعرجي:"العقل الفاعل والعقل المنفعل, الأمة العربية بين النهضة والانقراض, أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي", ط1, رياض العلوم للنشر والتوزيع, الجزائر, 2005.

16) عمر بن قينة:"المشكلة الثقافية في الجزائر,التفاعلات والنتائج", ط1, دار أسامة, عمان, 2000.

17) قادة بحيري:"محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي", بدون طبعة, دار الغرب, الجزائر, 2005.

18) محمد العبدة:"مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي", ط1, دار القلم , دمشق, 2006.

19) محمد بغداد باي:"التربية والحضارة, بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي", بدون طبعة, عالم الأفكار, الجزائر, 2006.

20) مولود عويمر:"مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري", بدون طبعة, دار الأمل, الجزائر,2007.

21) نورة خالد السعد:"التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي, دراسة في بناء النظرية الاجتماعية", ط1,الدار السعودية, الرياض, 1997.

22) يوسف حسين:"نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث", ط1, دار التنوير, الجزائر, 2004.

ج) المجلات:

1) "بونة للبحوث والدراسات" مجلة دورية محكمة, تعنى بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية, الجزائر, العددان الرابع والخامس, ديسمبر2005, يونيو 2006.
2) "ثقافتنا للدراسات والبحوث", مجلة علمية متخصصة في العودة الحضارية الإسلامية, مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية, مؤسسة الفكر الإسلامي, طهران,المجلد1, العدد الثاني, شتاء1425, 2004.
3) "رؤى", مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي, تصدر عن مركز الدراسات الحضارية بباريس, السنة الرابعة, العدد 20, 2003.
4) "الموافقات" , مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية,تصدر عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين , الجزائر, المجلد 3 , العدد الثالث, جوان 1994.
5) مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net , السنة الثالثة, العدد27, مارس(أذار) 2006.
6) جريد الشروق اليومي, الجزائر, العدد2278 ,17أفريل 2008

الفهرس